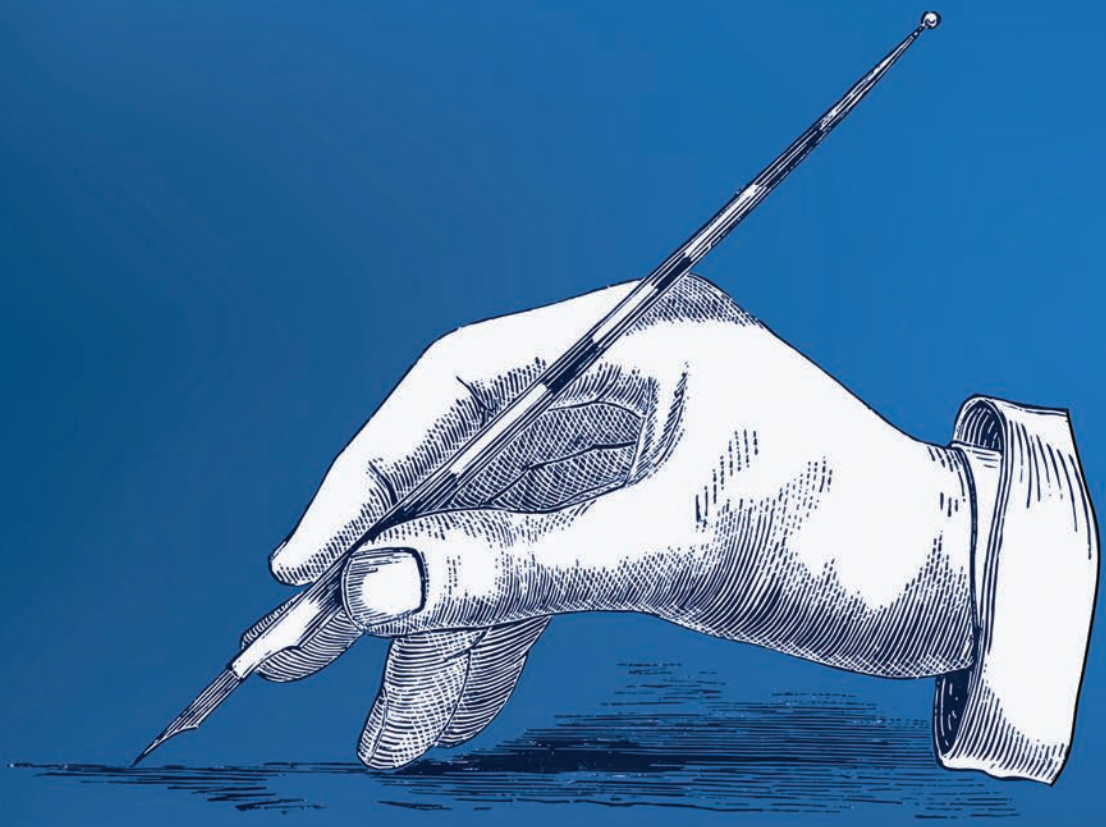
فن المقالة في حياتي

ومقالات أخرى



نجيب سعيد باوزير

مكتبة الصالحية للنشر والتوزيع

فنُ المقالةِ في حياتي

ومقالات أخرى

رقم الإيداع بالهيئة العامة للكتاب: م/ حضرموت (215) لعام 2022

عنـــوان الكتـــاب: فن المقالة في حياتي ومقالات أخرى.

المؤلـــــــــف: نجيب سعيد باوزير

المقـــــــــاس: 17 × 24 سم

تصـــميم الغـــلاف: عبدالله أحمد الكاف

الإخـــراج الفنـــي: عماد عوض عبدالله باحشوان- جوال: 967777357526+

محفوظة جميع الحقوق

الطبعـــة الأولى

1443هـ - 2022م

يُمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع والتصوير والنقل والترجمة والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من المؤلف.

فنُ المقالةِ في حُياتي
ومقالات أُخرى

نجيب سعيد باوزير


بسم الله الرحمن الرحيم

المحتويات

الإهداء 9

عن الكتاب والمؤلف 11

مقدمة 13

الجزء الأول: أدب وأدباء 17

وقفات مع الشاعر صالح بن علي الحامد 19

باكثير الأديب الحضرمي المصري في معترك العصر 43

الأديب علي أحمد باكثير والمخرج توفيق صالح حضرميان لمعا في مصر 57

مشكلة مسرحية باكثير: (الزعيم الأوحد)! 63

قضية العرب والمسلمين الأولى بين الأديبين نزار قباني وعلي أحمد باكثير 71

الشاعر كامل الشناوي وأغنياته الخالدة.. قصيدة (لا تكذبي) وأخواتها 77

في تأبين الشاعر عوض ناصر الشقاع 87

نظرات في ديوان (مرايا لا تعكس) للشاعر عبدالحكيم الزبيدي 93

علي عقيل بن يحيى شاعرًا 103

صلاح عبدالصبور والحزن 111

الشاعر جمال عبدالله حميد 115

الشاعر علي أحمد بارجاء وقصيدته عن (دار السلام) الباكثيرية.....119
بكائيتان للأديبين القاصين الكيلاني وباوزير.....123
الخَيّام ورُباعيّاتُه وترجماتُها.....127
أطلال ناجي وأطلال أم كلثوم.. هوامش على دفتر الشعر.....135
ذكريات عن مصطفى محمود.....145
الجزء الثاني: حياة في الكتابة.....149
فن المقالة في حياتي.....151
في حب اللغة الإنجليزية والترجمة.....157
عندما فزت بالجائزة الأولى في تأليف الشعر.....171
قصتي مع الكتابة السياسية.....175
فلسطين والجنوب وعناوين سعيد عوض باوزير الثورية.....179
إعادة الحياة إلى كتابات الشقيقَين باوزير وقراءة الأحداث على ضوئها.....185
تداعيات عن البكارة والموت والخريف.....191
بشارة واكيم ورسائل الفيسبوك الخفية.....203
وقفة أمام (بسطة الخامر) بحثا عن (قهوة النشاط).....207
قصتي مع القصة القصيرة.....213
الضعينة في الديوان.. أيام الخريف الساحرة.....219
ربع قرن من الفكر.....229
عن الافتتاحيات في الصحف والمجلات.....233

أنا والأناشيد.....239
عن الانتماء وانتماء الأدب.....243
شيكسبير وصدى مسرحياته في كتابات دورين إنجرامز.....247
الأطباء الكُتّاب حتحوت وحتاتة وحتاحت.....251
كتاب (وصف رحلة إلى الملايو وجاوة وحيدرأباد).. مقدمة الترجمة.....255
في يوم إشهار هامة لا تنحني.....265
الأستاذ علي عقيل بن يحيى قامةً حضرميةً سامقة.....267
تقديم كتاب (حضرموت.. قراءات في النصوص).....271
من أجل حضرموت.....277
كلمة إنصاف في وداع سند.....281
ملحق.....285

الإهداء

أُهدي هذا الكتاب محبةً وعرفانًا

إلى ولديَّ سعيد ومحمد

عن الكتاب والمؤلف

آخر إصدارات الصديق الشاعر، المترجم، والكاتب المقالي نجيب سعيد باوزير،2022، كتابه (فن المقالة في حياتي.. ومقالات أخرى)، وهو حصاد ما كتبه أ. نجيب من مقالات لها طرافتها من حيث المداخل، والمعلومات، وزوايا النظر التي يقارب بها الموضوعات والأفكار حول الشخصيات والقضايا.

ولئن عُرف أنه شاعر من ذوي الدواوين، ومترجم مجيد حتى تظن أن ترجمته إنشاء وليست نقلا من لغة أخرى، فإنه يرى في نفسه ذلك المقالي الذي يجد في فن المقالة – وهو فن مضطهد بين الأجناس الأخرى – مساحة أوسع لتقديم أفكاره وتوثيقها، وهو في ذلك من الذين يروقك أسلوبهم في بناء المقالة، وصناعة جُملها وفقراتها، بطرائق تسلس للقارئ قيادها، فإذا هو مأخوذ بسلاسة في الكتابة، مستمتع بما يبثه الكاتب من أفكار ومعلومات، وما يصدر عنه من تحليلات واستنتاجات، ليس فيها من الادعاء والتعالُم شيء.

فللأستاذ نجيب سعيد باوزير مني محبات غير ممنونة، محفوفة بتقدير عال لما ينماز به من دأب على الإنجاز، ورفد المكتبة الأدبية بعصارة فكره ورؤيته للعالم والأحياء والأشياء.

د. سعيد سالم الجريري

أمستردام: 2022/6/5

مقدمة

هذا هو كتابي الرابع الذي يدخل ضمن تصنيف (مجموعة مقالات)، ولذلك جعلت له عنوانا يمثل ذروة الوعي بكنه هذا اللون من الكتابة الذي أمارسه منذ عدد من السنوات قد يزيد على الثلاثين عاما، أي منذ أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات من القرن العشرين الماضي. وعندما أقول هذا فأنا أقصد أنني دخلت إلى هذا المجال دون أن تكون عندي رؤية واضحة لما أقوم به سوى أنني إنسان مهتم بالأدب والفكر يريد أن يضع على الورق أشياء تدور في رأسه.

كان اهتمامي في البداية منصرفا أكثر شيء إلى الأدب وتوهمت أنني أستطيع أن أكون (ناقدا أدبيا) غير آبه أو غير منتبه إلى قلة بضاعتي من المعرفة والأدوات التي تصنع أو تَلزم الناقد الأدبي في هذا العصر، وأقصد بالذات المعرفة الأكاديمية وأدواتها. في تلك الفترة وما يمكن أن أطلق عليها فترة البدايات، كتبت عددا مما كان يحلو لي أن أسميها أبحاثا أو دراسات تتفاوت في الحجم والطول، فكتبت – على سبيل المثال لا الحصر– عن (شعر) باكثير، والسياب، والبردوني، وحسين أبوبكر المحضار، وعن (قصص وروايات) عبدالله سالم باوزير، وعن (فكر) سعيد عوض باوزير، على سبيل المثال (مفهوم) الوطنية عنده. وكنت أهتم غالبا بتذييل البحث أو الدراسة بعدد من الهوامش والإحالات إلى المراجع والمصادر التي استفدت منها في البحث، وقد تكون الهوامش داخل البحث في أسفل الصفحة.

شيئا فشيئا – ولا أعرف كيف حدث ذلك– بدأت في التحول من هاجس البحث والدراسة إلى هاجس (المقالة)، التي أصبحت أجد متعة أكبر في كتابتها. في المقالة وجدت أن هناك حرية أكبر في التصرف في عناصر الموضوع.. في الاختيار والحذف وفي التقديم والتأخير، وفي المقالة تحررت من الالتزام (الأكاديمي) باستعمال الهوامش أيّا كانت، وانطلقت كما يحلو لي في تضمين مقالاتي استشهادات طويلة، خاصةً من الشعر لأنني أريد أن أشرك القارئ المتذوق معي في الاستمتاع بما استمتعت به أنا من هذه النصوص الشعرية، وبعض مقالاتي في هذا الكتاب تحتوي على مختارات طويلة أو حتى قصائد شعرية كاملة، خاصة تلك التي أجد أنها تتفق مع رؤيتي تجاه بعض القضايا أو تعبر عما أكنه لبعض الأشخاص من احترام وتقدير، كما في المقالة التي أوردت فيها قصيدة الشاعر علي أحمد بارجاء عن (دار السلام) الباكثيرية. وفي فن المقالة وجدت مجالا واسعا لربط الموضوع أيًّا كان بذات الكاتب، أو ما يسمى تغليب العنصر الشخصي، فهكذا كان كتاب المقالة الرواد والمؤسسون يفعلون ويفضلون، مثل الفرنسي ميشيل دي مونتين والإنجليزي فرنسيس باكون، وهذا ما عرفته بشكل خاص من كتاب لطيف بعنوان (فن المقالة) ألفه الدكتور محمد يوسف نجم. والمقالة حرة بعد ذلك في أن تختار الحجم المناسب لها قصرا وطولا، تماما كفن القصة القصيرة، فقد كتب تشيخوف قصة (موت موظف) البالغة القصر، وكتب قصة (عنبر6) المفرطة في الطول، وكلتاهما في منتهى الجمال.

وقد ساعدتني خاصية تغليب أو إدخال العنصر الشخصي في المقالة في

بث (رسائلي) الخاصة إلى القارئ، خاصة تلك الرسائل ذات البعد السياسي، في عصر يراد فيه من المثقف، بلْهَ المواطن العادي، في وطننا العربي أن يكون – في أحسن الأحوال– مجرد (متفرج) على ما يجري من حوله من أحداث جسام تمس صميم وجوده المادي والمعنوي! وقد تحدثت عن هذا الجانب بشيء من التفصيل في مقالتي في هذا الكتاب بعنوان (قصتي مع الكتابة السياسية)، وربطت ذلك بما وفره لي الفيسبوك من مجال حر للنشر واطّلاع أعداد كبيرة من القراء على ما أنشره. وربما كان هناك جانب سلبي في مقالات الفيسبوك هو السرعة وتعجل النشر، الذي لا يعطي فرصة كافية لتنقيح المقالة وتمحيصها، وإن كنت أكاد أكون راضيا بشكل عام عن مقالاتي التي نشرتها في الفيسبوك والتي تمثل الجزء الأكبر من مقالات هذا الكتاب. ولكن إذا كانت هناك مقالات أدخلت عليها تعديلات طفيفة مهمة لغرض النشر في هذا الكتاب وأبقيت على تواريخها التي نشرت بها في الفيسبوك، فهناك مقالات قليلة جدا فضلت أن أعيد كتابتها من جديد ولذلك ذيلتها بتواريخ الكتابة الجديدة.

إنني أدين للفيسبوك بأنه أتاح لي الدربة والمران في كتابة المقالة، حتى انتهيت إلى إيلاء عناية أكبر لهذا الفن الذي وجدت نفسي فيه – كما يقال – وتعهُّده بالتجويد والتطوير والوصول به إلى مستوى مرضٍ لي إلى حد بعيد من حيث المضمون والشكل والأسلوب. وأتمنى أن تكون هذه المرحلة الجديدة قد عبرت عن نفسها في المقالات الأخيرة التي كتبتها وأهم هذه المقالات وأطولها المقالة التي تحمل عنوان (وقفات مع الشاعر صالح بن علي الحامد)

والتي لهذا السبب صدرت بها كتابي هذا؛ فهذه المقالة – كما أرى– ليست دراسة عن الحامد وليست نقدا أدبيا لشعره، وإنما هي مقالة فنية ذات صبغة أدبية غالبة تستفيد – كغيرها من مقالاتي– من النقد الأدبي ومن غيره من ألوان المعرفة والفكر والثقافة التي تختزنها ذاكرة الكاتب ومن تراكماته الثقافية وتجاربه المختلفة خلال سنوات عمره الماضيات منذ أن وعى الدنيا.

غيل باوزير

8 يناير 2022م

الجزء الأول

أدب وأدباء

وقفات مع الشاعر صالح بن علي الحامد

لعل أول ما سمعتُ من شعر صالح بن علي الحامد (1903 – 1967م) هو تلك الأبيات الجميلة التي لحنها وغناها من شعره الفنان الحضرمي الخالد محمد جمعة خان:

قف معي نشهد جمالا يملأ القلب ازدهاء
أي زهر أي نبت أنبت الروض المريع
عجبا في الزهر ألوان كما الفنان شاء
ظهرت شتى وهذي زهرة فيها الجميع
غادة كالبدر حسنا واكتمالا وسناء
زهرة للحسن رفت بين أزهار الربيع
رفعت ذيلا وهمت تختفي عنا حياء
علق الغصن بها لا تستري الحسن البديع
واتركي الشاعر يسديكِ غناء وثناء
ذمة للحسن عند الشعر حاشا أن تضيع

وهذه القصيدة موجودة في الديوان الأول للشاعر (نسمات الربيع) الذي صدر في القاهرة عام 1936م عن مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر التي كان يرأسها الأديب الكبير الأستاذ أحمد أمين. وفي صدر الديوان سبعة أبيات للشاعر أحمد رامي يقرظ بها الديوان تبدأ بهذين البيتين:

رجِّع الشعر أيها الغريدُ قد شجاني من ثغرك التغريدُ
وأدر كأسه عليّ سلافا إنني من سلافه مستزيدُ

وعنوان القصيدة الأغنية (زهرة الحسن) وتحت العنوان تعليق يقول: "قطعة غنائية قالها الشاعر ارتجالا لأغنية اقترح عليه النسج عليها". وقد عرفت مؤخرا فقط أن للشاعر الحامد شعرا مغنًّى غير هذه القصيدة وبعضه من اللون الحميني (العامي) الذي كان ينظم فيه شاعرنا الحامد. ولم يكن ينظم في الفصيح فقط كما كنت أظن. وهذه ثلاثة مقاطع مختارة من إحدى قصائده الحمينية المغنّاة:

يا نسيم الصبا والأنس حيا قبالك
وانت يا قلب شف بحر المحبة صفا لك
مجلس الأنس عندي طاب شربه
والعَنَق والبلابل فوق الاغصان سجعت بالتلاحين

* * *

غصن راوي سقاك الله كرع من جبالك
جيت بابرد وباتروّح بضافي ظلالك
ردنا العقل وانّ العقل حنبه
وان قد العقل مانع خيَر نبقى في العشقة مجانين

* * *

يا رحيم ارث لي سالَك بخالق جمالك
لقّها للهوى والعشق لا لي ولا لك
فيك با يحتكم فن المحبة
إن حيينا وإن متنا بقينا مثل بين المحبين

وقصيدة (زهرة الحسن) واحدة من القصائد الفصيحة العديدة التي لحنها وغناها محمد جمعة خان، فقد غنى لأمير الشعراء شوقي عددا كبيرا من القصائد، وغنى لعلي محمود طه (تسائلني حلوةُ المبسم)، وغنى لأبي بكر بن

شهاب (بشراك هذا منار الحي ترمقه)، وغنى قصائد للعديد من الشعراء القدامى والمحدثين أثبتها الصحفي الأستاذ عزيز الثعالبي الذي رحل عنا مؤخرا – رحمه الله – في 21 أكتوبر 2021م في كتابه (محمد جمعة خان.. الأغنية الحضرمية الخالدة). وغنى محمد جمعة لحسين محمد البار بعض القصائد الفصيحة ولكن غنى له عددا أكبر من القصائد العامية وشكل معه ثنائيا فنيا ناجحا يشبه الثنائي أحمد رامي وأم كلثوم، إذ غنت أم كلثوم عددا من القصائد الفصيحة لرامي ولكن الغالبية العظمى في ما غنته له كانت من الشعر العامي.

وكما عاشت أم كلثوم ومحمد عبدالوهاب وأسمهان وغيرهم من الفنانين الكبار في عصر كان فيه في مصر عدد كبير من عمالقة الأدب والشعر والثقافة الذين احتضنوا هذه المواهب الغنائية وقدموا لها أشعارهم واختاروا لها من الشعر القديم والحديث فغنوا تلك الأشعار وشهروها بين الناس، كذلك كان في حضرموت في الأربعينيات والخمسينيات بوادر نهضة ثقافية تبشر بخير كثير، وكان من أبناء القطر الحضرمي ثلة من نابهي الأدباء والشعراء والمثقفين عاصرهم الفنان محمد جمعة خان ومنهم على سبيل المثال: صالح بن علي الحامد، ومحمد بن سالم السري، وحسين محمد البار، وسعيد عوض باوزير، ومحمد عبدالقادر بامطرف، والأقرب إلى الظن أن أمثال هؤلاء كانوا هم من يختارون للفنان الكبير قصائد الشعر الفصيح المعاصر والقديم كي يلحنها ويغنيها. وأحد هؤلاء، وهو سعيد عوض باوزير، ألف كتابا يؤرخ فيه للحياة العقلية في حضرموت منذ ما قبل الإسلام، وعندما وصل إلى العصر الحديث ترجم من بين من ترجم لهم لصالح بن علي الحامد ومحمد جمعة خان بوصفهما نموذجين يمثلان الفكر والثقافة في حضرموت في النصف الأول من القرن العشرين الماضي.

الحامد وأبوللو وشعر المهجر

جاءت ترجمة صالح بن علي الحامد في كتاب (الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي) للأستاذ سعيد عوض باوزير ترجمة قصيرة جدا، إما نظرا لاختيار مسبق لدى المؤلف وإما لأنه لم يجد من يزوده بمعلومات كافية عن هذا العلم الحضرمي عندما كان بصدد إعداد كتابه، ولكنه على أي حال لم يشأ أن يغفل ذكره وقد اطلع على إنتاجه الرفيع من الشعر كما أستنتج من وجود ديواني الحامد الأولين: (نسمات الربيع)، و(ليالي المصيف)، في مكتبة والدي، رحمه الله، فكتب عنه ما يلي:

"أديب موهوب وشاعر مطبوع، وضعه إنتاجه الرفيع الرصين في مصاف الشعراء المجيدين من أدباء العربية في هذا العصر. وهو إلى جانب شخصيته الأدبية اللامعة، فقيه ضليع شغل مناصب قضائية في عاصمة السلطنة الكثيرية، وله نشاط اجتماعي وسياسي."

أما وقد أشرنا آنفا إلى تاريخ ومكان صدور ديوان (نسمات الربيع) للشاعر الحامد، فإن ديوانه الثاني، (ليالي المصيف)، صدر في القاهرة أيضا في عام 1950م عن (مطبعة مصر)، وهو نفس عام صدور الديوان الثاني للشاعر إبراهيم ناجي (ليالي القاهرة)، كما يؤكد الشاعر حسن توفيق في مقدمته الطويلة لكتاب (قصائد مجهولة) الذي جمع فيه قصائد ناجي التي لم ترد في دواوينه المنشورة، وكما هو واضح فإن هناك تناصًا بين عنواني الديوانين، إذ يبدأ كل منهما بكلمة (ليالي) مضافةً إلى كلمة أخرى. وكان الشاعر صالح الحامد قد أعد للنشر ديوانه الثالث (على شاطئ الحياة) منذ وقت مبكر وأشار إليه في أحد هوامش مقدمة ديوانه (ليالي المصيف)، ولكن لأمر ما لم يطبع هذا الديوان في حياة الشاعر وتأخر صدوره حتى عام 1984م. وهذه الدواوين الثلاثة تضم كل قصائد الشاعر صالح بن علي الحامد التي اختارها

لتظهر على الناس وتمثله خير تمثيل شاعرا مهما يمتلك ناصية التعبير الجميل المؤثر ويتنقل بين الهموم والمواضيع، التي تشغل تفكيره وتلهمه الكتابة، من ذاتية وعامة، وهي حصيلة ليست قليلة في واقع الأمر، ولكن يدل التباعد بين تواريخ نشر الدواوين الثلاثة على أن الشاعر الحامد على الرغم من مقدرته الشعرية العالية لم يكن يغريه قول الشعر في كل حين وفي كل موضوع من أجل أن يظهر ويتباهى أنه من المكثرين أصحاب الدواوين المتخمة الضخمة، بل كان أكثر حرصا على تجويد شعره وعلى نبرة الصدق في هذا الشعر مهما يكن موضوعه، وهذا ما أكده الناقد الدكتور عبدالله حسين البار في دراسة له عن الشاعر، إذ قال: "لكن الحامد انصرف بكليته عن هذا الطراز من الشعر واتجه إلى القصيدة المتماسكة الأجزاء، المتلاحمة الأطراف التي تكشف عن تجربة شعورية مر بها الشاعر فتقصاها صورة صورة، ومعنى معنى حتى اكتمل البناء، وتم له الكيان على أحسن ما يكون وحدة وانسجاما".

وقد سألت ابن الشاعر الأخ العزيز الأستاذ غالب صالح الحامد الذي وضع بين يدي مشكورا كل ما طلبته منه مما يتعلق بوالده إن كان هناك أشعار لصالح الحامد لم تنشر بعد ولم تشملها الدواوين الثلاثة، فقال إن هناك عددا من القصائد التي تحتاج إلى جمع وترتيب وإنهم بصدد القيام بذلك. وقد جُمعت الدواوين الثلاثة وصدرت في مجلد واحد عام 2002م، تحت عنوان (الأعمال الشعرية الكاملة)، ولكنها إنما صُورت فقط طبعاتها القديمة ولم يكلف أيٌّ من الجهات الأهلية أو الرسمية في حضرموت نفسها عناء إخراج طبعة جديدة منقحة ومحترمة لأعمال هذا الشاعر الفذ تليق بمنزلته الكبيرة وتخلو من الأخطاء المطبعية التي اكتنفت الطبعات القديمة، بما في ذلك طبعة الديوان الأخير (على شاطئ الحياة) الذي لم يُلحق، مع ذلك، بتصويبات كما ألحق الديوانان الأولان!

كان صالح بن علي الحامد مجددا ورائدا فتح فتحا جديدا في الشعر الحضرمي، بل الشعر اليمني كله، فهو أول من أصدر ديوانا ذا نفس عصري وحديث، في إخراجه وحجمه وفي محتواه، في عام 1936م، فسبقَ بذلك الشاعرين العدنيين علي محمد لقمان ومحمد عبده غانم اللذين صدر ديواناهما الأولان (الوتر المغمور)، و(على الشاطئ المسحور) – على التوالي – في منتصف الأربعينيات من القرن العشرين الماضي. قال عنه الباحث ابن مدينة سيئون الأستاذ عبدالقادر محمد الصبان في كتابه (الحركة الأدبية في حضرموت): "وهو أول من اتبع الطريقة الحديثة وسمى دواوينه بأسماء وعنون قصائده، فإن من سبقه أبوبكر بن شهاب وعبدالرحمن بن عبيد الله مَشَيا على الطريقة القديمة... فجاء الحامد واتبع الطريقة الحديثة. إن شعر الحامد نابض بالشعور والحياة متدفق بالسمو الفني الروحي".

صدق الأستاذ الصبان بهذه العبارة الأخيرة في وصف شعر الحامد، فهذا الشعر ظهرت عليه سمات النضج الفني منذ الديوان الأول (نسمات الربيع) الذي أزعم أنه كان ندا قويا للدواوين التي ظهرت في مصر في نفس الفترة بالإضافة إلى أنه كان مثلها ينحو إلى التأثر بالموجة الرومانسية التي أخذت تنتشر آنذاك على يد شعراء حركة أبوللو وشعراء المهجر. وقبل سنتين فقط من صدور ديوان الحامد الأول (نسمات الربيع)، كانت قد صدرت في نفس العام، 1934م، الدواوين الأولى لثلاثة من رموز المدرسة الرومانسية في مصر، وهي: (الملاح التائه) لعلي محمود طه، و(وراء الغمام) لإبراهيم ناجي، و(ديوان صالح جودت)، لصالح جودت. وعلى سَنن هؤلاء الشعراء وغيرهم من الشعراء العرب الذين نشروا شعرهم في المجلات المصرية كالشاعر التونسي أبي القاسم الشابي، نشر صالح الحامد أشعاره الرومانسية في مجلة (ابوللو) ومجلة (الرسالة) التي نشر فيها أيضًا مقالات فكرية عميقة كمقاله المعنون (حول

الفقه الإسلامي والفقه الروماني)، ومما أعجبني في هذا المقال قوله:

"ووالله إننا لا نكره ذات أوروبا ولا علوم أوروبا ولا ثقافة أوروبا ولكنا نكره هذه النزعة الغالية، وهذه الثقافة الببغاوية الصورية التي يتمشدق بها بعض الشبان المتطرفين. أما علومها وأما ثقافتها الجدية وصناعاتها النافعة فإننا في مقدمة من يحبذها ويدعو إليها ولكن بعد غرس العصبية الدينية والعاطفة القومية في نفوس الناشئة حذرا من هذا الفناء وهذا الادّغام المشين".

وقد قال الحامد كلاما مشابها فيما يتعلق بالشعر في المقدمة التي كتبها لديوانه الثالث (على شاطئ الحياة)، بل استعمل كلمة (الادّغام) نفسها وليس الإدغام كما كتبت خطأً في الديوان:

"... وإنما نأبى كل الإباء تلاشي روح أدبنا التاريخي القديم وادّغامه في أدب أية أمة أخرى، لاسيما ونحن نرى ثروة لغتنا بأساليبها وبيانها قادرة على هضم كل ما يعرض لها من المعاني السامية والصور الشعرية الطارئة من الآداب الأخرى."

وأنا أود هنا أن أربط بين هذا الموقف الفكري المبدئي وبين المواقف المشابهة التي عبر عنها الشاعر صالح بن علي الحامد في كثير من قصائده والتي أجد أصداءً لها عند شعراء عرب من أتباع المدرسة الرومانسية، وأقصد بها المواقف التي تنبثق من هذا الشعور بالهوية القومية التي تشمل في نطاقها النزعة الروحية الدينية، إذ يكاد كل الشعراء العرب في النصف الأول من القرن العشرين يربطهم شعور واحد وفكرة واحدة هي أنهم أمة واحدة تتشارك الآمال والآلام وأنهم "كلهم في الهم شرقُ" كما قال أميرهم شوقي. وكنت في مقال قديم لي عن المؤرخ والأديب محمد عبدالقادر بامطرف قد قلت إن الشعراء الذين أتوا قبل موجة شعر التفعيلة حتى الرومانسيين منهم الذين

يوصمون عادة بالذاتية والتحليق في سماوات الخيال "كانوا يهتمون بالجهارة والرنين في الشعر ويؤمنون بالوظيفة الاجتماعية للأدب وبأن الأديب صوت أمته المعبر عن آمالها وآلامها، أو أنه نبي الإنسانية الذي يتقدم الصفوف نحو آفاق الخير والجمال ليس بالكلمات فقط ولكن عمليًّا إذا اقتضى الأمر". وقد تكلم الدكتور البار عن شيء من هذا المعنى فيما يخص الحامد في دراسته عنه التي اقتبسنا منها آنفا. ولقد تكلمنا في بداية هذا المقال عرضا عن حسين محمد البار، والد الدكتور عبدالله، بوصفه شاعر أغنية، وهو أيضا من رواد التجديد والرومانسية في حضرموت، وقد رأى فيه المفكر سعيد عوض باوزير صورة الأديب (المجاهد) التي كان يبحث عنها حبًا في حضرموت وتوقًا إلى نهوضها، وعبر عن هذا في المقال الذي أبّنه به في أعقاب وفاته – رحم الله الاثنين– إذ قال: "فهو بحق الشاعر الحضرمي الوحيد الذي ظل إلى أن فارق الحياة لسان حضرموت الناطق المعبر عن أفراحها وأتراحها المترجم لآمالها وآلامها... لقد كان البار هو الابن البار الذي أعطى لشعبه من موهبته وفنه وفكره وإنتاجه وحياته كل ما يملك لا يدّخر وسعا ولا يستبقي جهدا".

عندما جد عزمي على كتابة هذا المقال، انطلاقا من اقتراح عابر قدمه الصديق المُلهِم الدكتور شهاب غانم – وأعترف بفضله في هذا بعد فضل الله سبحانه وتعالى– تصفحت دواوين صالح الحامد الثلاثة، كما تصفحت بشكل أساسي دواوين أهم وأشهر شاعرين رومانسيين أنجبتهما مصر، وهما علي محمود طه، وإبراهيم ناجي، فعشت بذلك لحظات ما أجملها وما أمتعها منتشيا بأرق الشعر وأعذب الغناء وأصفى الفكر. وعدا عن السمات الرومانسية التي تكاد تشترك فيها هذه الدواوين، لاحظت هذه الروح القومية والوطنية الواحدة التي تسري فيها جميعها. فمثلا في ديوان علي محمود طه الأول (الملاح التائه) نجد قصيدة بعنوان (الملك البطل) يرثي فيها فيصل الأول ملك العراق، مع أنه

لا يذكر اسمه، ولكن يضع تحت العنوان تقديما يقول: "نُظمت على أثر وفاته فجأة في مدينة برن بسويسرا، وقد كانت فجيعة العرب فيه أبعد أثرا من كل الفجائع التي توالت عليهم من أيام الحرب الكبرى الماضية. وقد كان – رحمه الله – أول ملك عربي عمل جهده لاستقلال (العراق) بلاده المحبوبة، ومن أعظم الرجالات الذين كرسوا حياتهم لخدمة القضية العربية". وفي الديوان الأول للحامد (نسمات الربيع) نجد له قصيدة يرثي بها نفس الشخصية تحت عنوان (ملك العرب.. فيصل)، ويقول التعليق تحت العنوان: "ألقاها الشاعر في حفلة تأبينه بالنادي الأدبي العربي بسنقافورة في 15 جمادى الثانية سنة 1352 و 12 أكتوبر سنة 1933"، ونختار منها هذه الأبيات:

ويح الأثير وما يردد موجه ... كم ذا يهيج من الأسى ويثيرُ
يا بؤسه إذ قال أودى فيصل ... بطل العروبة فردها المنظورُ
نبأ دوى كالصور يخترق الفضا ... كادت جبال الشرق منه تمور
رجفت له أرض العروبة رجفة ... منها انحنى رضوى ومادَ ثبيرُ
أفلا تذوب لهوله مهج الورى ... ولو انها بين الضلوع صخور؟
لم يرزء الدهر العراق بفقده ... كل الشعوب لرزئه موتورُ
الخطب خطب الشرق قد أضحى له ... في كل جانحة يُشَب سعيرُ
فبحضرموت أسى وفي مصر جوى ... وبمغرب دمع يفيض غزيرُ
وكذاك في صنعاء والأردنّ بل ... في سنقفورَ أسى عليه مريرُ

وعلى أن هذه القصيدة المناسباتية ليست من عيون شعر الحامد – وله مناسباتيات رائعة – فإنني استشهدت بهذه الأبيات بالذات لكي أخلصٍ إلى القول إن هذه ليست مبالغات شاعر، بل هي الحقيقة، ففي مصر جوى، فعلا، عبر عنه علي محمود طه كما سبق، وفي الشام الذي يمثله الأردن في الأبيات كتب الشاعر بشارة الخوري (الأخطل الصغير) واحدة من أجمل قصائده يقول مطلعها:

لبست بعدك السوادَ العواصم واستقلت لك الدموعَ المآتم

وفي حضرموت أسى نستدل عليه بما كتبه أحد مثقفيها، وهو سعيد عوض باوزير، ليس في هذه المناسبة ولكن في مناسبة مصرع الملك غازي الأول، ابن الملك فيصل نفسه، الذي مات في عام 1939م بطريقة مشبوهة مشابهة لحادث وفاة والده، والمتهم في الحالتين هم الإنجليز طبعا. كان باوزير حينها في عدن ووصف أثر النبأ على هذه المدينة العربية الصابرة في مذكراته، فقال تحت عنوان (الفاجعة الكبرى): "أصبحت عدن في حداد حزين شامل فأقفلت المتاجر والمخازن ورفعت الأعلام السوداء ومشى الناس في حفل مهيب صامت مؤثر حيث أدوا الصلاة لروح الفقيد العظيم وتبادلوا عبارات التعزية، فكنت تشعر حقا بأن العرب في عدن لم يكونوا أقل حزنا من إخوانهم في بغداد، وأقيمت حفلات التأبين الكبرى في عدن والتواهي والشيخ عثمان". وجدير بالذكر أن في ديوان الحامد الثاني (ليالي المصيف) مرثية عصماء في الملك غازي الأول هذا. حقا لقد كنا (شرقا) واحدا كما أبدع في تصوير تلك الوحدة واللحمة، التي أضعناها اليوم من بين أيدينا، أمير الشعراء شوقي، إذ قال:

كان شعري الغناءَ في فرح الشرق وكان العزاءَ في أحزانه
قد قضى الله أن يؤلفنا الجرح وأن نلتقي على أشجانه
كلما أنّ بالعراق جريح لمس الشرق جنبه في عمانه

وقصيدة الحامد الرثائية تلك بوزنها ورويها وقوافيها تذكرني بقصيدة (الدمعة الخرساء) للشاعر المهجري الكبير إيليا أبوماضي، وهي قصيدة تعجبني كثيرا حتى إنني أعود إليها للتلذذ بقراءتها بين الحين والآخر، وهذا ما جعلني أتذكرها على الفور عند قراءتي لمرثية الحامد في ملك العراق. لقد تحدث النقاد عن تأثر الحامد ببعض الشعراء الرومانسيين العرب وساقوا

شواهد من شعره وشعرهم على وجود تشابه في الأوزان والقوافي وبعض الألفاظ بينه وبين أبي القاسم الشابي، مثلا، وبينه وبين علي محمود طه، خاصةً في قصيدة الأخير عن (بحيرة كومو) في إيطاليا. وها أنا أدلي بدلوي فأشير إلى التناص بين الحامد وأبوماضي في أكثر من بيت في قصيدتيهما (ملك العرب)، و(الدمعة الخرساء). يقول الحامد:

والناس باك للفجيعة نادب يذري الدموع وذاهل مذعورُ
قتمت له الدنيا وغُمّ سبيلها وكأنها وقفت فليس تدورُ
حالت لناظره المحاسن كلها وحياله صور الجمال كثيرُ

فهذه الأبيات الثلاثة فيها صدى واضح في الصور والألفاظ والتعابير من قول أبوماضي في قصيدة (الدمعة الخرساء):

وجمت فأمسى كل شيء واجمًا النور والأظلال والديجورُ
الكون أجمع ذاهل لذهولها حتى كأن الأرض ليس تدور
لا شيء مما حولنا وأمامنا حسن لديها والجمال كثيرُ

وتأمّل الجناس الجميل في بيت الحامد الأخير بين كلمة (حالت)، وكلمة (حياله)!

ولما كانت الدواوين الأولى للشعراء الثلاثة علي محمود طه وناجي والحامد قد صدرت بعد مدة وجيزة من انقضاء عام 1932م وهو العام الذي شهد رحيل الشاعرين الكبيرين الصنوين شوقي وحافظ، لم يخل ديوان من هذه الدواوين من رثاء لأحد الشاعرين أو لكليهما، بل إن الشاعر إبراهيم ناجي رثى شوقي بأربع قصائد ألقيت في مناسبات مختلفة ونشرت كلها في ديوانه الأول. وسأنقل فيما يلي أبياتا مختارة من إحدى هذه القصائد، تظهر فيها أيضا الروح القومية الأصيلة عند هؤلاء النفر الكريم من الشعراء، ويشير فيها ناجي

إلى البيت الشهير لشوقي من قصيدته عن دمشق:

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يُدَقّ

تقول أبيات إبراهيم ناجي:

شوقي نظمتَ فكنت بَرًّا خيّرًا في أمة ظمأى إلى الأخيارِ
أرسلتَ شعرك في المدائن هاديًا شبْهَ المنار يطوف بالأقطارِ
تدعو إلى المجد القديم وغابر طيّ القرون مجلل بوقارِ
تدعو لمجد الشرق تجعل حبه نصب القلوب وقبلة الأنظارِ
تبكي العراق إذا استبيح ولا تضنّ على الشآم بمدمع مدرارِ
وترى الرجال وقد أهين ذمارهم خرجوا لصون كرامة وذمارِ
فلو استطعتَ مددتَ بين صفوفهم كفًّا مضرّجة مع الأحرارِ

الحامد وباكثير وحضرموت

في هذا المنعطف من حديثي عن الشاعر صالح بن علي الحامد، أجدني ميالا إلى الربط بينه وبين أديب حضرمي آخر عاش في نفس الفترة تقريبا وخرج من نفس المدينة الحضرمية (سيئون)، وكلاهما فتح فتحا جديدا في الشعر، كل منهما على طريقته، ذلك هو– بلا شك – الأستاذ علي أحمد باكثير. لقد قدم باكثير الديوان الأخير للحامد (على شاطئ الحياة) بقصيدة ذات طابع خاص من ناحية الشكل، يشبه نظام الثنائية (couplet) في الشعر الإنجليزي، ذكر وتذكّر فيها بحنين وشجن أيامه في سيئون، وخاطب صاحب الديوان غير مرة بطريقة تشعرك بالألفة العميقة وصفاء المودة بين الرجلين: "يا صالح"، فقال:

آهـا لسيئون وأيامها هيهات يا صالحُ أن تنسى
أذكرها اليوم فأبكي لها وكانت البهجة والأنسا

يـا شـاعر الأحقـاف لا أقفـرت تلـك المغـاني مـن أغاريـدك
غـرد علـى العـلات فيهـا فقـد تُبعـث يومـا مـن أناشـيدك
غـرد وإن عـزّك ذاك الطلـب وضاع فيها منك صوت وصوت
حسبك أن تصغيَ دنيـا العـرب للشاعر الصداح من حضرموت

وعلى ما في القصيدة كلها من نبرة حزن وأسى وتفجع على حضرموت، إذ يبدأها باكثير بهذه الثنائية التي تشبه اللوم والعتاب الرفيق بين الأصفياء:

صـــالحُ هـــاجتنيَ ألحانُـــك رحمـاك! مـا شـأني ومـا شـانُك؟
قد كدت أسلو عهد ذاك (الحمى) حتـــى جـــلاهُ لـــي ديوانُـــك

فإن الثنائية الأخيرة التي أوردناها قبل قليل ضمن الثنائيات التي ختم بها باكثير قصيدته تحمل نغمة مريرة من خيبة الأمل: "وضاع فيها منك صوت وصوت" قد لا تفلح في التخفيف من لوعتها محاولةُ التسرية والتعزية التي جاءت في البيت الأخير:

حسبك أن تُصغيَ دنيـا العـرب للشاعر الصدّاح من حضرموت

وأنا أفهم هذه التعزية على أنها ليست موجهة إلى صاحب الديوان الحامد فقط بل ربما يقصد باكثير أن يعزي بها نفسه أيضا وكل (الأصوات) التي بُحّت وهي تستنهض الغافلين في حضرموت وتحاول إيقاظهم كي يبحثوا عن مكان لهم تحت الشمس، مثل عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف وحسين محمد البار وسعيد عوض باوزير وغيرهم من الشعراء – بالذات – الحضارمة. وأن يختم باكثير قصيدته باسم (حضرموت) فيه ما فيه – كما أرى – من مغزى ومعنى الحب والتعلق والارتباط بهذا الوطن أو (الحِمى)، كما سماه في بداية القصيدة، رغم تصريحه بأنه قد كاد يسلوه!

وقد سنحت الفرصة للقاء الصديقين عندما زار صالح الحامد مصر في

الفترة من 4 أبريل إلى 28 مايو من عام 1953م، أي بعد أيام قليلة من وفاة الشاعر إبراهيم ناجي الذي توفي بتاريخ 24 مارس 1953م، كما أثبت ذلك حسن توفيق أيضا، وبعد أقل من عام من قيام ثورة يوليو 1952م. كتب صالح الحامد في يومياته: "لقد أتيح لي عهد إقامتي بمصر حضور بعض الحفلات منها حفلة ذكرى عبدالقادر الحسيني أحد الشهداء بفلسطين التي أقامها فلسطينيون في دار الشبان المسلمين بمصر، وكانت فرصة لسماع خطابة بعض الشخصيات منهم مفتي فلسطين السيد أمين الحسيني وزعيم مصر محمد نجيب وعدد من الخطباء والشعراء من فلسطينيين ومصريين ومغاربة." والتقى الحامد في هذه الزيارة بعدد كبير من الشخصيات وزار كثيرا من المعالم، وسجل كل ذلك في مذكراته عن الزيارة، التي كان باكثير هو المعني بترتيب برنامجها وكان هو الأكثر مرافقة للحامد وسلمه خلالها قصيدته (يا شاعر الأحقاف) التي قدم بها ديوان الحامد الثالث (على شاطئ الحياة) والتي تحدثنا عنها باستفاضة في بداية هذا الجزء من المقال.

ولعله قد آن الأوان أن نقتبس من عيون شعر شاعرنا صالح بن علي الحامد في باب الاستنهاض واستثارة الهمم نحو العمل والبناء والتسلح بالعلم والنعي على الخمول والجهل والموات. يقول الشاعر الحامد في قصيدة له بعنوان (المعهد العلمي) ألقاها "في حفلة المدرسة السلطانية بالمكلا التي كانت تحت إدارة الأستاذ الكبير سعيد القدال عند زيارة وفد حضرموت الداخل لها بحضور عظمة السلطان صالح بن غالب القعيطي في يوم 3 ذي الحجة من سنة 1359هـ 1 جنواري سنة 1941م":

رحماك يا ربي ورشدك في هدى ... شعبٍ تخبط في ظلام ضلالِهِ
فلكم بذلتُ له جميل النصح في ... أبكاره حينا وفي آصالهِ
كم ضجةٍ مرت على أسماعه ... عبثا تكاد تهز شم جبالهِ

أسمعتُ لو حيا دعوتُ كأنني غيلان معتكف على أطلالهِ
آهٍ على وطن تأصل داؤه وبنوه أصل وبائه ووبالهِ
أتُراه عقّ أبا فأسلم ربنا سوط العقاب له بكف عيالهِ؟

* * *

يا فتية الأوطان حان جهادكم شدوا العزائم لاقتحام مجالهِ
وابنوا على الأعمال أس حياتكم ما المرء في الدنيا سوى أعمالهِ
واستكملوا الخلق الرفيع وسَمْته فالشأن كل الشأن في استكمالهِ
خوضوا ببحر العلم جم فنونه لا تقنعوا عن غمره بضحالهِ
ما قام بالأوطان غيرُ مثقفٍ غير المكارم لا يجول ببالهِ
الدين والأوطان ملء عروقه والمجد شغْل فؤاده وخيالهِ
جرتِ النزاهة في أسرّة وجهه وتمثل الإخلاص في سربالهِ
أنتم بنو الوطن العزيز وفيكمُ تُرجى سعادة حاله ومآلهِ
أشباله أنتم وعدّته وهل للغاب من حام سوى أشبالهِ؟
أنتم مشاعله ومظهر عزه وعماد نهضته ورمز جمالهِ

سنقافورا الحامد ومصر باكثير.. شعر المرأة والحب

بدأنا حديثنا عن صالح الحامد بذكر إسهامه في رفد عالم الغناء والمغنين ببعض أشعاره، ونختم الحديث عنه بمواصلة الخوض في هذا الجانب اللذيذ من شخصيته وسيرته، والتوسع فيه ليشمل جانبا ألذّ وثيق الصلة بالغناء، ذلك هو موضوع المرأة وعاطفة الحب نحوها، مع الموازنة والمقارنة بينه وبين صديقه الأديب علي أحمد باكثير، وكيف تناول كل من الأديبين هذا الموضوع الحساس في أدبه.

إذا كان صالح بن علي الحامد قد صدرت له ثلاثة دواوين– اثنان منها في حياته– قام بنفسه باختيار قصائدها باعتبارها تمثل شعره الجيد الذي بلغ

مستوى من النضج مُرضيًا له، فإن علي أحمد باكثير لم يصدر له أي ديوان في أثناء حياته، ولكن الدكتور أحمد عبدالله السومحي اطلع على أشعاره المحفوظة لدى أسرته في مصر وكتب عنه كتابه المعنون (علي أحمد باكثير.. حياته وشعره الوطني والإسلامي) ونشر أكثر من دراسة عن أدبه وشعره استفدنا منها في هذا المقال. وينتظر أن تصدر قريبا إن شاء الله الأعمال الشعرية الكاملة لباكثير التي اجتهد في جمعها وإعدادها على مدى سنوات طويلة الصديق الدكتور محمد أبوبكر حميد، وحينَها سيتمكن النقاد والباحثون من الحكم على شعره من خلال نظرة شاملة.

يعد موضوع المرأة وتعشُّقها والتغني بجمالها وسحرها وفتنتها من المواضيع الأثيرة عند الشعراء الرومانسيين ومنهم الشاعر صالح بن علي الحامد، فإن أشعاره التي تتناول هذا الموضوع، خاصة في ديوانيه الأوّلين، تمثل نسبة عالية كما أن مستواها الفني من النضج والجودة بمكان متقدم، ويبدو أنه يقتفي فيها أثر علي محمود طه وإبراهيم ناجي وأبي القاسم الشابي، ولعله من هذا الأخير أخذ لفظة الهيكل بمعنى المعبد التي تكررت عنده، والشابي كما هو معروف هو صاحب القصيدة الذائعة والرائعة (صلوات في هيكل الحب)، كما ورد في إحدى قصائده اسم (فينوس) ربما تأثرا بالشابي في نفس قصيدته هذه. واللافت أنه في مقدمة ديوانه الثاني (ليالي المصيف) نظّر لهذه الظاهرة في شعره، ودافع عن التغني بالجمال الإنساني المتمثل في "ألطف مظهر له وهو المرأة"، ودافع عن شعر الحب بهذه الكلمات الصريحة: "فشعر الحب أصدق الشعر وأخلصه، إذ هو ناتج عن أقوى الانفعالات العاطفية وأشدها أثرا، بل ربما يصح لنا أن نجعل ما لدى الشاعر من عاطفة الحب مقياسا لما له من حدة الشعور وإرهاف الوجدان". وإذا كان الحامد قد تحفظ بعد ذلك في جزء لاحق من نفس المقدمة فتحدث عن (النظر الفني الصوفي) و(النظرة

الصوفية النزيهة) فإنني لا أعد هذا إلا نوعا من التمويه وذرا للرماد في العيون فقط. وفيما يلي نموذج معبر من شعر المرأة والحب عند الحامد بعنوان (سمراء)، نلاحظ فيه هذا التناص العجيب مع (شاعر المرأة) نزار قباني – الذي جاء متأخرا عن الحامد قليلا – في صورة العصفور بين اليدين، ولكن في حين تقول المرأة التي يتقمص نزار شخصيتها:

وبدون أن أدري تركت له يدي لتنام كالعصفور بين يديه

نجد الآية تنعكس عند الحامد فيتمنى الرجل الذي يتحدث باسمه الشاعر لو عاش قلبه كالعصفور بين يدي سمرائه:

سمراء كم لك هام قلبي راجيا لو عاش كالعصفور بين يديك
جذلا بذُلّ الأسر عندك راغبا عن عيشه بين الربى والأيك
ولئن نأيت فكم بعثت على النوى روحي على ظهر الخيال إليك
ترعاك من مقل النجوم وتارة تهوي إذا يهوي الصباح عليك
وبعثت شوقي في النسيم لعله عني ينال الضم من عطفيك
أودعته قُبَلي إليك فهل أتى ليزُفّ قُبلاتي إلى شفتيك؟

وحتى في قصيدته بعنوان (الشاي) بعد أن يصف الشاي ذلك الوصف الجميل الشهير يخلص منه إلى التغني بالحبيب الذي كان نديمه على كأس الشاي؛ ولأن هذه القصيدة من غرر قصائد الحامد كما يصفها الأستاذ الصبان وهي ليست طويلة فسأنقل نصها الكامل فيما يلي:

روِّق لها ماء الغمام وهاتها ليَ والحباب يدور في جنباتها
صهباء ما عبثت بها يد عاصر ما عاشرت إلا أكف سقاتها
من جيد الشاي استحال عصيرها فأتت تحاكي الشهب في جاماتها
قد راق منظرها ورق زجاجها فلعلة لم يدهقوا كاساتها

لـولا انتصـاف الكـأس خيـل أنهـا فـي كـف سـاقيها تقـوم بـذاتها
وإذا الهمـوم علـى النـديم تكاثفـت وبـدت أشـعتها جلـت ظلماتهـا
فبهـا غنيـت عـن التـي سـلب النهـى مـن شـأنها والإثـم مـن تبعاتهـا

* * *

يـا سـاعة مـرت كلمحـة بـارق ذاقـت بهـا نفسـي نعـيم حياتهـا
عاطيت فيها الكأس خودا كاعبا مـاء الشـباب يجـول فـي وجناتهـا
فتمايـل الأغصـان فـي أعطافهـا وشـمائل الصـهباء فـي نظراتهـا
جـاءت إلـي وخـدها متـورد جزعـا لخـوف رقيبهـا ووشـاتها
قلـت اسـتقري واهـدئي حتـى إذا سـكنت بلغنـا فـي المنـى غاياتهـا
طـورا تنـازعني الحـديث وتنثنـي طـورا علـي بعتبهـا وشـكاتها
فأجيـب معتـذرا لهـا وأود لـو أنـي بـذلت الـروح فـي مرضـاتها

* * *

أوتيـت ذاك اليـوم لـذاتي ولكنـي كففـت الـنفس عـن حرماتهـا
اللّه يعلـم مـا هممـت بريبـة ولتـذهب الغوغـاء فـي تهماتهـا
لا يحفل العف الكريم بقول من نسـبوا إليـه فَريّـةً لـم يأتهـا

لم يعرف عن باكثير أنه كان متأثرا بالرومانسية على الرغم من أنه نشر شعره في مجلة (أبوللو)، ويصف صديقه الدكتور عبده بدوي موقفه من الحب فيقول: "فهو لا يخلص قلبه للحب، ولا يهبط إلى صميم التجربة، ولا يقتحم على ما يريد بجسارة، وإنما نراه مجرد مشاهد، ومجرد متأمل، ومجرد مشغول بالتراث!" إن تناول باكثير لموضوع الحب عادة ما يكون مشوبا بعقدة الشعور بالإثم، فهو يعنون إحدى قصائده الرائعة التي كتبها مع بداية إقامته في مصر بعنوان (بين الهدى والهوى)، وهو يصف فيها كيف وقف (الشاعر التقي) يصلي الفجر، وفيما هو يؤدي الصلاة رأى فتاة جميلة تسقي الزهور في شرفة

البيت المجاور فصرفته عن الخشوع في الصلاة، وهذا المقطع من القصيدة يصور هذه اللحظة الحرجة:

مر في سمعه حفيف لسهم ناشب في فؤاده المنكوب
ما وعى السمع أو درى القلب إلا بعد حين من وقعه والنشوب
من رماه وأي نصل وعن أية قوس رمي وفي أي حُوب؟
ولوى الجيد يسرة فإذا هو بمثال من الجمال النجيب
قمر طالع عليه من الشرفة يرنو إليه كالمذهوب
لفتته الصلاة نحو المصلى فادّراه بكل سهم مصيب
رب ماذا أرى؟ ألمحة نور منك أم وهم ناظر مكذوب؟
أم ملاكا بعثته بقبولي ونجاح المؤمل المطلوب؟
رب قلبي صبا إليه كأن لم أكُ في موقف الصلاة الرهيب
أين ولى اطمئنان نفسي ومن لي بخشوعي إليك والترحيب؟
رب حل الهوى محل الهدى في القلب ويلاه رب عاف الذي بي
وانتهى من صلاته وهو يهذي بضلالات شعره والنسيب

بل إن كتابته لرواية (سلّامة القس) كانت من أثر انشغاله بهذه الفكرة.. فكرة الصراع بين العاطفة الفطرية نحو المرأة وبين الوازع الديني، وقد تعمق الدكتور السومحي في دراسة هذه الرواية وبيّن كيف أنها تمثل شخصية باكثير نفسه من خلال بطلها عبدالرحمن بن أبي عمار، وتستلهم البيئة الحضرمية المحافظة أكثر مما تصور البيئة الحجازية في عصر سلّامة وعبدالرحمن القس. ومعروف أن هذه الرواية تحولت إلى فيلم سينمائي غنائي مثلت فيه أم كلثوم دور سلّامة وغنت من شعر باكثير هذه الأبيات التي ذاع صيتها:

قالوا أحب القس سلامة وهو التقي الورع الطاهر
كأنما لم يدر طعم الهوى والحب إلا الرجل الفاجر

يـا قـوم إنـي بشـر مـثلكم وفــاطري ربكــم الفــاطر
لي كبد تهفو كأكبادكم ولــي فـؤاد مـثلكم شــاعر

وقد فاجأنا الدكتور محمد أبوبكر حميد في مقال له نشر في صحيفة (اليوم السابع) المصرية بأن كلمات أغنية (غني لي شوي شوي) الشهيرة، التي ظهرت في نفس الفيلم بصوت أم كلثوم ولحن زكريا أحمد، كتبها علي أحمد باكثير بناءً على طلب أم كلثوم "ولكنه لظروف شخصيته المحافظة الرزينة طلب أن لا تنسب هذه الأغنية إليه، ثم ذاع بين الناس أنها من كلمات بيرم التونسي لأن هذا الأخير كتب قصائد عامية أخرى للفيلم فيما بعد". ويهمنا من هذه الرواية الإشارة غير البعيدة عن الحقيقة إلى شخصية باكثير "المحافظة الرزينة" التي لا يُستبعد – فيما نرى– أن تأنف من اقتران اسمها بأغنية خفيفة لاهية مكتوبة باللهجة العامية، ولربما كان باكثير– من ناحية أخرى– يعُد هذا نوعا من الخيانة لمبادئه ورسالته العروبية!

وقد كتب الدكتور أحمد عبدالله السومحي بحثا جميلا عن المرأة في شعر باكثير، ومما جاء في هذا البحث قوله – الذي ننقله بتصرف يسير– إن باكثير: "مثقل بقيود دينية واجتماعية وشخصية قديمة ظلّت تطارده وعاش في علاقته بالمرأة في تناقض عجيب، فبينما تراه يقول شعرًا مغرقا في الحِسّية أحيانا، إذا به يتفلسف في صوفية غامضة".

ويبدو أن صالح الحامد، في أشعار الحب والمرأة عنده، كان أكثر انطلاقا وتحررا من عقدة الشعور بالإثم – وما جاء في نهاية قصيدة الشاي، من تبرئة لنفسه من الريبة، شيء آخر مختلف – ولم يكن هذا الأمر ليسيءَ إلى مقامه في المجتمع أو يعيبَه بوصفه عالما وفقيها. وقد نقل لي ابنه الأستاذ غالب قصة نظمه للقصيدة الغزلية المُغنّاة (أيا ثملَ الجفون بغير سكرٍ)

الموجودة في ديوانه (نسمات الربيع)، ويطيب لي أن أروي هذه القصة هنا بطريقتي الخاصة، وأختم بنص القصيدة هذه الخواطر والتأملات عن الشاعر صالح بن علي الحامد كما بدأتها بالقصيدة المُغنّاة (قف معي نشهد جمالا)، وبالمناسبة فكلتا القصيدتين تتكون من عشرة أبيات.

ولد صالح بن علي الحامد بمدينة سيئون في عام 1903م، من أم إندونيسية الميلاد حضرمية الأصل. سافر للمرة الأولى إلى الشرق الأقصى وبالتحديد سنقافورا مع والده في عام 1923م وهو في نهايات العقد الثاني من عمره، ثم عاد إلى حضرموت، وبقي يتردد على سنقافورا، وطاف وجال في جزائر الشرق الأقصى وإندونيسيا، حيث كانت مصدر وحيه وإلهامه، ولكم تغنى بجمال طبيعتها في كثير من أشعاره، وقد قال قصيدته التي بدأنا بها هذا الحديث (قف معي نشهد جمالا) في جزيرة جاوا بإندونيسيا، وكان الفنان شيخ البار قد غناها في جاوا، ربما بلحن آخر وضعه لها غير اللحن الذي غناها به محمد جمعة خان!

ذلك الشاب السيئوني الوقور، الحضرمي النشأة، ذو الثقافة الدينية المحافظة، ابن الأسرة الثرية، كان آنذاك أحد الشخصيات المرموقة في مجتمع سنقافورة، أديبا شاعرا ذا حضور فاعل في الصحافة العربية المصرية وفي المهجر الإندونيسي، قياديا في النادي العربي بسنقافورا، ذا نشاط اجتماعي وديني، منفتحا في علاقاته، شغوفا بمعرفة الجديد. وفي يوم 11 يوليو 1936م كان حاضرا في حفل سنقافوري، غريب عما اعتاد عليه، أقيم تكريما للشخصية المشهورة عربيا وآسيويا الأستاذ السيد إبراهيم بن عمر السقاف بمناسبة منح الحكومة المحلية إياه لقب (J P). وهذه الشخصية ذكرها المستشار الإنجليزي بحضرموت هارولد إنجرامز في كتابه (وصف رحلة إلى الملايو وجاوة وحيدرأباد)، الذي ترجمتُهُ وصدر عن دار (مكتبة الصالحية للنشر والتوزيع) على نفقة الأخ العزيز الشيخ عبدالعزيز بن علي بن صلاح القعيطي، إذ قال إنجرامز عن السيد السقاف:

"على الرغم من أن السيد إبراهيم بن عمر السقاف ينتمي إلى عائلة حضرمية معروفة، فإنه لم يعش مطلقا في حضرموت. فقد ولد في مكة ونشأ في الحجاز وقدم إلى سنقافورا في عام 1925م، واهتماماته الأساسية مرتبطة بسنقافورا رغم محافظته على اهتمامه بالشؤون العربية".

كان الذي أقام الحفل هو السيد أحمد بن محمد السقاف، وقد طَلب من السيد الحامد أن يلقي كلمة شكر وترحيب بالضيوف باسم الجالية العربية بسنقافورا، وكان الحفل يضم أكثر أعيان سنقافورا بل صفوة المجتمع السنقافوري كلهم، وفجأة دخل صف من الحِسان وتحلّق حول طاولة واحدة، وكانت العيون الساحرة تبث الشعر والسحر حول الحفل، وكانت من بينهم فتاة أرمنية رائعة الجمال اسمها (فينج) فتن بها الشاعر الرقيق الحساس، ولم يتمالك نفسه فكتب فيها عشرة أبيات من نفس وزن وقافية القصيدة الطويلة التي ألقاها في حفل تكريم آخر لنفس الشخصية أقيم في النادي الأدبي العربي بسنقافورة وهي موجودة أيضا في ديوان (نسمات الربيع) ومطلعها:

هلمّ فذا الأصيل زها سناهُ وهذا الحسن ماثلة رباهُ

وفي هذه القصيدة لا ينسى أن يكرر مناشدته للشعب الحضرمي أن يهب من نومه فيقول:

محال أن يشاد خراب شعب غراب الجهل عشش في ذراهُ
أناشده الشعور بملء صوتي وما عرف الشعور وما دراهُ
تقدمت الشعوب إلى علاها سراعا وهو يحلم في كراهُ

فأي القصيدتين يا تُرى كتبت في البداية ثم تأثرت بها القصيدة الأخرى؟ قصيدة الحسناء الأرمنية أم قصيدة السيد السقاف، الذي كان هو من ترجم أبيات التغزل في الفتاة الأرمنية إلى الإنجليزية وقدمها لها فجن جنونها وطارت

فرحا! وهذه هي الأبيات العشرة:

أيا ثمل الجفون بغير سكر ... ألا تدري بطرفك ما جناهُ؟
بقلب لا يلين صفاه لكن ... لهذا السحر ما قويت قواهُ
فهل من عاصم من بطش لحظ ... إذا لم يغزه قلبي غزاهُ؟
وهل تغني الوقاية منه لما ... تدفق في دمائي كهرباهُ؟
أغانٍ في إزارك أم ملاك ... لفتنة خلقه الباري براهُ؟
نزلت من السماء سنى وسحرا ... لكي تغزو ابن آدم في ثراهُ
تغلب سحرنا زمنا ودنّا ... لطرفك حينما ألقى عصاهُ
هنا لهواك في الأحشاء قرح ... مضى عنه الطبيب وما شفاهُ
محال برؤه إلا إذا ما ... تلاصقت الجوانح والشفاهُ
حنانَك بالمتيم كيف ترضى ... بأن يفنى احتراقًا في هواهُ؟!

هذه القصيدة قام بعد ذلك الفنان البارز أبوبكر سالم بلفقيه بنبشها، وبذوقه الأدبي والموسيقي انتقى منها أبياتا لحنها وأداها مع (كورس) نسائي بطريقة رائعة شدّتني عندما استمعت إليها في (اليوتيوب). وغنى هذه القصيدة أيضا كثير من المطربين ومنهم الفنان السعودي طلال سلامة ومن حضرموت كرامة مرسال وعمر الهدار وغيرهم. ولعل أكثر هؤلاء الذين غنوا الأبيات لا يعلمون أنها للشاعر الحضرمي الكبير، صالح بن عليٍّ الحامد..!

14 نوفمبر 2021م

باكثير الأديب الحضرمي المصري في معترك العصر*

عندما كنا في مرحلة الدراسة الأولى في الخمسينيات والستينيات، كان علي أحمد باكثير قد استقر عنه في الأذهان وفي الوسط الثقافي أنه أحد الأدباء المصريين المرموقين، وكانت كتبه ومؤلفاته تصل إلى مكتبة المعارف بغيل باوزير إلى جانب كتب نجيب محفوظ وإحسان عبدالقدوس ويوسف السباعي ومحمد عبدالحليم عبدالله وغيرهم. كنا بشكل أو بآخر نعلم أنه حضرمي الأصل خاصة مع اسم عائلته ذي الطابع الحضرمي القح، ولكن فيما عدا الاسم كان كل شيء يدل على أن الرجل قد اكتسب الشخصية المصرية. وكان باكثير منذ استقراره في مصر وحصوله على الجنسية المصرية قد حصل عنده تحول خطير في الوجهة والطريق الأدبي الذي يريد أن يسلكه، فبعد أن كان يفكر أن يكون شاعرا كبيرا اختار أن يكون كاتبا مسرحيا في المقام الأول ثم كاتبا روائيا في المقام الثاني. فمعظم كتبه التي قرأناها في مرحلة التلمذة كانت عبارة عن مسرحيات مثل (مسمار جحا) و(هاروت وماروت) و(دار ابن لقمان) و(سر شهرزاد) ومسرحيات أخرى كثيرة، ولم يكتب إلا بضع روايات أشهرها (وا إسلاماه) و(الثائر الأحمر حمدان قرمط).

كنت أقصد باكتساب باكثير الشخصية المصرية أن معظم أعماله الأدبية كانت مأخوذة من المجتمع المصري المعاصر أو من التاريخ المصري سواء أكان الفرعوني أو الإسلامي أو غير ذلك من المراحل التاريخية التي

* محاضرة أُلقيت أمام المنتدى العمري بالمكلا بتاريخ 23 يونيو 2021م.

مرت بها مصر وصولا إلى مرحلة استعمارها من قبل الدول الغربية. ورغم أنه عاش سنوات لا بأس بها من شبابه الباكر في حضرموت واكتسب فيها العناصر الأساسية لتكوينه الثقافي والعلمي، بدا بعد ذلك كما لو أنه قطع صلته بحضرموت فلم يعد يتحدث عنها في أدبه. وكان آخر عمل كتبه مأخوذ من المجتمع الحضرمي هو مسرحية (همام أو في عاصمة الأحقاف) التي كتبها في الحجاز قبل وصوله إلى مصر، وهي أول مسرحية شعرية له وقد تأثر فيها بمسرحيات شوقي الشعرية مثل (مجنون ليلى)، و(مصرع كليوبترا).

* * *

من الكتاب الذين ربطتني بهم العلاقة الشخصية والصداقة الأخ الدكتور محمد أبوبكر حميد، وهو الأديب الذي أخذ على عاتقه الاهتمام بتراث باكثير والتنقيب عنه ونشره. وهو يصغرني في السن بسنوات قليلة، وتعرفت إليه لأول مرة في الكويت عندما قدم إليها للدراسة الثانوية ثم التحق بالمعهد العالي للفنون المسرحية وبعد ذلك واصل دراسته في أمريكا متخصصا في الأدب الإنجليزي، وكان باكثير حاضرا في موضوعَي رسالتَيه للماجستير والدكتوراه. وكان الأخ محمد في أثناء دراسته في الكويت في أواسط السبعينيات يذهب في الإجازات الصيفية إلى جدة بالسعودية، وهناك تعرف إلى والدي رحمه الله وجمعته به جلسات طويلة متكررة. وكان والدي يطلع على ما بدأ يكتبه حميد منذ ذلك الوقت في بعض الصحف السعودية مثل صحيفة (المدينة) ويثني عليه ويشجعه على الاستمرار، وبدوره ظل حميد معجبا بالشيخ سعيد منذ ذلك الوقت، وكثيرا ما كان يحثني على أن أكتب كتابا عن سيرته، لأنني الشخص الوحيد القادر على هذا كما يقول.

نشأت فكرة الاهتمام بباكثير عند الدكتور حميد، كما أخبرني، منذ أن كان طالبا في الشحر ثم في الكويت، وتعرف في الكويت إلى بعض

الأدباء والنقاد المصريين وأحدهم واسمه فؤاد دوّارة، وهو يساري، كان أستاذا له في المعهد وطلب من الطلبة ذات مرة كتابة بحث، وكتب الطالب حميد بحثا عن باكثير وقال فؤاد دوارة أمام الصف إن أفضل بحث كتبه الطالب محمد أبوبكر حميد ولكنه للأسف عن أديب رجعي. ولكن كان من حسن حظ الدكتور حميد ومن توفيق الله أن كان يدرسه في نفس المعهد أديب آخر شاعر وناقد مصري بارز هو الدكتور عبده بدوي، الذي كان صديقا حميمًا لعلي أحمد باكثير ورافقه مرافقة لصيقة طوال العشر السنوات الأخيرة من عمر باكثير. وقد استفاد محمد أبوبكر حميد كثيرا من هذا الأديب الذي يبدو أنه كان منتميا إلى نفس التوجه الإسلامي الذي عند باكثير، وحكى له كثيرا من أسرار الصراع الذي خاضه باكثير والحرب التي تعرض لها من اليساريين في مصر وغير ذلك من وقائع حياة باكثير. وقد التقيت أنا بالمصادفة بالدكتور عبده بدوي في عدن وهو في طريقه إلى سيئون لحضور مهرجان باكثير، وتكلمت عن ملابسات هذا اللقاء في أحد فصول كتابي (على طريق الوعي).

وفي وقت مبكر أصدر الدكتور حميد كتابا بعنوان (علي أحمد باكثير في مرآة عصره) أهداني نسخة منه في عام 1992 والكتاب صدر في عام 1991م أي قبل ثلاثين سنة، وهو يعد وثيقة مهمة حشد فيها الدكتور حميد عددا كبيرا من الشهادات عن باكثير بعضها كتب خصيصا لهذا الكتاب وبعضها الآخر نقله حميد مما كتب عن باكثير في بعض الكتب والمجلات. ومن الذين أدلوا بشهاداتهم عن باكثير في هذا الكتاب شخص اسمه أحمد محمد عبّاد، وآل عبّاد أصولهم من شبام ولكنهم استوطنوا الشحر وكانوا جيرانا لأسرة الأخ حميد. والأخ أحمد عبّاد عاش معظم حياته في عدن، وأنا أتذكر أنني سمعت أخي عبدالله رحمه الله يذكر هذا الشخص ويبدو أنه

ربطتهما صداقة، ومما علق بذهني عن هذه العلاقة أن الرجلين أخي عبدالله والأخ أحمد كانا متأثرَين بدعوة الإخوان المسلمين وأفكارهم. وقد أشار عبّاد في شهادته إلى أنه كان يتابع إنتاج باكثير من قصائد ومسرحيات قصيرة التي كان ينشرها في مجلات مثل (الدعوة)، و(الإخوان المسلمون)، و(الفتح)، وغيرها التي كانت تصل إلى عدن في الأربعينيات وبداية الخمسينيات. وعندما اتصلت بأخي الشيخ أمين في عدن، أطال الله عمره، ذكر معرفته بالأستاذ أحمد عبّاد، بل قال إنه عمل عنده في المكتب الذي كان يملكه في عدن، وذكر لي أن أحمد عبّاد وأخي عبدالله وزملاء آخرين كانوا يلتقون أحيانا في (سفينة نوح)، وهي غرفة السكن التي تقع فوق (مكتب بامطرف) في سوق الاتحاد بعدن. وقد ارتبط هذا الاسم، (سفينة نوح)، بالأديب عبدالله سالم باوزير الذي كتب رواية ظريفة عن سكان هذه الغرفة، إذ كان هو واحدا منهم.

ومن الأشخاص الذين وردت شهاداتهم عن باكثير في ذلك الكتاب الأستاذ عمر عثمان العمودي وهو زوج السيدة إجلال ربيبة باكثير (ابنة زوجته من زوجها السابق). ومن المعلومات التي استقيتها مؤخرا من الدكتور حميد ما ذكره لي من أن عمر عثمان العمودي فتح له كل خزائن أوراق باكثير التي تضم كل تراثه، وكان الأستاذ أحمد محمد عبّاد هو الذي مهد لمحمد أبوبكر حميد الطريق وقدمه إلى الأستاذ العمودي في عام 1990م وأوصاه به خيرا. وكان عبّاد على صلة وثيقة بالأديب الراحل وكان يلتقي به كثيرا. وأنا أذكر هذه الأشياء لكي أشير إلى أن باكثير رغم أن إنتاجه الأدبي ربما ابتعد عن الموضوع الحضرمي فإنه ظل وثيق الصلة بالشخصيات الحضرمية، وكان يحتفي بمن كان يزوره منهم في القاهرة. وذكر لي الدكتور حميد أن تاجرا حضرميا معجبا بباكثير هو الشيخ سالم عبيد باحبيشي أخذ على

عاتقه توفير قاعة في مقر جماعة التوحيد والسنة في شارع العزيز بالله في القاهرة نقل إليها مكتبة باكثير الشخصية التي فتحت للعامة وأصبحت تعرف باسمه. ومع تقديرنا لمصر العظيمة التي احتضنت باكثير ابنا من أبنائها وأحبها ومثلها في المحافل الثقافية الدولية والعربية، ومع تقديرنا للوسط الثقافي والفني في مصر الذي احتفى بإنتاج باكثير وقدم له ما يستحق من التكريم والإبراز في السينما والمسرح وغير ذلك من المنابر، ومع تقديرنا أخيرا وليس آخرا للمنصفين من الأدباء والكتاب المصريين الذين دافعوا عن باكثير في أثناء محنته في الستينيات مع اليسار والشيوعيين، وممن دافع عنه حتى بعض اليساريين مثل فؤاد دوارة الذي مر علينا وصفه لباكثير بأنه رجعي، فإن الله شاء أن لا يقوم بالدور المهم وبالمهمة الجليلة في بعث وجمع ونشر تراث باكثير إلا أديب وأكاديمي حضرمي هو الدكتور محمد أبوبكر حميد. وأنتهز الفرصة هنا لأشير إلى أديب وناقد آخر إماراتي حضرمي الأصل هو الدكتور عبدالحكيم الزبيدي، الذي أخذ على عاتقه إنشاء موقع على الإنترنت باسم علي أحمد باكثير يضم كل ما يتعلق بباكثير مما يفيد الباحثين وعامة الجمهور المثقف والمهتم وذلك منذ عام 2010م، كما أنه أيضا كتب عن باكثير كتبا ومقالات، وقد انعقدت الصلة والصداقة أيضا بيني وبين هذا الأديب منذ سنوات قليلة رغم أننا لم نلتق وجها لوجه حتى كتابة هذه المادة، وصرنا نتعاون معا في كثير من المجالات الثقافية.

* * *

ليس من الغريب أنه تكوّن في وجداني وفي عقلي تعلق بباكثير وإعجاب شديد به، ساهمت فيه بعض العوامل من بينها اطلاعي المبكر على مسرحياته ورواياته التي كانت موجودة في مكتبة المعارف بالغيل، وربما أيضا اعتزازي بأصله الحضرمي. ولم أكن قد اطلعت إلا على شيء يسير جدا من شعره لأنه

لم يهتم بجمع أشعاره في ديوان كما هو معروف، وهذا الشيء اليسير تمثل على سبيل المثال في البيت الشهير الذي كان الناس يتداولونه:

ولو ثقفت يوما حضرميا لجاءك آية في النابغينا

وهو من قصيدة ألقاها في نادي الاتفاق بأديس أبابا مطلعها

على إخواننا المتديرينا أديس أبابا سلام المخلصينا

كما أنني وأنا تلميذ في المدرسة الوسطى عندما بدأت أتذوق الشعر كنت أسمع والدي يردد أبياتا كان معجبا بها من قصيدة باكثير (بين الهدى والهوى) التي أوردها المؤرخ صلاح البكري في كتابه (تاريخ حضرموت السياسي)، ومن هذه الأبيات قوله:

يا لها حلوة عليها من النوم بقايا تثاؤب محبوب
وبأهدابها خيوط ضياء علقت من أحلام ليل عجيب
مرسلا شعرها على غير ترتيب ولكن أحلى من الترتيب

وهي قصيدة طويلة أوردها البكري كاملة في كتابه، وتعد من أوائل ما كتب من شعر بعد استقراره في مصر.

كما كنا نعرف أن باكثير هو صاحب الأبيات الأربعة التي غنتها أم كلثوم في فيلم (سلّامة) المأخوذ عن رواية باكثير (سلّامة القس) والتي تقول:

قالوا أحب القس سلامةً وهو التقي الورع الطاهرُ
كأنما لم يدر طعم الهوى والحب إلا الرجل الفاجر
يا قوم إني بشر مثلكم وفاطري ربكم الفاطرُ
لي كبد تهفو كأكبادكم ولي فؤاد مثلكم شاعرُ

ولكن في نهاية الثمانينيات وبالضبط في عام 1989م، وقبل أن يهديني

الدكتور محمد أبوبكر حميد كتابه الذي أشرت إليه سابقا (علي أحمد باكثير في مرآة عصره)، كان قد أهداني ديوان باكثير الذي قام بجمعه وتحقيقه، (أزهار الربى في شعر الصبا)، ويضم أشعار باكثير التي قالها قبل أن يغادر حضرموت. وفي ذلك الوقت كنت قد بدأت أجرب كتابة المقالات ذات الطابع الأدبي، ونشرت بعض الأشياء البسيطة في صحيفة (الشرارة) آنذاك، وربما في مجلة (آفاق) أيضا. وعندما جاءني ديوان باكثير فكرت في كتابة بحث عنه، لأنني لست ناقدا مسرحيا لأكتب عن مسرح باكثير ولست ناقدا في مجال السرد فأكتب عن روايات باكثير، ولكن أزعم أنني أفهم في الشعر وخاصة في موسيقى الشعر وعلم العروض، فقلت أدخل من هذا الجانب، ثم طورت الفكرة حتى يكون البحث أكثر إمتاعا لي وللقارئ فجعلته عبارة عن مقارنة، وكان أقرب وأنسب شاعر أقارن بينه وبين باكثير هو الشاعر العراقي بدر شاكر السياب لأسباب موضوعية كثيرة لا مجال للخوض فيها هنا. وكانت تتوفر عندي كل دواوين السياب لأنني كنت أعده شاعري الأثير ولذلك حاولت أيضا أن أقتني أكبر قدر ممكن مما كتب عنه. وكان عنوان البحث الذي وقع اختياري عليه هو: (باكثير والسياب.. وقفة مع البدايات الشعرية). وأظن أن هذا البحث كان موفقا إلى درجة معقولة بوصفه أول بحث أدبي لي يستند إلى معايير فنية دقيقة، ومما يدل على ذلك أنه قُبل للنشر في صحيفة خارجية محترمة، هي صحيفة (الراية) القطرية وذلك في أواخر ديسمبر من عام 1989م.

وما دمنا بصدد الحديث عن شعر باكثير، فلا بد أن أشير إلى خبر سار استقيته من أخي الدكتور محمد أبوبكر حميد بأن كتاب (الأعمال الشعرية الكاملة) لعلي أحمد باكثير جاهز الآن ولم تبق إلا خطوة الدفع به إلى المطبعة. وندعو الله بكل شوق ولهفة أن يصدر خلال هذا العام الديوان الكامل لباكثير، الذي سيكون في مجلدين كبيرين: الأول يتضمن شعره

الذي قاله قبل وصوله إلى مصر وإقامته النهائية بها، والثاني يتضمن شعره الذي قاله في مصر.

وبعد ذلك كتبت بحثا آخر عن باكثير بعنوان (قصة باكثير مع الغناء والمغنين)، نشر أولا في مجلة (حضرموت) الصادرة عن دار حضرموت للدراسات والنشر التابعة للأخ الأستاذ سالم بن سلمان في عام 2010م، ثم أوردته ضمن مقالات كتابي (كُتّاب في المرآة.. عصارة عمر مع أهل المعنى والفن). وكنت قد أرسلت نسخة هدية من هذا الكتاب إلى الصديق الدكتور عبدالحكيم الزبيدي في الإمارات عندما كنت في إحدى زياراتي لسلطنة عمان الشقيقة، فكتب الأخ الزبيدي مقالا يشيد بالكتاب – جزاه الله خيرا – ثم تركز حديثه في المقال كله على مقالي عن باكثير الذي سبقت الإشارة إليه، وكان مما قاله تحت العنوان الذي استعملته أنا في مقالي، (غنائيات أخرى في حياة باكثير)، ما يلي:

"تحدث الكاتب هنا عن قصيدة باكثير في رثاء المطربة أسمهان التي نشرها في مجلة (الرسالة)... ثم تحدث عن أغنية نادرة للفنانة فايزة أحمد من كلمات باكثير، وهي مقاطع من مطولته (إما نكون أبدا أو لا نكون) التي كتبها عقب النكسة. وكنت قد قرأت في كتاب (علي أحمد باكثير رائد التحديث في الشعر العربي المعاصر) للدكتور عبدالعزيز المقالح أن مقاطع من هذه القصيدة قد غنيت وكانت الإذاعة المصرية تكررها باستمرار لرفع الروح المعنوية للشعب المصري عقب النكسة، ولكنه لم يذكر من الذي غناها. فشكرا للأستاذ نجيب على هذه المعلومة القيمة. وقد بحثت عن هذه الأغنية في الإنترنت ووجدت تسجيلا لها، ووجدت أنها سجلت للإذاعة يوم

9 أغسطس 1967م، وتم مونتاجها لاحقا."

* * *

سأنتقل الآن إلى جانب مهم في الحديث عن باكثير، وهو إيمانه العميق بأمته العربية والإسلامية وكيف انعكس هذا الإيمان في أدبه وفي مواقفه المختلفة.

إلى جانب الصديقين الدكتور محمد أبوبكر حميد، والدكتور عبدالحكيم عبدالله الزبيدي، هناك حضرمي ثالث اهتم بباكثير وكتب عنه كثيرا من الدراسات والمقالات، وهو الدكتور أحمد عبدالله السومحي الذي لم أتشرف بالتعرف إليه شخصيا والذي انتقل إلى رحمة الله في 8 ديسمبر الماضي 2020م في القاهرة. والدكتور السومحي له كتاب قيم بعنوان (علي أحمد باكثير.. حياته، شعره الوطني والإسلامي). وقد أتيح لي أن أطلع على بعض المقالات التي كتبها الدكتور السومحي رحمه الله عن باكثير، ومنها مقال أو بحث عن الرواية التاريخية عند باكثير قال فيه:

"لم يكن الكاتب (علي أحمد باكثير) من أولئك الكتاب المُسِفّين الذين يثيرون الغرائز بكتاباتهم، ويسممون الأفكار بآرائهم، ويحضون على الرذيلة ويهدمون الفضيلة والمثل، وإنما كان كاتبًا وأديبًا ملتزمًا، يعرف قدر الكلمة ويفهم خطورة المضمون، تستنهضه العروبة ويستحثه الإسلام؛ لهذا فقد سخر الكاتب قلمه وانطلق في معظم كتاباته، يعبر عن قضايا العروبة والإسلام."

وهذا هو فعلا ما نلمسه في كل ما كتب باكثير تقريبا، وهو في رواياته التاريخية التي تكلم عنها السومحي نجده يسقطها على الحاضر، خاصةً روايته الشهيرة (وا إسلاماه) التي ظهرت في وقت كانت فيه معظم الدول العربية تتقبل هذا الخطاب الذي ينسجم مع الهوية الحقيقية والصحيحة للشعوب العربية حتى إن الرواية قررت منهجا في المدارس في بعض البلدان العربية وفي مقدمتها

مصر كما أظن. فليت شعري ما هو مصير صرخة (وا إسلاماه) الآن في عصرنا الراهن؟ يبدو أن الحال تحول مع الأسف وأصبح عكسيا إلى حد الهروب من الإسلام بدلا من الاستنجاد به، وهذه هي الطامة الكبرى التي لم تكن لتخطر ببال باكثير. وقد قدمت رواية (وا إسلاماه) في السينما المصرية بنفس الاسم وشارك في تجسيد شخصياتها كبار الممثلين المصريين. يقول الدكتور السومحي عن هذه الرواية إن الهدف من الإطار التاريخي فيها هو "تجسيد الروح الإسلامية المجاهدة وتأصيل وحدة الجهاد عند المسلمين وبعثها من جديد. حيث نجد الكاتب يأتي بقطز من مشارق بلاد المسلمين (السند) ليقاتل بل ليقود جيوش المسلمين وينتصر على التتار في غرب العالم الإسلامي (عين جالوت)، وهذا يوضح لنا فكرة الجهاد عند الكاتب والتأكيد عليها وإثارة بواعثها من التاريخ، إذ إنها السبب في عزة ورفعة المسلمين، وليست قصة قطز إلا مثالاً للروابط التي تربط المسلمين دون النظر إلى لون أو جنس أو عصبية. وثَمّ هدف آخر وهو أن باكثير كان ينظر إلى مصر نظرة خاصة؛ إذ كان يرى فيها محط أنظار المسلمين لما لها من إمكانات كبيرة، وقدرات عظيمة".

ولك أن تتخيل تأثير كارثة بحجم هزيمة حزيران 67 على مفكر وأديب يحمل هم أمته العربية والإسلامية بهذه الجدية والصدق والصرامة. وهنا أنقل عن صديقه الأستاذ أحمد محمد عبّاد: "لقد هزته الهزيمة من الأعماق ورأى بعينه ضياع فلسطين كاملة وأراض عربية أخرى، وعرف حقيقة عبدالناصر وغير رأيه فيه، وكتب مطولته الشعرية الإسلامية الكبرى (إما نكون أو لا نكون) دون أن يذكر عبدالناصر. ودفع ثمن هذا غاليا واشتدت الحملة عليه، وبدأ يتحدث عن العودة إلى حضرموت." وفي آخر لقاء للأستاذ عبّاد مع باكثير أخبره أنه يفكر في أن يتخذ من لندن مقرا جديدا لإقامته حتى يستطيع أن يكتب بحرية دون تدخل رقيب أو اعتراض حاقد. وذكر الأستاذ

شوقي السكري أنه التقى بباكثير فعلا في لندن في السنة التي توفي فيها، 1969م، ولكن كانت تلك هي المرة الأولى والأخيرة التي زار فيها البلاد التي كان يتابعها بخياله في دراساته الجامعية.

ومن أعمال باكثير التي طبعت بعد وفاته رواية قصيرة بعنوان (الفارس الجميل)، كان قد نشرها في حياته على حلقات في مجلة (القصة) في عام 1965م. وقد كتب مقدمة قصيرة لهذه الرواية كاتب حضرمي آخر هو الأستاذ أبوبكر البابكري، وذكر في هذه المقدمة أن باكثير تنبأ في هذه الرواية بهزيمة حزيران، فسياسة عبدالله بن الزبير– كما قال – تشبه سياسة عبدالناصر من حيث البخل وتحويل الأصدقاء إلى أعداء والاستبداد بالرأي. وقال كلاما مشابها عن رواية (الفارس الجميل) الدكتور أحمد عبدالله السومحي، إذ خصها بمقال مستقل كما تكلم عنها ضمن الروايات التاريخية لباكثير. ويرى السومحي أن البعد الفكري لهذه الرواية يتجاوز حجمها بكثير "فقد انتزع الكاتب باكثير أحداث هذه الرواية من التاريخ العربي الإسلامي في عصر بني أمية، والفكرة التي يعالجها الكاتب وينبّه إليها، هي خطورة الإهمال في الواجب من أجل متعة زائلة. ونظر باكثير إلى وضعنا الرّاهن – بالنسبة إلى عصره – فوجد قائدًا عربيًا يتولى منصبًا عسكريًا لجيش عظيم تعلّق الأمة العربية آمالها عليه في صراعها مع إسرائيل مولعًا بالنساء وكان مزواجًا، منشغلاً بهنّ عن الخطر المحدق بالأمة العربية والإسلامية، ويهدد مستقبلها، بينما عدوّه مُجِدٌّ في عمله، ورأى باكثير أن ذلك قد يؤدي إلى كارثة تصيب الأمة في مقتل.. وقد حدث." والقائد المقصود هنا هو عبدالحكيم عامر ويمثله في الرواية مصعب بن الزبير بطل الرواية نفسه الذي يشير عنوانها (الفارس الجميل) إليه. وكان والدي رحمه الله واحدا من الذين كانوا يعلقون آمالا بالفعل على قيادة

عبدالحكيم عامر للجيش المصري أو للجيوش العربية الموحدة، وذكره بالاسم في عدة قصائد له، ومن ذلك قوله في قصيدة بعنوان (القومية العربية):

أرض الجزائـــر كلنـــا نفديك يا أرض الجزائر
لا تيأسـي فالشـعب حـول جمـال نحـو النصـر سـائر
هـذي الجيـوش يقودهـا عبدالحكيم سليل عامر
سـتحقق النصـر المبـين علـى العـدا رغـم المكـابر
سـندك تـل أبيـب فـوق وحـوش صـهيون الكواسـر
سـنعيد أرض العـرب طـاهرة موحـدة الدسـاكر
لا أجنبـــي ولا دخيـــل ولا عميـــل ولا قياصـــر

ومن الأدوار الأدبية التي قام بها باكثير في أواخر أيامه للرد على هزيمة يونيو ذلك البحث القيم الذي قدمه إلى مؤتمر الأدباء العرب السابع الذي عقد في بغداد في عام 1969م وكان عنوانه: (دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية). وقد حضر الشاعر الكبير نزار قباني ذلك المؤتمر في بغداد وألقى قصيدته الشهيرة الطويلة (إفادة في محكمة الشعر) التي مطلعها:

مرحبا يا عراق جئت أغنيك وبعض من الغناء بكاء

وأنا أعد هذه القصيدة من أجمل قصائد نزار وفيها نقد مرير للسلبيات لم يقل فيه غير الحقيقة التي زادت سوءا وتضاعفت في وقتنا الراهن. ولكن باكثير وقد استمع إلى نزار يلقيها كان له رأي آخر فيها لأنه اعتبر أن نزار قباني أسرف في هجاء أمته العربية في مثل هذه الأبيات:

كل عام نأتي لسوق عكاظ وعلينـــا العمـــائم الخضـــراءُ
ونهـــز الـــرؤوس مثـــل الـــدراويش وبالنـــار تكتـــوي ســـيناءُ

كل عام نأتي فهذا جرير يتغنى وهذه الخنساءُ
سقطت في الوحول كل الفصاحات ومات الخليل والفراءُ
يا عصور المعلقات مللنا ومن الجسم قد يمل الرداءُ
المقامات لعبة والحريري حشيش والغول والعنقاء

ويظهر أن باكثير كان يرى أنه لا وقت ولا مجال الآن لجلد الذات بل إن على الأدباء على العكس أن يكرسوا أدبهم لاستنهاض الهمم والرفع من شأن أمتهم العربية والإسلامية والدفع بها لأداء الدور المنوط بها حكاما ومحكومين في التصدي للأعداء الصهاينة والاستعماريين. وقد حكى لي الدكتور حميد نقلا عن الدكتور عبده بدوي أن باكثير هاجم نزار وجها لوجه في المؤتمر متهما إياه أنه يريد أن يثبط الأمة بعد أن قضى عمره كله في إفساد الجيل بأشعاره في المرأة ذات الإشارات الجنسية المكشوفة. وفي تلك الليلة لم ينم في الفندق حتى أنجز قصيدة طويلة ينقض قصيدة نزار ويفندها بيتا بيتا، ولذلك جاءت القصيدة ضعيفة فنيا لأن الشاعر كتبها وهو غاضب وفي وقت قصير جدا. وأنا لم أسمع عن هذه القصيدة إلا منذ مدة قصيرة جدا من خلال حوار دار بيني وبين الصديق الدكتور عبدالحكيم الزبيدي، الذي أرسل لي مقالا لشاعر مغربي إسلامي التوجه هو الدكتور حسن الأمراني يتكلم عن هذه القصيدة ويحللها بالتفصيل ويذكر أبيات نزار وكيف رد عليها باكثير.

إن علي أحمد باكثير يعد صفحة ناصعة، ستظل خالدة، من صفحات الأدب العربي المعاصر ومن الجهاد بالكلمة والقلم في سبيل المبادئ والقيم والقضايا الكبرى، التي أصبح كثير ممن يسمون اليوم بالنخب يستهينون بها بل يهاجمونها وكأنهم جندوا أنفسهم لخدمة أعدائهم. وكان قرار باكثير صائبا عندما اختار الإقامة في مصر في وقت كانت تعج فيه بالحراك

الفكري والنشاط الثقافي وتمتلئ بالأدباء والمفكرين والفنانين الكبار، وكان باكثير ندا لهؤلاء ووجد له مكانا بينهم بل تصدى في مقارعة الرأي بالرأي والحجة لقامات شامخة مثل عباس محمود العقاد. ولعله من المفيد الإشارة في ختام هذا الاستعراض السريع لأدب ودور باكثير إلى ما ذكره أيضا الأستاذ أحمد عبّاد من أنه قُدمت لباكثير عروض لمغادرة مصر والانتقال إلى بعض الدول العربية لاستلام مناصب ثقافية وإدارة أنشطة معينة من خلالها وذلك عندما تعرض في مصر لبعض المضايقات التي سبقت الإشارة إليها، وقد قام عبّاد بدور الوسيط في بعض هذه العروض ولكن باكثير رفضها قائلا إنه لا يستطيع مغادرة مصر لأنه رغم كل ما تعرض له فهو يستطيع أن يصل بصوته من القاهرة إلى كل مكان، وقد صدق. وقد كنت أقرأ مقالا نشر في صحيفة (القدس العربي) منذ بضعة أيام فقط للكاتب الروائي المصري إبراهيم عبدالمجيد فإذا به يذكر باكثير بعد كل هذه السنين، قال عبدالمجيد: "حدثت هجرة لبعض الشعراء بل النقاد إلى الرواية... فهناك شعراء كتبوا روايات من زمان ونقاد أيضا. هل أذكركم بعلي أحمد باكثير مثلا وغيره؟" لا أظن أن هذه إشارة سلبية من الكاتب لعلي باكثير وإن كان يبدو أنه تجاهل أعماله المسرحية واعتبره شاعرا فقط رغم أنه لم ينشر ديوانا واحدا في حياته. بل هذه الإشارة تدل على حضور باكثير الطاغي، إذ جعله في الصدارة نموذجا لآخرين، وعلى أن اسمه ما زال يتردد على الألسنة وصوته ما زال يرن في الأسماع. ولكن من لنا اليوم بأن نسمع صوت مصر نفسها.. صوتها الحقيقي.. الذي (أراده) لها الله والتاريخ والجغرافيا، والذي (أرادها) له علي أحمد باكثير؟!

23 يونيو 2021م

الأديب علي أحمد باكثير والمخرج توفيق صالح

حضرميان لمعا في مصر

المصادفة وحدها هي التي جعلتني أفكر في كتابة هذا المقال. وقد سارت القصة على النحو التالي:

وضع الصديق الأديب الدكتور عبدالحكيم الزبيدي منشورا (مقالا) عن الأديب علي أحمد باكثير في إطار اهتمامه الكبير وتتبعه لكل ما ينشر عنه، إذ تكلم عن رسالة جامعية جديدة عن هذا الأديب الكبير قال من بين ما قاله عنها إنها تناولت لأول مرة (اعتدال) إسلامية باكثير – كما سماها – وإن كانت قد وَصَمَته – أي الرسالة – بأنه كان في بعض الأحيان (بوقا) للزعيم جمال عبدالناصر يجمل صورته تلميحا أو تصريحا في بعض أعماله الأدبية. وقد شدتني هاتان الفكرتان في المقال مما دفعني إلى التعليق عليه، كما علق أيضا الصديق الدكتور محمد أبوبكر حميد نافيا أن يكون موقف باكثير من عبدالناصر ينم عن نفاق أو خوف، ومؤكدا أنه كان موقفا صادقا وحقيقيا، وذكر أنه كتب عن العلاقة بين الرجلين في أحد كتبه. والفكرتان أو النقطتان، كما قال الدكتور عبدالحكيم، قابلتان للنقاش إن اتفاقا أو اختلافا معهما، ولعل مقالي هذا يتوخى شيئا من ذلك!

وفي وقت متأخر من نفس الليلة كنت أقلب أداة التحكم عن بعد بحثا عن قناة أقضي معها بعض الوقت، وخطر لي أن أفتح الجزيرة الوثائقية على قلة متابعتي لها، ولكنني كنت قبل أيام قد شدني فيها برنامج رائع يتكلم عن الفنان الملحن بليغ حمدي تحت عنوان (لحن بليغ) في تورية جميلة وموفقة بين

اسم (بليغ) وبين (بلاغة) ألحانه المشهود لها. ولم يخب ظني في الجزيرة الوثائقية إذ أدركت فيها جزءا طيبا من برنامج مشابه يتحدث عن فنان آخر ولكنه هذه المرة مخرج سينمائي هو توفيق صالح. وهذا المخرج من المخرجين المهمين في تاريخ السينما المصرية رغم أنه كان مقلا جدا. ولكن الشيء اللافت حول هذا المخرج هو أن أصله حضرمي ولكن حضرميته ليست معروفة أو مشهورة كحضرمية علي أحمد باكثير. وكنت قد عرفت عن هذا الأمر من الأخ الدكتور محمد أبوبكر حميد منذ مدة بعيدة ولكنني نسيت اسم عائلة توفيق صالح الحضرمية المبدوءة بالـ(با) الشهيرة، فما كان مني إلا أن تواصلت مع الصديق محمد الذي أفادني بأن اسمه توفيق صالح باصبرين، وأن عائلته من حضارم الحجاز، انتقل والده إلى مصر وأخذ جنسيتها وتزوج من سيدة مصرية. وبحثت في النت عن معلومات أخرى حول توفيق صالح فعلمت أنه ولد في الإسكندرية في 27 أكتوبر 1926م، وتوفي في القاهرة في 18 أغسطس 2013م.

من المعروف أن موقف كثير من الأدباء والفنانين المصريين من نظام عبدالناصر كان يتسم في كثير من الأحيان بالاستياء أو عدم الرضا، على الأقل، وأن لهم عليه مآخذ كثيرة، وتعرض بعضهم للملاحقة والزج في السجون بسبب مواقفهم السياسية. وفي البرنامج التلفزيوني على الجزيرة الوثائقية الذي أشرت إليه كان توفيق صالح طوال البرنامج يظهر صورةً وصوتاً وهو يتحدث عن تجربته وذكرياته ومنها دراسته في كلية فيكتوريا بالإسكندرية، وظهرت بعض الصور لهذه الكلية؛ وهذه المؤسسة التعليمية التي أنشأها الإنجليز في مصر هي عبارة عن مدرسة ثانوية عليا من بين من درسوا فيها من الأعلام المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد الذي تكلم عنها كثيرا في سيرته الذاتية (خارج المكان). وتردد على لسان توفيق صالح اسم عبدالناصر عدة مرات في سياق الحديث عن الأفلام التي أخرجها، مما يوحي بأن أفلامه

كانت تثير قضايا سياسية أو لها علاقة قوية بالسياسة، وقد وردت على لسانه مثل هذه العبارة: "بعد ما شاف عبدالناصر الفيلم سمح بعرضه". كما وردت أيضا عبارة يُشتم منها كونه ليس مصريا أصيلا، إذ قال وهو يتحدث عن مصر: "هذه البلد التي ولدت فيها". ومن أشهر أفلام توفيق صالح: (المتمردون)، و(يوميات نائب في الأرياف) المأخوذ عن رواية توفيق الحكيم بنفس الاسم، و(المخدوعون) المأخوذ عن رواية غسان كنفاني (رجال تحت الشمس)، الذي أخرجه في سوريا. ويقول الناقد السينمائي علي أبو شادي في كتابه (وقائع السينما المصرية في مئة عام): "تعرض فيلم (المتمردون) لعنت الرقابة، وأجبر المخرج توفيق صالح على حذف بعض المشاهد وتعديل واختصار مشاهد أخرى، بل وإضافة نهاية جديدة حتى يمكن عرض الفيلم".

لم يكن علي أحمد باكثير بعيدا عن السياسة في أعماله الأدبية، لا بل كان غارقا فيها إلى أذنيه وهو الأديب ذو الموقف والتوجه الواضح الذي لم يحد عنه طوال حياته وهو الموقف العروبي الإسلامي، ولا أرى كبير أهمية لما أشار إليه الدكتور الزبيدي نقلا عن الباحث أحمد إبراهيم الشريف عن أيهما يسبق الآخر في تفكير باكثير: هل الالتزام العروبي أم الإسلامي؟ فهما عنده شيء واحد كما أرى. وأنا من الذين ينفرون من مصطلح (الإسلام المعتدل)، الذي بنى عليه الباحث (اعتدال) إسلامية باكثير، كما ورد في مقال الدكتور عبدالحكيم، وإن كان الأخير قد أتبعها بعبارة "إذا جاز التعبير" موحيا أنه هو من استنتج هذا الحكم من بحث الأستاذ الشريف، فليس هناك إسلام معتدل moderate. كان باكثير إسلاميا وكفى، ولم يكن إسلاميا معتدلا. ولذلك تعرض للمحاربة والتضييق عليه في سنواته الأخيرة من شلة اليسار في مصر، فإن استعمال وصف (معتدل) هنا يوحي بأن الأصل في الإسلام و(الإسلامي) التشدد والتطرف، وهذا ما يروجه أعداء الإسلام، وعلينا ألا نتبعهم في تخرّصاتهم!

وأما موقف باكثير من الرئيس جمال عبدالناصر فإن كان لي أن أقول عنه شيئا، فإنني أبدأ بالإشارة إلى كلمة الإهداء الطويلة التي صدّر بها الروائي باكثير روايته (سيرة شجاع) وافتتحها قائلا: "إليك يا جمال وإلى رفاقك الأبطال..." وفي الخمسينيات وفي وقت متقارب كتب باكثير مسرحيتيه (شعب الله المختار)، و(الزعيم الأوحد) اللتين يتكرر فيهما اسم عبدالناصر بوصفه زعيما عربيا كبيرا محبوبا يناصر قضايا التحرر في الوطن العربي وفي العالم ويحسب حسابه الأعداء بمن فيهم الكيان الصهيوني (إسرائيل). ولكن كل هذه الإشارات يمكن أن تدرج في إطار المسايرة للشعبية والجماهيرية الطاغية التي كانت لعبدالناصر على مستوى العالم العربي والتي كان لا بد أن تفرض نفسها على كاتب بحجم باكثير وإلا أصبح في موقف حرج. ونستطيع أن ننسب صنيع باكثير هذا لا إلى النفاق والخوف، بل إلى الذكاء والرغبة في تجنب الدخول في مشاكل مع السلطة هو في غنى عنها. وفي السيرة الذاتية للدكتور نجيب الكيلاني المعنونة (لمحات من حياتي)، إشارات متكررة إلى علي أحمد باكثير يتضح منها أن هذا الطبيب الروائي المنتمي إلى (الإخوان المسلمين) كان يشعر بقرابة روحية تشده إلى باكثير حتى إنه كان دائما يفضل الجلوس بجواره في الندوات والاحتفالات، ومنها مؤتمر كتاب آسيا وأفريقيا الذي حضره وخطب فيه الرئيس جمال عبدالناصر، ثم أعلن يوسف السباعي أن الرئيس سوف يصافح الحضور فردا فردا وأن على كل من يصافحه الرئيس أن يذكر اسمه. قال نجيب الكيلاني في القسم الرابع من سيرته الذاتية: "وعندما جاء الدور على الأستاذ باكثير صافح الرئيس دون أن يذكر اسمه، أما أنا ورجاء النقاش فقد عرفناه بأسمائنا، قلت للأستاذ باكثير: لماذا لم تذكر له اسمك؟ فلوح بيده دون اكتراث، ونطق بكلمات قليلة لم أفهمها". فأنا أرى أن باكثير لم يكن يشعر بعاطفة عميقة نحو عبدالناصر، وعلى الرغم من أنني لم أطلع على الإنتاج

الشعري الكامل لباكثير. فالراجح عندي أن هذا الإنتاج الضخم يخلو من التمجيد الفاقع لعبدالناصر وربما يخلو تماما من أي تمجيد شخصي له، وإنما كانت إشادة باكثير وعاطفته دائما موجهة إلى مصر. والسبب في هذا أن باكثير لم يكن يقول شعرا إلا عن إحساس صادق، وهناك الكثير من الشخصيات التي كتب فيها شعرا رائعا لأنه يراها قامت بأدوار عظيمة في خدمة الإسلام والعروبة مثل علال الفاسي وشكيب أرسلان وأسماء أخرى كثيرة من مختلف أرجاء الشرق الإسلامي الكبير. وقد نقبت في كتاب الدكتور عبده بدوي (علي أحمد باكثير شاعرا غنائيا) لعلي أعثر على أبيات فيها ذكر لاسم (ناصر) أو (جمال) فلم أجد، ولكنني عثرت على أبيات عن ثورة وجمهورية عبدالناصر (يحلم) باكثير فيها بأن تكون هذه الجمهورية على نهج الخلافة الراشدة (سنة الصدّيق) وأن تبتعد عن نهج الدكتاتورية (سنة قيصر) وأن ترفع شعار الإسلام (الله أكبر)! تقول الأبيات التي أختم بها هذا المقال:

حي جمهوريةً كالشمس بل أسنى وأبهر
ولدتها ثورة مثل الندى بل هي أطهر
قادها جيش كحد السيف بل أمضى وأظهر
حاطه بالنصر والتأييد شعب ليس يقهر
قاوم البغي قديما وعلى القيد تكبر
هو للشعب وبالشعب من الشعب مؤمّر
عهده من سنّة (الصديق) لا سنّة (قيصر)
يخدم الشعب ويعليه ويدعو (الله أكبر)

20أغسطس 2021م

مشكلة مسرحية باكثير: (الزعيم الأوحد)!

جَدّ عزمي منذ وقت مبكر أن أقتني كل ما كتبه الأديب الأستاذ علي أحمد باكثير من أعمال لكي أحتفظ بها في مكتبتي متوقعا أنني سأحتاج إليها بين وقت وآخر، نظرا لاهتماماتي الأدبية والبحثية، بالإضافة إلى شعوري بواجب الوفاء نحو هذا الكاتب الحضرمي العظيم، وأن أقل ما نقدمه له هو أن تكون أعماله الكاملة متوفرة في كل بيت حضرمي. فكنت أتحين فرص معارض الكتب أو رحلاتي إلى الخارج لكي أسد النقص في مكتبتي من أعمال باكثير، كما أكرمني بعض الأصدقاء الأفاضل بإهدائي شيئا من هذه الأعمال، خاصة تلك التي صدرت بعد وفاته رحمه الله.

ولكن هناك مسرحيتان لم أعثر عليهما مطلقا في جولاتي تلك في المعارض المحلية أو في مكتبات البلدان التي زرتها، وهما مسرحيتا (الزعيم الأوحد)، و(شعب الله المختار). وكنت في صغري قد قرأت هاتين المسرحيتين ضمن روايات ومسرحيات باكثير التي كانت متوفرة في (مكتبة المعارف) بغيل باوزير. ولما كانت هذه المكتبة لم تلق العناية الكافية بمحتوياتها بعد ذلك، فظلت تلك المحتويات تنتقل من مكان إلى آخر دون أن تتاح للجمهور وأصبحت معرضة للتلف أو الضياع، فقد استأذنت الجهة التي كانت المكتبة بحوزتها أن أحتفظ بتينك المسرحيتين بعد أن وجدتهما، وكانتا بحالة جيدة نوعا ما، لأن والدي أمين المكتبة كان يحرص على تجليد الكتب، التي تتكرر استعارتها، عند شخص في المكلا كان يمارس حرفة التجليد اسمه أحمد صالح بن هشّام.

استقر في خَلَدي إحساس بأن المسرحيتين اللتين لم تعودا تظهران في المكتبات قد ضرب عليهما نوع من الحظر عن الانتشار فلم تطبعا مرة أخرى بعد طبعتهما الأولى. ولكن لم يخطر ببالي أنه سيأتي يوم أعالج فيه هذه المسألة في مقال أكتبه، حتى وجدتُني في هذه الآونة الأخيرة منشغلا بالأديب باكثير وكتبت عنه أكثر من مقال تطرقت فيها إلى بعض القضايا الإشكالية، ومنها علاقة باكثير بالسلطة في البلد الذي حمل جنسيته، مصر، وبالرئيس جمال عبدالناصر. وربما كان هذا هو الخيط الذي قادني إلى أن أتذكر مسرحية (الزعيم الأوحد) وأن أثير مسألة غيابها عن التداول، التي ظلت مستقرة في تفكيري، في مقال يخرج إلى العلن وأشرك به الآخرين معي في تأمل ملابسات هذه القضية، إن كانت هناك قضية أصلا!

كانت الخطوة الأولى التي خطوتها للتأكد من (وجود القضية) أنني اتجهت إلى صديقي الأديب المهتم بباكثير، وسألته: هل مسرحية (الزعيم الأوحد) لم تطبع من جديد منذ أن صدرت في طبعتها الأولى ربما في أوائل الستينيات؟ فأجاب أن نعم لم تطبع مرة أخرى. وهكذا فقد صدق حدسي وقلت في نفسي لقد آن الأوان لأن أبوح بما بقيت أخبئه سنوات طويلة من الحيرة والتساؤل عن سر غياب مسرحية (الزعيم الأوحد)، للكاتب المسرحي الخالد علي أحمد باكثير.

لعل قسما كبيرا من القراء يعرفون أن المقصود بالزعيم الأوحد هو عبدالكريم قاسم، الضابط الذي قاد انقلاب 14 تموز 1958م في العراق. بل إن غلاف المسرحية التي لم تتكرر طباعتها عليه رسم لرجل يلبس ملابس الضباط ويحمل وجهه نفس ملامح عبدالكريم قاسم، الشخصية الواقعية، وفي خلفية الصورة رجل يحمل نفس الملامح ويحمل عدة مسّاحي الأحذية، كما يظهر في الصورة تخطيط باللون الأسود لعدد من المشانق المحملة بالجثث، ومكتوب تحت

العنوان في صفحة العنوان الداخلية "مسرحية فكاهية في أربعة فصول". ومن المؤسف أنه لا يوجد على الكتاب رقم إيداع وسنة طبع، ولكن المؤلف كتب كلمة قصيرة تحت عنوان (للحقيقة والتاريخ) يفهم منها أن المسرحية نشرت على الأرجح في عام 1963م بعد ما سمي بثورة 14 رمضان (8 فبراير شباط) التي قادها عبدالسلام عارف وأطاحت بعبد الكريم قاسم. يقول باكثير:

"هذه المسرحية كتبت في مطلع صيف سنة 1959 استجابة لدعوة المؤتمر القومي (المؤتمر العام للثقافة والفنون) الذي عقد في دار الأوبرا بالقاهرة في أواسط أبريل سنة 1959 لمواجهة الخطر الشعوبي الذي استفحل إذ ذاك وأصبح يهدد قوميتنا العربية، لا في العراق وحده حيث كان قاسم يذبح القوميين ويسحلهم ويعلق جثثهم بالآلاف، بل في الوطن العربي كله. وقدمت، ومعركة المصير على أشدها، إلى المسرح القومي، فأهملها المسرح القومي كعادته عاما أو أكثر حتى انكشفت الغمة وانزاح ذلك الخطر العتيد. والحمد لله على ذلك.

وها هي ذي تقدم للمطبعة اليوم كما كتبت دون تحوير أو تبديل؛ ليرى القراء ويعجبوا كيف أن الأقدار قد اختارت (للزعيم الأوحد) في عالم الواقع نفس النهاية التي رسمتها له المسرحية منذ أكثر من ثلاثة أعوام، مع اختلاف يسير للتفرقة بين المأساة والملهاة إن كان بينهما فرق!"

ويتصدر الكتاب تقديم "بقلم الأديب العراقي المجاهد الكبير الأستاذ هلال ناجي". وهلال ناجي هذا هو ذلك الأديب الذي ألف كتابا بعنوان (شعراء اليمن المعاصرون)، صدر في عام 1966م، وعقد فيه فصولا لعدد من الشعراء اليمنيين من الشمال والجنوب. وعدّ هلال ناجي علي أحمد باكثير شاعرا يمنيا فعقد له فصلا في هذا الكتاب، وهو محق في ذلك لأن باكثير كان قد كوّن نفسه شاعرا وترسخت مكانته الشعرية إلى حد بعيد وهو ما زال في

حضرموت، أما باكثير الكاتب الروائي والمسرحي فهو أديب مصري وليس يمنيا أو حضرميا! وإذا كان باكثير في كلمته التي نقلناها للتو كاملة قد اقتصر على ذكر (الخطر الشعوبي)، فإن هلال ناجي في تقديمه قد حمل بشدة على الشيوعيين والشعوبيين، مقدما الشيوعيين، وربط بينهم وبين قوى الاستعمار والصهيونية، وقال إن عبدالكريم قاسم كان يمثل: "الدكتاتورية التي انحرفت بثورة العراق الجبارة المنبثقة صبيحة 14 تموز" وإنه: "كان رمزا للشعوبية ولميراثها الطويل". ومما قاله أيضا: "كان الأدباء الشيوعيون والشعوبيون، في ظل حكم الزعيم الأوحد، يشنون أقذر الهجمات على عروبتنا التقدمية الصاعدة."

وبمناسبة الإشارة هنا إلى الأدباء الشيوعيين، فإن باكثير في مسرحيته (الفكاهية) هذه أدخل ضمن الشخصيات شخصية كاريكاتورية هي شخصية شاعر الجماهير (القرندلي). وقد أطلعني صديقي المهتم بباكثير على رسالة الماجستير للدكتورة مديحة عواد بعنوان (مسرح علي أحمد باكثير)، التي أشرفت عليها الدكتورة سهير القلماوي، تلميذة طه حسين، وفي هذه الرسالة تقول الباحثة إن القرندلي يمثل شخصية الشاعر محمد مهدي الجواهري. ويبدو من السياق أن الباحثة لم تستنتج هذا بنفسها وإنما استندت إلى مقال للكاتب المعروف أنيس منصور أشارت إليه في الهامش، وواضح من تاريخ هذا المقال أنه كتب عند ظهور المسرحية مطبوعة لأول مرة. وقد يوحي الوصف الذي ورد في المسرحية للشاعر بأنه وصف مشابه لأوصاف الشاعر الجواهري في تلك الفترة، كما أنه من المعروف أن الجواهري كان ذا ميول يسارية وعلمانية، وقد زار عدن في عام 1982م، حيث ألقى قصيدته النونية التي يقول مطلعها:

من موطن الثلج زحافا إلى عدنِ خبّت بي الريحُ في مُهرٍ بلا رسنِ

ولكن مع ذلك فإن الصورة الهزلية التي صُورت بها شخصية الشاعر القرندلي في المسرحية لا يصح أن تنسب إلى شاعر كبير بقامة الجواهري يحتل مكانة رفيعة في نفوس متذوق ي الشعر الأصيل بصرف النظر عن العقيدة أو الأفكار التي يعتنقها. وحسب اعتقادي فإنه يجوز للفنان، الكاتب المسرحي أو الروائي، أن يستوحي شخصية من الواقع ثم يدخل عليها ما يشاء من الملامح النفسية والسلوكية التي تخدم البناء الدرامي والفني لعمله بحيث لا تعود لها صلة البتة بالشخصية الأصلية، وهذا ما أظن أن باكثير قد فعله ليس مع الجواهري فقط، ولكن مع كل الشخصيات الواقعية التي أعاد رسمها فنيا، ومنها شخصية (الزعيم الأوحد) نفسه وشخصية (المهداوي)، صاحب محكمة الشعب، الذي سمي في المسرحية (القرداوي). وإذا كان لي أن أستطرد هنا قليلا، فإنه في زمن قريب جدا من زمن أحداث المسرحية كنت طالبا في المدرسة الوسطى بغيل باوزير، وفي إحدى السنوات كان يدرّس لنا مادة اللغة العربية مدرس سعودي فاضل اسمه (حَمَد التويجري) كان ذا شخصية محببة ومتمكنا من مادته، وهو الذي سمعت منه اسم محمد مهدي الجواهري، ربما لأول مرة، إذ أشاد به كثيرا أمام الصف، ونظرا لشغفي بالشعر في تلك السن المبكرة فقد طلبت ديوان الجواهري من أحد الإخوة من الغيل الذين ذهبوا للدراسة الثانوية في العراق – ولعله قريبي الأخ الدكتور عمر باعباد – فحصل لي على المجلد الأول من (المجموعة الشعرية الكاملة) للجواهري، طبعة دار الطليعة– بيروت.

وكأي كاتب مسرحي بارع وذي خبرة، درس باكثير المجتمع العراقي الذي تدور فيه أحداث مسرحيته، والتقط ظاهرة مسّاحي الأحذية التي تكاد تكون خاصة بذلك المجتمع وعايشناها في أثناء وجودنا هناك للدراسة، بالإضافة إلى ظاهرة المقاهي الشعبية التي يغشاها ماسحو الأحذية هؤلاء لمسح أحذية رواد المقهى. فجعل باكثير أحداث الفصلين الأول والأخير تدور في

مقهى الحاج عبدالمؤمن، ونجح بذلك في إضفاء الطابع العراقي على المسرحية، وزاد بأن بثّ في الحوار شيئا يسيرا جدا – ولكنه يكفي! – من الألفاظ العراقية، ومن ذلك استعماله لفظة (الرّيُوق) التي تطلق على وجبة الإفطار. وبنى باكثير عقدة المسرحية وحبكتها الأساسية على التشابه الكامل بين الزعيم الأوحد ومسّاح الأحذية (قزمان)، وجعل صاحب المقهى الحاج عبدالمؤمن وزوجته خديجة وابنته فاطمة يمثلون أنصار القومية العربية، وجعل الشاب حسين ابن الحاج عبدالمؤمن ضمن ما يسمى شباب وفتيات المقاومة الشعبية، وهم الشيوعيون. ومن الشخصيات المهمة في المسرحية شخصية (وحشي الياور)، الذي تقول د. مديحة عواد إنه يرمز إلى شخصية وصفي طاهر، ياور الزعيم الأوحد. ويبدو أن كلمة (ياور) تركية ومعناها حارس. وتظهر في المسرحية أيضا شخصية الملحق العسكري السوفيتي جوردنيف، وشخصية الإنجليزي سميث. ونفهم من الحوار الذي أداره باكثير على لسان هذه الشخصيات كلها في الفصل الثالث من المسرحية أن الإنجليز هم من كانوا يديرون اللعبة كلها في العراق؛ وهذه هي الحقيقة فعلا، وهذا ما فعلوا شبيها له في أكثر من بلد عربي كانوا يحتلونه! فأنا أذكر أنني استمعت إلى فيديو للمفكر الكويتي الكبير الدكتور عبدالله النفيسي يحكي فيه ما دار بينه وبين أحد كبار الشخصيات الإنجليز، ومما نقلته إليه هذه الشخصية أن عبدالكريم قاسم نفسه كان رجلهم، أي رجل الإنجليز! ولا يسع المرء إلا أن ينظر بعين الإكبار والإجلال إلى هذا الرجل الكثير والكبير الأستاذ علي أحمد باكثير، وكيف كان على وعي عميق بماجريات الأمور في وطنه الكبير الذي أحبه بشغاف القلب ودافع عنه بصدق وإخلاص منقطع النظير من خلال سلاح الكلمة والفن.

ويتردد على لسان الشخصيات في المسرحية اسم جمال عبدالناصر، وبنسبة أقل اسم عبدالسلام عارف، كما وضع باكثير على لسان بعض

الشخصيات ما يبدو وكأنه ترديد للخطاب الإعلامي الذي كان ينطلق من القاهرة إبان حكم الرئيس عبدالناصر. فمثلا، في الفصل الثالث يقول الإنجليزي سميث مخاطبا الملحق العسكري السوفيتي جوردنيف: "كان ينبغي أن نتقيد بالميثاق ونتناسى خصومتنا إلى حين حتى نقضي على عدونا المشترك – أي عبدالناصر– ولكن يبدو أن حظه خير من حظنا وأن الأقدار قد هيأته حقا ليحقق الوحدة العربية الكبرى من المحيط إلى الخليج."

وهنا يقول الزعيم الأوحد مخاطبا سميث ثم جوردنيف: "كلا. لا ينبغي أن تتركوه. إنه سيقضي على مصالحكم في الشرق. إنه لا يؤلب عليكم العرب وحدهم بل يؤلب شعوب آسيا وأفريقيا كذلك.. وأنتم أيضا يجب أن تقضوا عليه إذا أردتم لمذهبكم أن ينتصر في الأرض. إنه يحاربكم بالدين، ويؤلب عليكم قوى الرجعية، ويناصر المنشقين عن صفوفكم بدعوى الحياد الإيجابي وعدم التبعية، ولن يهدأ له بال حتى تسود التيتوية في كل جمهورية شعبية".

لقد بدأت مقالي هذا بإثارة مسألة عدم إعادة طباعة مسرحية (الزعيم الأوحد) لباكثير، وسأترك للقارئ الكريم أن يحكم – من خلال ما استعرضته في المقال – حول وجاهة أو عدم وجاهة قرار الحظر على نشر المسرحية. أما أنا فإنني أريد أن أنتهي إلى هذه الخلاصة:

لقد بدأ الأستاذ هلال ناجي تقديمه للمسرحية بهذه الفقرة: "في ربيع عام 1959 كانت القومية العربية في العراق تخوض حربا ضارية تشنها عليها قوى الاستعمار والشيوعية والصهيونية والدكتاتورية متحالفة متكاتفة." وبعد أكثر من ستين عاما من ذلك الزمان ها نحن نرى أن الحرب الضارية ما زالت قائمة كما هي، إلا أنه بدلا من أن تكون محصورة في العراق عمت البلوى بها معظم أجزاء الوطن العربي إن لم يكن كلها، وما زال التحالف هو هو بين

الاستعمار، متمثلا في أمريكا والغرب، والصهيونية، متمثلة في إسرائيل، والدكتاتورية، متمثلة في أنظمة الاستبداد العربية، والشيوعية، أو ما تبقى من ذيولها، وغيرهم من السُذّج الآخرين، الذين ما زالوا يرون في روسيا – رغم جرائمها في سوريا العربية مثلا – أنها وريثة الاتحاد السوفيتي العظيم نصير الديمقراطية والسلام كما ترددت شعاراتهم هذه في مسرحية (الزعيم الأوحد)، مضافا إلى كل هؤلاء الشعوبية، متمثلة في إيران وأذرعها الضاربة في المنطقة العربية.

ولكن أين القومية العربية؟

وأين جمال عبد الناصر؟

وأين.. علي أحمد باكثير؟؟!!

29 أغسطس 2021م

قضية العرب والمسلمين الأولى

بين الأديبين نزار قباني وعلي أحمد باكثير

في مدينة بغداد، فك الله أسرها، عقد المؤتمر السابع للأدباء العرب خلال الأيام الممتدة من 19 إلى 28 أبريل من عام 1969م، وقد حضر الأديبان العربيان الكبيران علي أحمد باكثير ونزار قباني هذا المؤتمر. كان باكثير ضمن الوفد الذي يمثل الجمهورية العربية المتحدة (مصر)، أما بالنسبة لنزار فلست متأكدا إن كان ضمن وفد يمثل سوريا أم كان يمثل نفسه بوصفه أديبا وشاعرا فوق الأنظمة بفضل ما رسّخ لنفسه من مكانة وحضور بين جماهير القراء العرب بأشعاره المثيرة للجدل سواء تلك التي تتناول المرأة أم تلك التي تتناول السياسة، والموضوعان كلاهما – كما هو معروف – يدخلان ضمن (التابوهات) في مدينة (الخبز والحشيش والقمر)، وهذا – مع حذف أل التعريف من الكلمات الثلاث – هو عنوان إحدى قصائده المبكرة التي هاجم فيها الواقع العربي.

كان الشاعر نزار قباني غالبا هو الأبرز حضورا وصوتا في مثل هذه المؤتمرات، وفي تلك السنة بالذات ألقى قصيدته الهمزية الطويلة التي ذاع صيتها (إفادة في محكمة الشعر)، والتي أعدها من أجمل قصائده، ويقول في أبيات مختارة منها:

مرحبا يا عراق جئت أغنيكَ وبعض من الغناء بكاءُ
مرحبا مرحبا، أتعرف وجها حفرته الأيام والأنواءُ؟
أكل الحب من حشاشة قلبي والبقايا تقاسمتها النساءُ
إنني السندباد مزقه البحر وعينا حبيبتي الميناءُ

مضغ الموج مركبي وجبيني ثقبتــه العواصــف الهوجــاءُ
إن في داخلي عصورا من الحزن فهل لي إلى العراق التجاءُ؟
وأنا العاشق الكبير ولكن ليس تكفي دفاتري الزرقاءُ
يا حزيران ما الذي فعل الشعر وماذا أعطى لنا الشعراء؟

وهذا البيت الأخير هو بيت القصيد الذي أود أن أدخل منه في صلب موضوع المقال. وأنا أذكر أنني قرأت أو سمعت ذات مرة أنه ربما قد حدثت مشادّة كلامية في المؤتمر بين علي أحمد باكثير ونزار قباني بسبب هذه القصيدة التي لم يرق لباكثير، كما يبدو، ما ورد فيها من جلد للذات في مثل هذه الأبيات:

يا حزيران أنت أكبر منا وأب أنــت مــا لــه أبنــاءُ
لــو ملكنــا بقيــة مــن إبــاء لانتخينــا لكننــا جبنــاءُ
يــا عصــور المعلقــات مللنــا ومن الجسم قد يمل الرداءُ
نصف أشعارنا نقوش وماذا ينفع النقش حين يهوي البناءُ؟
المقامــات لعبــة والحريــري حشــيش والغــول والعنقــاءُ
ذبحتنــا الفسيفســاء عصــورا والــدمى والزخــارف البلهــاء

... إلخ

وأذكر أنني اطلعت على هذه القصيدة لأول مرة وعمري سبعة عشر عاما فقط في مجلة (الهلال) المصرية، عندما نشر رئيس تحريرها آنذاك، الأستاذ رجاء النقاش، أجزاء مختارة منها وليس كلها في أحد أعداد المجلة. والمعروف أن الأستاذ باكثير عادة ما يشارك بقصيدة في مؤتمرات الأدباء العرب وأحيانا يشاركه الشاعر صالح جودت ضمن الوفد المصري، ولكن في مؤتمر بغداد هذا الذي نتحدث عنه يبدو أنه اكتفى بتقديم بحث يتناول أيضا قضية الساعة وهي هزيمة حزيران 1967م وآثارها وتداعياتها ولكن من زاوية أخرى رصينة وجادة

غير الزاوية التي تناولها منها نزار قباني. كان عنوان هذا البحث (دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية)، وقد نشرَته على الفور بعد المؤتمر مجلة (الآداب) اللبنانية لصاحبها سهيل إدريس في عدد شهر مايو من المجلة. ولحسن الحظ فأنا أحتفظ بنسخة من هذا العدد ضمن مجموعة من أعداد المجلة القديمة اقتنيتها من الأخ الذي كان مسؤولا عن (مكتبة الشعب) بالمكلا مع مجلتين معروفتين أخريين بسعر مناسب. ولكن كانت شعبة سيئون لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين فرع حضرموت قد أعادت نشر هذا البحث ضمن سلسلة منتدى الأربعاء في شهر ديسمبر 1990م، وأنا أحتفظ أيضا بنسخة من هذا الإصدار، وعندما استخرجت هذه النسخة الآن وأنا أكتب هذا المقال، وجدت أنني قد كتبت على صفحة فارغة في المقدمة كلمة قصيرة بخط يدي أقول فيها: "ضمن احتفائها بمئوية ميلاد الأديب الكبير ابن حضرموت الكاتب المسرحي والشاعر الأستاذ علي أحمد باكثير، تنشر (الفكر) البحث الذي قدمه أديبنا الفذ إلى مؤتمر الأدباء العرب السابع..إلخ". ولكن البحث لم ينشر طبعا في مجلة (الفكر)! وسأورد هنا ما كتبته في هذه الكلمة لأعطي لمحة بسيطة عن هذا البحث تخدم ما أريد الحديث عنه في هذا المقال الذي أكتبه الآن. قلت:

"وهذه هي المرة الأخيرة التي شارك فيها الأستاذ باكثير في مؤتمر كهذا ضمن الوفد الذي يمثل الجمهورية العربية المتحدة – وقد شارك عدة مرات قبل ذلك – فقد توفي رحمه الله في نوفمبر من نفس هذا العام 1969م. وهذا البحث يمثل خلاصة فكر علي أحمد باكثير القومي، ويبدو كما لو أنه وصيته الأخيرة إلى أمته العربية أو إلى أدباء هذه الأمة بشكل خاص، إذ يطرح فيه باكثير رؤيته الجلية الناصعة حول دور الأديب العربي في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية. وهو يضع على كاهل الأدباء مسؤولية جسيمة في هذه المعركة التي مازالت مستمرة بل إنها زادت شراسة.. وما أحرانا أن نستفيد من هذه الرؤية الباكثيرية

في واقعنا الحاضر رغم تقادم السنين، فإن كلمات باكثير الحية النابعة من إيمانه العميق بقضيته ما زالت صالحة لأن نستهدي بها ونتخذ منها نبراسا يضيء لنا الطريق. ومن أهم الأفكار التي لمسها هذا البحث فكرة التعويل على المقاومة المسلحة في حسم المعركة، وفكرة الوحدة العربية ونبذ الخلافات والتصنيفات إلى محاور مختلفة متصارعة، وغيرها من الأفكار المضيئة".

ما أريد أن أصل إليه أو بالأحرى ما أنا واثق منه منذ أن فكرت في كتابة هذا المقال هو أن الأديبين علي باكثير ونزار قباني ينطلقان من رؤية مشتركة واحدة للصراع مع العدو الاستعماري والصهيوني وهي الرؤية العربية – وأكاد أقول: والإسلامية – الأصيلة. وكان باكثير في بحثه قد قسّم "المجتمع الثقافي عندنا والأدباء في طليعة هذا المجتمع الثقافي بالطبع" إلى ثلاثة وجوه متميزة: الوجه الأول – بغير ترتيب كما قال – هو الوجه الماركسي بكل ما يحمله من مقومات فكرية وسياسية واجتماعية، والوجه الثاني هو الوجه الغربي بكل ما يحمله من نزعات رجعية وليبرالية وصليبية ووجودية وعدمية وعبثية، وجه يرى لا حضارة إلا حضارة الغرب ولا فن إلا فن الغرب ولا ديمقراطية إلا ديمقراطية الغرب ولا دين إلا دين الغرب، وهو يعلم أو لا يعلم أن من وراء ذلك كله التخطيط الاستعماري الرهيب بمؤسساته وشبكة مخابراته.

والوجه الثالث هو الوجه العربي الأصيل الذي يتمسك بمقومات أمته العربية وبقيمها الروحية والأدبية والإنسانية، ويعتز بتاريخها العريض الطويل الحافل بالأمجاد، وينفتح مع ذلك على الثقافات العالمية بمختلف ألوانها وشتى اتجاهاتها فلا يزيده انفتاحه عليها واستيعابه لها إلا ترسيخا لأصالته العربية وتنمية وبلورة.

فنزار قباني مثلا عندما يهاجم الواقع العربي ويصب جام غضبه على تخلف هذا الواقع وأمراضه المعروفة إنما ينطلق من محبته لهذه الأمة العربية التي

ينتمي إليها وحرصه الشديد على أن تغير ما بنفسها وتنهض من جديد. وإذا كان نزار قد تساءل في قصيدة متأخرة من قصائده: متى يعلنون وفاة العرب؟ فإن باكثير نفسه قد أعلن وفاتهم فعلا، منذ زمن طويل قبل تساؤل نزار، في قصيدة وصفها الدكتور عبده بدوي في كتابه (علي أحمد باكثير شاعرا غنائيا) الذي سأنقل عنه جزءا من هذه القصيدة بأنها "صراخ حاد يندر وجود مثله في الشعر الحديث". يقول باكثير مخاطبا العرب في جميع بلدانهم:

أيــــن أنـــتم لا درّ درُّ أبـــيكم؟ هل لكم في الزمان بعدُ وجودُ؟
ليت شعري ما خطبكم؟ أين أنتم؟ أقصـــور تضـــمكم أم لحـــودُ؟
عــرب أنتمــو؟ كــذبتم كــذبتم إنمـــا أنتمـــو يهـــودٌ يهـــودُ
أمــن المســلمين أنــتم؟ كــذبتم إنمـــا أنتمـــو يهـــودٌ يهـــودُ
يــا مســوخ الرجــال يــا ســبّة الأجيــال موتــوا علــى الهــوان وبيــدوا
اذهبــوا للجحــيم تطهــر بــلاد الضــاد مــنكم ويــأتِ خلــقٌ جديــدُ
لعنـــاتٌ مـــن الســـماء علـــيكم تمتريهـــا صـــواعقٌ ورعـــودُ
إن أصـــلاب يعـــرب لبـــراءٌ منكمـــو أيهـــا العبيـــدُ العبيـــدُ

ونلاحظ في هذه الصرخة التي خرجت عن طورها ظاهرة التكرار، وهي من الظواهر الفنية المعروفة، التي استفاد منها باكثير واستعملها بمهارة عالية حتى في بعض قصائده الوجدانية.

ها نحن نقع على الانسجام والتشابه بين باكثير ونزار قباني حتى في حالة السخط والحنق العنيف، بدافع الألم والغيرة، الذي يصل إلى حد الشتيمة! ونختم هذا المقال بالإشارة إلى التشابه بينهما في الإيمان بالمقاومة المسلحة سبيلا وحيدا للانتصار الحاسم في المعركة ضد الاستعمار والصهيونية. وتعبيرا عن هذه الرؤية أورد باكثير في بحثه هذا المقطع من شعره:

حرب الفدا هي الطريق المثلى على العدو ستكون الفصلا
تُوسعُهُ في كل عضوٍ قتلا ثم تزيل شخصه والظلا
وتلك عقبى الغاصبين المعتدين

وفي مقالي الطويل عن نزار قباني في كتابي (كُتّاب في المرآة) جعلت عنوان المقال بيتا لنزار، تتجلى فيه هويته الإسلامية، جاء ضمن قصيدته (ترصيع بالذهب على سيف دمشقي) التي كتبها بعد حرب أكتوبر 1973م وانتصار العرب (الجزئي) فيها، وهذا البيت عنوان المقال هو:

رضيَ الله والرسول عن الشام فنصرٌ آتٍ وفتح مبينُ

وختمت ذلك المقال بالنص الكامل لقصيدة نزار التي غنتها أم كلثوم من تلحين عبدالوهاب وظهرت في نفس العام الذي ألقى فيه قصيدته (إفادة في محكمة الشعر) في بغداد، عام 1969م، وعنوان هذه القصيدة الأغنية هو (طريق واحد)، والطريق الواحد هو طريق المقاومة المسلحة التي تمثلها البندقية، وهذا هو المقطع الأخير من القصيدة الأغنية :

يا أيها الثوار
في القدسِ
في الخليلِ في بيسانَ في الأغوار
في بيت لحم..
حيث كنتمً أيها الأحرار
تقدموا..
تقدموا..
إلى فلسطينَ طريقٌ واحدٌ
يمر من فوهة بندقية

26 رمضان 1442م
8 مايو 2021م

الشاعر كامل الشناوي وأغنياته الخالدة

قصيدة (لا تكذبي) وأخواتها

كامل الشناوي أحد الأسماء المصرية الكبيرة في الشعر والصحافة، ومع ذلك ربما كان الممثل (كمال) الشناوي – وهما من نفس الجيل تقريبا – أشهر منه عند قطاع كبير من الناس في الوطن العربي الذين عاصروا الاثنين. أما في مصر نفسها فلا بد أن اسمه كان كالطبل في زمانه، خاصة في الوسط الثقافي والفني، إذ كان أحد النجوم اللامعة في الصحافة وكان أحد أقطاب النكتة والضحك حتى ضمه الكاتب الساخر محمود السعدني، في كتابه (الظرفاء)، مع حافظ إبراهيم وعبدالعزيز البشري وإمام العبد وغيرهم، كما كان محبا بل عاشقا للحياة وراعيا للمواهب الأدبية الجديدة، وكان الحصان الرابح في مجال القصيدة الغنائية التي يستلهم مادتها من تجاربه العاطفية العديدة والتي يقبل عليها الملحنون والمطربون. كان الشاعر كامل الشناوي يكتب الشعر الفصيح الرقيق العذب، البسيط السلس والصادق العميق في آن واحد، الذي يشد الأسماع ويدخل القلوب بلا استئذان، وأكاد أجزم أنه – رغم قلة إنتاجه – كان صاحب مدرسة مستقلة في كتابة الشعر وإن كانت تنتمي في إطارها العام إلى التيار الرومانسي، أو الوجداني كما يسميه (الناقد القط). وقد لُحنت وغُنيت له الكثير من القصائد العاطفية والوطنية التي سنأتي على ذكرها في سياق هذه المقالة، ومن حسن حظه أنه مات، بعد حياته الحافلة، قبل أن يشهد هزيمة حزيران 1967 وانكسار الأحلام الكبيرة التي

تغنى بها في شعره؛ ولكن أغنية (لا تكذبي) طغت بشهرتها على كل قصائده الملحنة الأخرى حتى سُمّي (شاعر لا تكذبي). كما صدر له ديوان من الشعر بعنوان (لا تكذبي) اطلعت عليه في مكتبة أخي الشيخ أمين سعيد باوزير في ستينيات القرن الماضي، وهو ديوانه الوحيد الصغير؛ إذ كانت حياته نفسها هي قصيدته الكبرى!

لا تكذبي إني رأيتكما معا ودعي البكاء فقد كرهت الأدمعا
ما أهون الدمع الجسور إذا جرى من عين كاذبة فأنكر وادعى

ولكامل الشناوي أخ شقيق أصغر منه، هو مأمون الشناوي، كان شاعرا أيضا، تأثر بشقيقه وبدأ يكتب بالفصحى ثم تحول إلى كتابة أشعاره بالعامية وأصبح من شعراء الأغنية المشهورين، وتغنى بكلماته كبار المطربين وفي مقدمتهم فريد الأطرش وأم كلثوم، التي غنت من كلماته إحدى أجمل أغنياتها بلحن بليغ حمدي وهي أغنية (بعيد عنّك حياتي عذاب).

ربما كان التكوين الجسماني لكامل الشناوي يوحي بأنه صحفي أكثر مما يوحي بأنه شاعر، فقد كان ضخم الجسم، ولكن ملامح وجهه الطفولية ونظرته الساهمة هي التي قد تعطيك انطباعا أنك أمام شاعر.. وعاشق! وقد شاعت في الوسط الفني والصحفي – إلى جانب غرامياته الأخرى – قصة حبه للفنانة المطربة نجاة الصغيرة، الذي يبدو أنه كان حبا من طرف واحد؛ وهذه العاطفة الجارفة نحو نجاة هي التي أثمرت رائعته، قصيدة (لا تكذبي)، التي لحنها محمد عبدالوهاب وغناها على العود، ثم غنتها نجاة نفسها، وكانت إحدى أغاني فيلمها (الشموع السوداء) التي شاركها البطولة فيه لاعب كرة القدم صالح سليم. قلنا إن كامل الشناوي مات قبل هزيمة يونيو 1967، وكانت وفاته بالضبط في 30 نوفمبر 1965م عن سبعة وخمسين عاما، إذ كان قد ولد

في 7 ديسمبر من عام 1908م في قرية نوسا البحر القريبة من مدينة المنصورة التي وصفها صديقه الشاعر صالح جودت في مقدمة ديوان الأخير (ليالي الهرم) بأنها: "أرض طيبة تنبت الشعر والجمال". وكان أبوه سعيد الشناوي يعمل بوظيفة نائب المحكمة الشرعية العليا، وكان من مؤيدي الزعيم الوطني مصطفى كامل ولذا سماه (مصطفى كامل) تيمنا باسم الزعيم الوطني الكبير، الذي رثاه شوقي بقصيدته الشهيرة التي مطلعها:

المشرقان عليك ينتحبان قاصيهما في مأتم والداني

وكأن والده عندما سماه بهذا الاسم بذر فيه روح الحمية الوطنية التي جعلته بعد ذلك ينشئ أحد أجمل وأطول وأنبل الأناشيد الوطنية في تاريخ الشعر المصري الحديث، الذي سُمي (نشيد الحرية). وكان نشيدا عذبا وصادقا في حب الوطن والتغني بمجده واستنهاض الهمم للدفاع عن حريته وكرامته، كتبه الشاعر تجاوبا وتفاعلا مع عمليات الفدائيين في منطقة قناة السويس ضد القوات البريطانية في مطلع الخمسينيات قبيل قيام ثورة 1952م. وقد لحن هذا النشيد وغناه بصوته الموسيقار محمد عبدالوهاب[1]. ويقول كامل الشناوي في المقاطع الأولى منه:

كنتَ في صمتك مرغم كنتَ في حبك مكره
فتكلم وتألم وتعلم كيف تكره
عرضُك الغالي على الظالم هان ومشى العار إليه وإليك
أرضك الحرة غطاها الهوان وطغى الظلم عليها وعليك
قدم الآجال قربانا لعرضك اجعل العمر سياجا حول أرضك
غضبة للعرض للأرض لنا غضبة تبعث فينا مجدنا

(1) اختيرت المقدمة الموسيقية لهذا اللحن لتكون الشارة المميزة لنشرات الأخبار بإذاعة القاهرة، التي لم تتغير حتى اليوم.

وإذا مـــا هتـــف الهـــول بنـــا فليقـــل كـــل فتـــى إنـــي هنـــا

أنـا يـا مصـر فتـاكِ

بدمي أحمي حماكِ

ودمـي مـلء ثـراكِ

وقبـل مـدة وجيـزة مـن إنجـاز هـذا اللحـن الـوطني – أي فـي أواخـر الأربعينيات– كان عبدالوهاب قد لحن وغنى لكامل الشناوي قصيدة عاطفية تحمل عنوان (الخطايا) يقول فيها:

زعمـوا حبـيَ يـا قلـبُ خطايـا لـم يطهرهـا مـن الإثـم بُكايـا

والخطايـا مـا لهـا مـن غـافر فترفـق وتمهـل فـي الخطايـا

حسـبنا مـا كـان فاهـدأ هاهنـا في ضلوعي واختبئ خلف الحنايا

ثم عـاد بعـد قرابـة عقـد مـن الـزمن فلحـن وغنـى لـه بمشـاركة المجموعـة قصيدة (أغنية عربية) التي من الواضح أنه كتبها استجابةً لحدث إعلان الوحدة بين مصر وسوريا في عام 1958م، وهي من أجمل الألحان الوطنية التي كانت تتردد في مطلع شبابنا على محطات الإذاعات المصرية حتى بعد انفراط عقد تلك الوحدة، أي خلال عقد الستينيات. ونظرا لتأثري بهذه الأغنية – حتى إنني ما زلت أحفظها– التي لا تختلف عن (نشيد الحرية) في قوة كلماتها وصدق تعبيراتها التي استطاع عبدالوهاب أن يترجمها من خلال اللحن، سأنقلها هنا كاملة وسأكتبها بطريقة الشعر العمودي؛ والجدير بالذكر أن كل أشعار كامل الشناوي، بما فيها قصيدة (لا تكذبي)، تكاد تكون ملتزمة تماما بالنظم البيتي، ولكنه يكتبها على طريقة شعر التفعيلة. وهذه قصيدة (أغنية عربية):

كـــان وهمـــا وأمـــانيّ وحلمًـــا كـــان طيفـــا

وصـــحا النـــائم يومـــا ورأى النـــور فـــأغفى

كلمـــا اســـتيقظ نـــام وارتمـــى بـــين الظـــلام
ثم كانت صحوةٌ كالنار كالتيار كالقدَر العنيدْ
أيقظتـــهُ بعثتـــهُ خلقتـــهُ مـــن جديـــدٍ مـــن حديـــدْ
لا تســـلني أيـــن كنـــا أيـــن أصـــبحنا وكيـــفَ
لا تســـلني مـــا الـــذي وحـــدنا قلبًـــا وصـــفّا
ســـل جمـــوع الشـــهداءِ ســـل دمـــوع الأبريـــاءِ
ســـل دمِ الســـوري والمصـــري يجـــري لهبـــا
صـــارخًا: عربـــا كنـــا ونبقـــى عربـــا
لم يكن أيهما بالأمس وَحده
ولقد صارا مع الأيام وِحدة
لا تســـلني أيـــن كنـــا أيـــن أصـــبحنا وكيـــفَ
لا تســـلني مـــا الـــذي وحـــدنا قلبًـــا وصـــفّا
عـــرف الشـــعب طريقـــه وحـــد الشـــعب بـــلاده
فـــإذا الحلـــم حقيقـــة والأمـــــــــانيُّ إرادة

وقبل أن نتحول إلى القصائد العاطفية أو قصائد الحب، كما أفضل تسميتها، دعونا الآن نشير إلى أغنية وطنية شهيرة صاغ كلماتها كامل الشناوي وظهرت في أواسط الستينيات قبيل وفاته، وقد قام بتلحينها محمد عبدالوهاب أيضا ولكن غنتها هذه المرة السيدة أم كلثوم بمشاركة المجموعة. ويقول مطلع الأغنية:

على باب مصر تدق الأكف ويعلو الضجيج
ريـــاح تثـــور جبـــال تـــدور بحـــار تهـــيج

وأتذكر تماما كيف كنا– في ذلك الزمن الذي لم يكن فيه من وسائل الإعلام المسموعة إلا الراديو– منتشين باللحن (الوهّابي) الرائع لهذه الأغنية

والأداء الكلثومي العظيم الذي كان يشدني بشكل خاص في مثل هذا المقطع:

وصاح من الشعب صوتٌ طليقْ
قــويٌّ أبــيٌّ عميــقٌ عريــقْ
يقـول أنـا الشـعب والمعجـزة
أنا الشعب لا شيء قد أعجزه
وكــل الــذي قالــه أنجــزه

ويلاحظ أنه في هذه الأغنية بخلاف (أغنية عربية) – التي ظهرت أيضا في أوج صعود عبدالناصر – ظهرت النبرة العالية والفاقعة في تمجيد السلطة المتمثلة في شخص الرئيس، وكأن هناك من أوعز إلى الشاعر أن المديح لا بد أن يشمل (الزعيم) ولا يجوز الاكتفاء بتمجيد الشعب فقط، ولذلك تردد اسم (جمال) في الأغنية مرتين، في المرة الأولى جعله الشاعر قرينا للفرعون مينا (موحد القطرين) وللقائد الإسلامي فاتح مصر عمرو بن العاص:

فمن عصر مينا إلى عصر عمرٍو
ومن عصر عمرٍو لعصر جمالْ

وأنهى القصيدة بهذا المقطع الذي يأتي في نهايته اسم جمال:

أنا الشعب لا أعرف المستحيلا ولا أرتضــي بــالخلود بــديلا
بــلاديَ مفتوحــة كالســماء تضم الصديق وتمحو الدخيلا
أنـا الشـعب شـعب العـلا والنضـال
أحــب الســلام أخــوض القتــال
ومنــي الحقيقــة منــي الخيــال
وعندي الجمال وعندي جمااال..!!

ولا يسع الناقد المتأمل إلا أن يلاحظ أن الشاعر في (نشيد الحرية) وفي

(أغنية عربية) بدا على سجيته وخرجت الكلمات من قلبه صادقة وقوية ومقنعة بسبب نبرتها الهامسة الهادئة، بينما طغى على الأغنية الأخيرة (على باب مصر) طابع الهتاف الصاخب، حتى إنه بدأها بوصف مزلزل يشبه وصف مقدمات يوم الحشر في القرآن الكريم: جبال تدور.. رياح تثور.. بحار تهيج..!! وقد كان من المناسب جدا لطابع القصيدة هذا أن يتحول الشاعر من بحر الرمل الرصين الرزين في القصيدتين السابقتين إلى بحر المتقارب بتفعيلته القصيرة (فعولن) التي تناسب الإيقاع السريع الحماسي.

ولكن لعله حان الوقت الآن لأن نذهب إلى المجال الذي عبر فيه الشاعر عن نفسه كما يحب وبما تمليه عليه أحاسيسه ومشاعره الحقيقية وهو المجال الذي يتنقّل بين موضوعة الحب والمرأة وموضوعة فلسفة الحياة والنظرة إليها من زاويته الخاصة. وتصدمنا للتو هذه النظرة بأنها نظرة تشاؤمية شكّاكة وشكائية من خلال مثل هذه الأبيات بعنوان (النسيان):

آه من دورة الزمان دهتني ورمتني في غمرة النسيان
وبعيني رأيت قدرة ربي وهي تمحو رسمي وتخلي مكاني
قد تخلت عناية الله عني وتخلت عناية الشيطان
ضاق بي معبدي وضاقت حاني لا صلاتي تجدي ولا ألحاني

كما حيا الشاعر ذات مرة يوم عيد ميلاده بتلك الأبيات الحزينة التي لحنها وغناها الفنان فريد الأطرش فزادها بصوته الباكي غما على غم، مع احترامي للفنان الكبير.. فهذه مجرد دعابة طبعا!! ويقول المقطع الأول منها:

عدتَ يا يوم مولدي عدتَ يا أيها الشقي
الصبا ضاع من يدي وغزا الشيب مفرقي
ليتَ يا يوم مولدي كنتَ يوما بلا غدِ

ولكن فريد غنى لكامل الشناوي أيضا أبيات حب جميلة أبدع في تلحينها وكان هذا اللحن إحدى أغاني فيلمه (الخروج من الجنة) مع الممثلة هند رستم، ونجتزئ منها هذه الأبيات:

لا وعينيك يا حبيبة روحي لم أعد فيك هائما فاستريحي
سكنت ثورتي فصار سواءً أن تليني أو تجنحي للجموحِ
واهتدت حيرتي فسيّان عندي أن تبوحي بالحب أو لا تبوحي
وخيالي الذي سما بك يوما يا له اليوم من خيال كسيحِ

أما الفنان الآخر الذي كان منافسا لفريد في قلوب الجماهير، وهو المطرب عبدالحليم حافظ، فقد غنى لكامل الشناوي أغنيتين معروفتين يبدو أن كلتيهما ترتبطان بقصته مع المطربة الشهيرة، إحداهما (لستَ قلبي)، والأخرى (حبيبها لستَ وحدك). يقول الشناوي في أحد مقاطع القصيدة الأولى:

كيف يا قلب ترتضي طعنة الغدر في خشوع؟
وتداري جحودها في رداء من الدموع؟
لست قلبي وإنما خنجر أنت في الضلوع

لقد ارتبطت الفنانة نجاة الصغيرة فنيا بشاعر كبير آخر هو الشاعر السوري نزار قباني وغنت له قصيدة (أيظن) التي حازت على نفس شهرة (لا تكذبي)، ثم غنت له بعض القصائد الأخرى كان آخرها قصيدة (أسألك الرحيلَ)، وكلها كانت من تلحين عبدالوهاب. وعلى الرغم من أن هناك من المطربات مَن أصواتهن أقوى وأوسع مساحة من صوت نجاة، فإن لصوت نجاة وأدائها سحرًا خاصًا، ، ولذلك فضلها كبار الشعراء لتتغنى بأشعارهم، وحتى شعراء العامية منهم مثل عبدالرحمن الأبنودي، الذي تجلت نجاة وأبدعت في أداء أغنيته (عيون القلب) بلحن محمد الموجي. وفيما يلي المقطع الأخير من قصيدة (لا تكذبي) نختم به

هـذا المقالـة عـن الشـاعر كامـل الشـناوي، التـي لعلنـا نسـدي بهـا إليـه شـيئا مـن الإنصاف والتذكير به بوصفه أحد الشعراء العرب المهمين في العصر الحديث، الذي كتب شعرا حقيقيا اهتم فيه بالكيف لا بالكم.. وبالجوهر لا بالبهرج!

لا تخجلي
لا تفزعي مني
فلست بثائرِ
أنقذتني
من زيف أحلامي وغدر مشاعري
فرأيت أنك كنت لي قيدا
حرصت العمر ألا أكسره
فكسرتِه
ورأيت أنك كنت لي ذنبا
سألت الله ألا يغفره
فغفرتِه
كوني كما تبغين
لكن لن تكوني
فأنا صنعتك من هواي ومن جنوني
ولقد برئت من الهوى ومن الجنون.. !!

2 أكتوبر 2021م

في تأبين الشاعر عوض ناصر الشقاع

توفي الأستاذ الشاعر عوض ناصر الشقاع في يوم الجمعة بتاريخ 15 من شهر مايو المنصرم من هذا العام 2020م، الموافق لتاريخ 22 رمضان 1441 هـ، متأثرًا بفيروس كورونا كما قيل، رحمه الله رحمة واسعة، ولكنني لم أعلم بخبر الوفاة إلا بعد شهر كامل، أي في يوم 15 يونيو، من إشارة عابرة وردت في منشور للصديق الدكتور أبوبكر محسن الحامد ضم صورة له مع الشاعر الراحل.

* * *

سمعت باسم عوض ناصر الشقاع للمرة الأولى من مقال كتبه عنه الأخ الدكتور عبدالله حسين البار في صحيفة (الشرارة)، العدد المؤرخ 2 يناير 1985م، وكان ذلك أول مقال يكتبه عن الشاعر الصاعد الناقدُ البار، الذي كان أيضا لم يستكمل بعد تحصيله العلمي الأكاديمي. وقد ربطت بين الرجلين، الناقد البار والشاعر الشقاع، منذئذ علاقة أدبية وإنسانية وطيدة، ولذلك فقد لجأت إلى الصديق والأخ الكريم الدكتور عبدالله لأعزيه أولا في صديقه، ثم لأطلب منه تزويدي ببعض المعلومات، عن الشاعر الراحل، وهي التي أرسلها لي فعلاً وسأبثها في سياق هذا المقال.

أما أنا فقد التقيت بالشاعر الشقاع رحمه الله ربما في مناسبة واحدة فقط، تلك هي مناسبة المهرجان الثقافي الكبير، الذي حمل بالإضافة إلى الثقافة طابعا سياسيا وانتظم في مدينة سيئون في أواخر شهر سبتمبر من عام 1996م، وحضره عدد كبير من الأدباء والمثقفين وشمل فعاليات مختلفة بين ندوات وأمسيات شعرية وقصصية وغير ذلك. وأتذكر أن الشاعر الشقاع ألقى في الأمسية

الشعرية القصصية، التي أدارها وقدم المشاركين فيها الدكتور عبدالله البار نفسه، قصيدة استعمل فيها ما يسمى التناص مع إحدى سور القرآن الكريم وهي سورة الكهف. وقد ضم الشاعر بعد ذلك هذه القصيدة، وعنوانها (الرحلة)، إلى أحد ديوانيه اللذين صدرا معا وهو ديوان (عناوين لرحلة الغيوم)، والديوان الآخر عنوانه (طقوس النار والأحجار)، وقد أكرمني الشاعر بإرسال هذين الديوانين لي عن طريق الأخ القاص الأستاذ عبدالله سالم باوزير، رحمه الله، الذي كانت تربطه علاقة صداقة بالشاعر، والاثنان ممن اختاروا الإقامة في عدن واتخذوها لهم وطنا أثيرًا، رغم أن أحدهما، وهو باوزير، من مواليد غيل باوزير في حضرموت في عام 1938م، والآخر، وهو الشقاع، من مواليد قرية المحفد، التابعة لمحافظة أبين، في عام 1954م. يقول الشاعر في أحد مقاطع قصيدة (الرحلة):

يا صديقي تفجر الكهف ضوءا فإذا بالضياء أعمق سرا
لا تدعني لظلمتي وضيائي خذ بكفي أجد على الماء خُبرا
قال: لن تستطيع عنديَ صبرا قلت: خذني سأصعد الوقت صبرا
قال: معنى الرحيل فكرك صمتا ودليل الطريق صمتك فكرا

وقبل أن أمضي في الحديث عن الشاعر الشقاع، رحمه الله، سأنقل فيما يلي قصيدة كاملة له من ديوانه (طقوس النار والأحجار)، وهي بعنوان (تراب الولد المشاغب)، ومذيلة: العند 1987م:

أتعددين لي المناقب؟ إن الذي تعنين غائب
حولي نباح حضارة تلغو بفلسفة الخرائب
حولي شظايا عمريَ الزاهي وأنقاض المواهب
زمنا حلمت بعالم أبهى.. بإلغاء المتاعب
غامرت في تيه القصيد.. ركبت أمواج المذاهب
شاغبت بالأشعار مرحلة وأطلقت الكواكب

حتى تحطمت الجسور الخضر وانطوت التجارب
ذهبت خيول الحزن بالأشعار والولد المشاغب
متوحدا بترابي الشخصي بالسجن المواظب
ما زلت أبحث من خلال الوقت عن وقت مناسب
ما زلت أنشد نار أعلامي وفجرا غير كاذب
أوتعجبين من انكساري في متاهات الغياهب؟
أوتسألين عن الهوى الناري عن عشب الغرائب؟
اليوم تمجيد الحصى اليوم تأليه الطحالب
للموت لون ناصع للعصر رائحة الجوارب
ساءلت عن مدني الأثيرة لم أجد إلا الحقائب
وبحثت عن رسل الحقيقة لم أجد إلا المناصب
فعدوّنا خلف الحدودِ.. عدوّنا خلف المكاتب
ومن المحبة قسوة ومن العداوة ما يصاحب
لي همي الذاتي ولي هم الجميع فمن أحارب؟

وعلى الرغم من أن الدكتور البار في مقاله القديم في الشرارة كان قد عمّد الشقاع: "تلميذا نابها في مدرسة البردوني"، متنبئا له أنه: "سيصير علما يمنيا في سماء الشعر العربي"، فإنه، عندما سألته الآن: هل يصح أن يقال إن الشقاع ينتمي إلى المدرسة البردونية وإنه التزم كالبردوني بكتابة القصيدة البيتية الموزونة المقفاة؟ رد قائلا: "إن الشقاع كتب قصيدة التفعيلة، ولكن ميله ومزاجه كانا يفضلان قصيدة البحر على سواها، وهو ما ينبئ عنه ديوانه (الدفتر السقطري، وقصائد أخرى)، وأما عن تأثره بالبردوني فمسألة يفصل فيها المنهج النقدي الذي يدرس به شعره وليس الانطباع الأول السريع". وهذا الديوان الذي ذكره البار، في إجابته التي سقتها للتو، هو من بين ثلاثة دواوين

للشاعر معدة للنشر، والآخران أحدهما عنوانه (متاهات في كتاب الرمل)، والآخر قصائد متفرقة من حصاد سنوات العقد الثاني من هذا القرن الحادي والعشرين. وعدا الديوانين اللذين أصدرهما الشاعر معا وسبقت الإشارة إليهما، هناك ديوان ثالث مطبوع عنوانه (السائر في الظلمات) أكرمني الشاعر أيضا بإرسال نسخة لي منه عن طريق الدكتور البار، مما يدل على كرم النفس وروح المودة التي كان يحملها هذا الأديب نحو كل من يعرفهم من رفقاء الكلمة. وكتب البار مقالة طويلة عن الشاعر الشقاع بعنوان (الشقاع شاعر من بلدي) نشرت في مجلة (آفاق) في التسعينيات، كما كتب عنه في عام 2012 دراسة نشرت بعد ذلك في مجلة (حضرموت الثقافية)، وهذه الكتابات كلها نواة لمشروع كتاب نتمنى أن يهيئ الله الظروف للناقد الدكتور البار كي ينجزه، وهو ما كان متوقعا من الأخ البار نظرا للإعجاب الكبير والتقدير اللذين يكنهما للشاعر الشقاع.

عندما بلغ الصبي عوض ناصر الشقاع سن الالتحاق بالمدرسة، دخل به والده إلى عدن، فبدأ دراسته هناك من الابتدائية ثم واصلها حتى الجامعة، حيث تخرج من كلية التربية العليا تخصص لغة عربية. وقد بدأ بالقرزمة بالشعر صغيرا. وذكر لي الدكتور أبوبكر الحامد أنه: "اشترك – أي الشقاع – معنا، مجموعة أدباء شباب عام 1973م ببرنامج الأستاذ السوداني محمد المجذوب". ويقول الدكتور البار إن تلك القرزمة كانت سببا في انفتاحه على القراءة واتساع ثقافته على صغر سنه، وقلة المنشغلين بالثقافة في داخل أسرته. وقد ساعدته قراءاته الواسعة على إخصاب تجربته الشعرية التي بدأت في عام 1973 بقصيدته (النار والأشياء)، ولم تقف من بعدُ حتى وفاته، رحمه الله.

انخرط الشقاع الشاعر في الأطر التنظيمية للجبهة القومية، ولكن وعيه الوجودي بالحياة جعله متناقضا مع منطلقات الرفاق خاصة بعد ما سمي بالخطوة

التصحيحية في 22 يونيو 1969م، فحاول الهرب إلى تعز، لكنهم ألقوا القبض عليه فسجن في لحج برهة ثم نفي إلى سقطرى سنة كاملة من عام 1976 إلى عام 1977م. عاد بعدها وقد تغير طعم الحياة في روحه كلها، لكنه حرص على مواصلة دراسته الجامعية فنال شهادة البكالوريوس وبها شق طريقه للعمل، فجرب التدريس مدة من الزمن لكنه لم يرُقْه، وعمل في دار الهمداني بعدن، ثم بعد الوحدة عمل محررا في صحيفة 14 أكتوبر حتى آخر حياته.

يبدو لي مما عرفته عن الشاعر الراحل عوض ناصر الشقاع أنه كان صاحب تفكير مستقل، وحسناً فعل بالانصراف عن الجو الاجتماعي والسياسي غير الصحي في البلاد إلى الاهتمام بموهبته الشعرية والاستمرار في كتابة الشعر حتى أنجز ستة دواوين شعرية، وهو حصاد طيب. وما يعزز هذه الصورة التي لخصتها عنه ما سمعته من الدكتور أبوبكر الحامد من أن مفتاح شخصيته كان الاستقامة، ولعل وفاته بالوباء في العشر الأواخر من رمضان وفي يوم جمعة أن تكون مبشرات بقبوله عند الله سبحانه وتعالى مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا.

17 يونيو 2020م

نظرات في ديوان (مرايا لا تعكس)

للشاعر عبدالحكيم الزبيدي

ديوان (مرايا لا تعكس) هو الديوان الثاني الذي يصدره الأديب الدكتور عبدالحكيم عبدالله الزبيدي بعد ديوانه الأول (اعترافات متأخرة) الذي صدر في عام 2009م، أي أن هناك أكثر من عشر سنوات بين الديوانين. والحقيقة أنني عرفت الدكتور عبدالحكيم أولاً بصفته ناقدًا أدبيًا ومهتمًا بشكل خاص بأدب الأديب الحضرمي المصري الأستاذ علي أحمد باكثير واطلعت على كتابين له عن أدب باكثير، وهو الذي قام بإنشاء موقع علي أحمد باكثير على الإنترنت في عام 2001م وقدم من خلاله خدمات جليلة في التوثيق لكثير من المعلومات والكتابات والأبحاث والرسائل المتعلقة بالأديب الكبير مما أفاد الباحثين الجدد، الذين ما زال عددهم يتكاثر، كما أصبح الموقع مرجعًا ومقصدًا لكل الذين يتطلعون إلى معرفة شيء عن باكثير، ولذلك فالدكتور الزبيدي يعد إنشاء موقع باكثير من أهم إنجازاته الأدبية والثقافية التي يعتز بها. كما عرفت الدكتور عبدالحكيم الزبيدي صاحب موهبة في الكتابة القصصية من خلال مشاركته بقصة قصيرة في كتاب (مرفأ الحكايات) الذي أصدرته مجموعة (منتدى شهاب غانم الأدبي) على الواتسأب، وكان عنوان هذه القصة (أكرم من حاتم). والدكتور الزبيدي مشارك في الإشراف على مجموعة الواتسأب هذه إلى جانب الأديب الذي يحمل المنتدى اسمه وهو الدكتور شهاب محمد عبده غانم. وإذا كنت قد حظيت بشرف التعرف إلى الصديقين الكريمين الأديبين غانم والزبيدي قبل انضمامي إلى

عضوية هذا المنتدى المبارك، فإن علاقتي بالرجلين قد توثقت فعلًا من خلال وجودنا معًا في المنتدى ومشاركتي في أنشطته وخاصة عملية إصدار الكتب، ومنها هذا الكتاب النقدي الذي أتشرف بالمشاركة فيه بهذا المقال عن ديوان (مرايا لا تعكس) للدكتور الزبيدي، الذي صدرت طبعته الأولى في عام 2020م عن دار رواشن للنشر في الإمارات العربية المتحدة.

عندما عزمت على الكتابة عن ديوان (مرايا لا تعكس)، رأيت أن من الأفضل أن أطلع على ديوان الشاعر السابق (اعترافات متأخرة)، فتكرم أخي الدكتور عبدالحكيم بإرساله لي إلكترونيا. ولقد عبرت صادقًا للشاعر الزبيدي عن إعجابي بشعره في الديوانين، ولعل هذا عائد إلى أنني بطبعي أميل إلى هذا اللون من الشعر، الذي يحافظ على النظام البيتي للقصيدة أو نظام الشطرين كما تسميه الشاعرة والناقدة نازك الملائكة. فأنا نفسي، إن كان لي أن أعد نفسي شاعرًا، أكتب الشعر بهذه الطريقة. والصديقان الشاعران عبدالحكيم الزبيدي وشهاب غانم ينتميان إلى نفس المدرسة الشعرية، وهي تلك المدرسة التي تبتعد عن الغموض والإبهام في الشعر وتفضل أن تقدم نفسها للقارئ من خلال لغة سهلة مفهومة، ولكنها مع ذلك ليست نظمًا باردًا، بل ترقى إلى مصاف الشعر العالي في كثير من الأحيان، وتعد دائمًا شعرًا حقيقيًا يقدر قيمته القارئ المتذوق البصير بمواطن السحر والجمال في الشعر.

فنحن، إذن، أمام سمتين بارزتين تتميز بهما المدرسة الشعرية التي ينتمي إليها الشاعر الزبيدي: إحداهما هي خلو شعر هذه المدرسة من خاصية الغموض التي هي إحدى سمات شعر الحداثة، والتي لا نعدها عيبًا إذا كان الغموض من النوع المقبول الذي لا يصل إلى حد الإبهام والدخول في الطلاسم والمعميات. والسمة الأخرى هي الاتكاءُ على النظام البيتي لكتابة الشعر في معظم إنتاجهم الشعري، وهجْرُ شعر التفعيلة إلا فيما ندر.

فمن بين ثلاث وعشرين قصيدة هي مجموع قصائد الديوان توجد ثلاث قصائد تفعيلية فقط. وهذه القصائد الثلاث منها قصيدة واحدة فقط، هي القصيدة الأخيرة في الديوان وعنوانها (مرافئ الغيم)، يمكن أن يقال إنها أقرب إلى الروح الحداثية في الشعر التفعيلي لغةً ووزنًا وإيقاعًا، وهي من بحر المتدارك، وانسجامًا مع هذه الروح الحداثية كتبها الشاعر في سطور متتابعة بلا فواصل من بداية القصيدة إلى نهايتها. أما القصيدتان الأخريان فهما أقرب إلى أن تكونا قصيدتين تقليديتين بيتيتين طبعتا تشبّهًا بطريقة كتابة شعر التفعيلة. وقد كتب الشاعر كلاً من القصيدتين على شكل مقاطع مفصولة ببياض سطر، ويحسُن أن نتناول كل قصيدة على حدة لنتبين الخصائص التي تميزها عن الأخرى. فالقصيدة الأولى (عالم المجد) تتكون من مقاطع تنتهي كلها بقافية واحدة وروي موحد هو القاف الساكنة، وهذه القصيدة ترتكز على تفعيلة بحر الرمل (فاعلاتن)، وتكاد أن تكون قصيدة بيتية من وزن مجزوء الرمل لولا أن بعض مقاطعها أو (أبياتها) تتكون من خمس تفعيلات، وبذلك تزيد بمقدار تفعيلة واحدة عن التفعيلات الأربع التي يتكون منها مجزوء الرمل، ولذلك كتب الشاعر القصيدة كلها بطريقة كتابة شعر التفعيلة، بما في ذلك المقاطع المكونة من أربع تفعيلات، التي يعد كل مقطع منها بيتًا كاملاً من مجزوء الرمل، إلا أنه أحيانًا يكون مدورًا وأحيانًا يكون غير مدور، وسأورد هنا البيتين الأخيرين من القصيدة، اللذين يمثل أولهما حالة التدوير ويمثل الثاني الحالة الأخرى، كما كتبهما الشاعر في الديوان، ولكن بدون فاصل:

دولة البغي
وإن طال تماديها
ستُمحَقْ
سوف يأتي الفجرُ

مهما طال داجيها
ويُشرقْ

القصيدة التفعيلية الثانية، وعنوانها (لا تسافر)، ترتكز أيضًا على تفعيلة بحر الرمل (فاعلاتن)، وقسمها الشاعر إلى مقاطع كما أسلفنا، ولكن المقاطع (الأبيات) – وسنسميها أبياتًا تجاوزًا لأن عدد التفعيلات يختلف من مقطع إلى آخر– يزيد عدد تفعيلاتها أحيانًا عن خمس تفعيلات، وبذلك تجاوزت الحد الذي وقفت عنده قصيدة (عالم المجد)، ولكنها مثلها تنتهي إلى قافية واحدة وروي موحد هو، هذه المرة، الراء الساكنة. وعلى الرغم من هذا التقسيم شبه البيتي لمقاطع القصيدة فقد نجح الشاعر في جعلها ذات نفَس تفعيلي حداثي عندما اقتصر على استعمال تفعيلة بحر الرمل (فاعلاتن) واستبعد تفعيلة (فاعلن) في معظم مقاطع القصيدة. وتفعيلة (فاعلن) هي التفعيلة الثالثة التي ينتهي بها كل من شطري بحر الرمل التام، غير المجزوء، وقد اضطر الشاعر إلى استعمالها مرتين، في مقطعين من القصيدة، نظرًا لتكَوُّن هذه المقاطع من ست وأحيانا سبع تفعيلات مما أدخلها في محاذير بحر الرمل التام، ولكي أدلل على كلامي سأورد إحدى هاتين الحالتين، حيث تظهر تفعيلة (فاعلن) في كلمة (غربةً):

لم أصادف منذ فارقتك
إلا غربةً
عشت فيها حائرًا
والحظ عاثر

في هذا المقطع نلاحظ أن القارئ لا بد من أن يقف بعد كلمة (غربةً)، كما يقف قارئ القصيدة البيتية بعد الشطر الأول من البيت، قبل أن يستكمل القراءة. ونحن لا نرى شذوذا أو نشازا في هذه الوقفة وقد لاحظنا أنها جاءت عند

بعض الشعراء الذين كتبوا قصائد تفعيلية من بحر الرمل، ولكننا نود أن نقارن هذا المقطع مع مقطع آخر لم ترد فيه تفعيلة (فاعلن)، بل هو مكون من ست أو سبع تفعيلات – إذا حسبنا عبارة (لا تسافر) – من تفعيلة (فاعلاتن). فهذا المقطع (ينساب رقراقا) دون توقف بطريقة تستعذبها الأذن وترتاح لموسيقاها:

لا تسافر
صوتها ينساب في أذنيَ رقراقًا
يدوِّي مثلما الناقوسُ هادر

لقد أخبرني الدكتور شهاب غانم بمعلومة لعلها ستفيدني في ما أنا بصدده من بحث موضوع شعر التفعيلة انطلاقًا من هذه النظرات في ديوان (مرايا لا تعكس). قال لي عندما تكلمت معه حول المدرسة الشعرية الواحدة التي تجمعه مع الدكتور الزبيدي: "أنا أكبر من د. عبدالحكيم بنحو ربع قرن ولكن أظنه أكثر مني تمسكًا بتقاليد الشعر، وأنا نحو 40 في المئة من شعري بالشكل التفعيلي وأعتبر شاعرًا (حداثيًا) إلى حد ما وإن كان معظم شعري، مؤخرًا، شعرًا عموديًا أو بالأصح بيتيًا".

ويخيل إليّ أن شعر التفعيلة بالصورة التي بدأ بها مع نازك الملائكة والسياب والبياتي في العراق، ومع صلاح عبدالصبور وأحمد عبدالمعطي حجازي في مصر، ومع شعراء المقاومة في فلسطين، ومع أشباه هؤلاء على مستوى الوطن العربي كله كان مرحلة وانتهت تقريبًا أو عفا عليها الزمن وتجاوزها الشعراء الحداثيون إلى طرائق وأشكال أخرى من الكتابة الشعرية منها قصيدة النثر على سبيل المثال، وعاد القسم الآخر إلى حضن الشعر العمودي الدافئ بعد أن جربوا استعماله، أي شعر التفعيلة، زمنًا فلم يشف لهم غليلاً – ودعوني هنا أستعمل تسمية (الشعر العمودي) الشائعة – أو لنقل إنه

ليس كل الشعراء يجيدون كتابة شعر التفعيلة، فهو يحتاج إلى مقدرة خاصة وعالية وإلا وقع الشاعر في التقليد وتكرار التجارب السابقة. ثم إن الحداثة ليست شكلاً فقط ولكنها رؤية وموقف من كثير من القضايا. وأنا لم أذكر علي أحمد باكثير، مثلاً، الذي يشار إليه عادةً بوصفه من رواد شعر التفعيلة؛ لأن تجربته اقتصرت على مسرحية (إخناتون ونفرتيتي) وربما بعض القصائد التفعيلية التي ظلت تحمل نفس رؤية باكثير ومواقفه المبدئية القومية والفكرية في لغة واضحة قريبة إلى فهم القارئ، ومنها قصيدته المطولة التي كتبها بعد نكسة حزيران عام 1967م، وغنت جزءًا يسيرًا منها الفنانة فائزة أحمد، في حين أن رائدًا آخر كالسياب – رغم عمره القصير– شهد شعر التفعيلة تطورًا كبيرًا على يديه في اللغة وفي استخدام ما يسمى البناء الدرامي للقصيدة، الذي يحتاج إلى استعداد خاص لفهمه وتذوقه، فضلاً عن تجريب أشكال مختلفة جديدة حتى في إطار شعر التفعيلة.

لا أريد أن أخوض أكثر من ذلك في هذه القضية حتى لا نبتعد عن موضوعنا الأساسي في هذا المقال، وهو ديوان الشاعر الزبيدي (مرايا لا تعكس)، ولكنني أخلص مما تقدم إلى القول إن اختيارات أي أديب أو شاعر باتجاه الحداثة أو (التقليدية) تنطلق في الأساس من موقف فكري إلى جانب أنه موقف فني أو قبل أن يكون فنيًا. ونستطيع بكل سهولة أن نحكم على شاعر كبير مثل نزار قباني بأنه شاعر (تقليدي) أكثر بكثير مما هو (حداثي)؛ لأنه كتب بعد نكسة حزيران عددًا كبيرًا من القصائد البيتية الرائعة، وأيضًا القصائد التفعيلية التي هي في متناول فهم القارئ، تبنّى فيها جميعها الدفاع عن قضايا أمته العربية بقدر عالٍ من الشعور بالمسؤولية الذي يجب أن يتحلى به كل مثقف وأديب في مثل هذه المرحلة العصيبة التي تمر بها أمتنا المغلوبة على أمرها. ولأمر ما أخذ الدكتور الزبيدي على عاتقه أن

ينشئ موقعًا على الإنترنت خاصًا بالأديب علي أحمد باكثير، كما صدّر ديوانه هذا (مرايا لا تعكس) بقصيدة عن علي أحمد باكثير، أعطاها عنوان (الشعاع المنير)، بمناسبة مئوية ميلاده ومرور عشرة أعوام على انطلاق الموقع، تتكون من أكثر من سبعين بيتًا، يقول مطلعها:

هـذا شـعاعك مشـرق ومنيـرُ يمضـي الزمـان وظلـه منشـورُ

وتعد هذه القصيدة العصماء ملحمة من بحر شعري رصين مناسب هو الكامل روى فيها الشاعر مراحل حياة وكفاح الأديب العربي الكبير- كما وصفه في إهداء القصيدة – منذ أن ولد في سورابايا بإندونيسيا، ثم أنهاها بالدعاء له في عدة أبيات ختمها بهذا البيت:

مـن يبـذل الغـالي لخدمـة دينـه فجـزاؤه عنـد الإلـه كبيـرُ

كما أحسن الشاعر اختيار القافية، وحرف رويها الراء، التي تتناغم مع اسم باكثير في مقطعه الأخير، فكأن نهاية كل بيت في القصيدة صدى يتردد ويتكرر في مسامع الدنيا من اسم هذا الرجل الكبير والكثير!

يا (باكثيرُ) اليوم جَدُّك صاعدٌ فارقد قرير العين لا تكديرُ

وفي قصيدة شبيهة تبلغ خمسين بيتًا تقريبًا كرّم الشاعر صديقه الأديب الشاعر الدكتور شهاب غانم الذي ما زال يواصل عطاءه وكفاحه الأدبي والثقافي، حفظه الله، وأهدى إليه هذه القصيدة بمناسبة حصوله على جائزة طاغور العالمية، واستعمل لها مجزوء الكامل متخذًا أيضًا من اسم (شهاب) قافية للقصيدة:

اصدح بشعرك يا شهاب وابلـغ بـه ثـبج السـحاب
فـاليوم شـعرك قـد غـدا ملء الصحارى والهضاب
وبلغـت فيـه مكانـةً تعنـو لهـا كـل الرقـاب

تناولنا فيما سبق بعض القضايا الأدبية والفنية المرتبطة بديوان (مرايا لا تعكس)، وأشرنا إلى بعض قصائده، ونريد أن نختم هذا المقال بإلقاء نظرة عامة على الديوان:

كما سبق أن أشرنا يضم الديوان ثلاثًا وعشرين قصيدة رتبها الشاعر بطريقة معينة ارتضاها وهذا شأنه ولا نناقشه فيه، فلم يشأ أن يبوب القصائد حسب مواضيعها. فالديوان يضم عددًا من المراثي في أشخاص كلهم تقريبًا ما عدا واحدًا ينتمون إلى أسرة آل الزبيدي الكريمة، ولعل هذا الواحد يمت للشاعر بصلة قرابة أيضًا أو ما يشبه القرابة، وقد نثر صاحب الديوان هذه المراثي بين قصائد الديوان الأخرى. وكل هذه المراثي تحس فيها بصدق العاطفة وحرقة الفقد وبتميز القصائد بعضها عن بعض تبعًا للشخص المرثي، حتى وإن تكررت بعض المعاني فإنك لا تشعر إزاءها بأي ملل أو نفور بل إنك تود لو تستزيد من أبيات القصائد ونفَسها الشعري الجميل المسترسل؛ وهذا يدل على تمكن الشاعر من أدواته وقدرته على أسر القارئ بلغته الصافية الرصينة وحسن اختياره للألفاظ ووضع كل لفظة في مكانها الصحيح وجمال قوافيه التي تأتي طيعة ومستقرة وطبيعية دون أي نُبو ولا في كلمة واحدة من كلمات قوافي الشاعر. وما أقوله هذا ينطبق على كل قصائد الشاعر وليس المراثي فقط.

وبالإضافة إلى المراثي وقصيدتَي باكثير وشهاب غانم والقصائد (التفعيلية) الثلاث التي فصلنا القول فيها، هناك قصيدة عن الإمارات، وطن الشاعر، وقصيدة في ذكرى الشيخ زايد، وقصيدتان في التغزل بالأماكن إحداهما عن صلالة والأخرى عن كازاخستان وكلتاهما جميلتان كجمال المشاهد الموصوفة فيهما، بل وأجمل! وما أجمل الوزن والقافية اللذين اختارهما الشاعر لقصيدة صلالة المستوحاة قافيتها من الاسم نفسه، ولكن الشاعر استخدم نفس القافية مع روي آخر جميل هو روي القاف وذلك في

مرثية (النفس الأبية)، مما يدل على اختياره الواعي البارع لقوافيه. أما حروف الروي فقد جاءت في هذا الديوان، وأحياناً تكررت، بعض حروف الروي التي أستحسنها وتمس مني شغاف القلب، وهي: الفاء، والحاء، والقاف، والتاء مثلاً، فضلاً عن الحروف الشائعة المعروفة. وهذه بعض أبيات قصيدة (صلالة):

نزلنا في ربى الخضرا صلالة نرفه أنفسًا تشكو الملالة
نعمنا في خمائلها بوقت وساعات تقضت في عجالة
يزيّن من مباهجها خريف نحس ونجتلي أبدًا جماله

وعدا عما ذكر، هناك عدد من القصائد الوجدانية، بعضها يمكن أن يندرج في إطار شعر الأسرة مثل قصيدة (الفرح القادم). ومن هذه القصائد الوجدانية القصيدة التي أعطت اسمها للديوان (مرايا لا تعكس). وفي ندوة الديوان التي شارك فيها عدد من الإخوة والأخوات الأدباء والنقاد جزاهم الله خيرا، وصفت زميلتنا الأديبة الأستاذة إخلاص فرنسيس، في كلمتها التي افتتحت بها الندوة، عنوان (مرايا لا تعكس) بأنه عنوان (سريالي) لديوان (واقعي)، وقد أعجبني هذا الوصف لأنه ذكرني بما فعله أحد النقاد عندما وصف عنوان قصيدة لي بأنه عنوان حديث لقصيدة ذات لغة قديمة. ولعلي لا أميل إلى محاولة استنطاق ما يسمى بالعتبات النصية واستخراج ما تعنيه في حين أن اختيار عنوان الديوان ربما تم لمجرد استحسان الشاعر لهذا العنوان أكثر من أي عنوان آخر من عناوين القصائد. ولكن إذا أردت الحديث عن القصيدة نفسها، فأقول إن (مرايا لا تعكس) عنوان ملتبس لقصيدة ملتبسة، فهذه القصيدة تنفرد بملامح خاصة بها دونا عن سائر قصائد الديوان، فهي القصيدة الوحيدة التي كتبت بطريقة المقاطع المتساوية في عدد الأبيات والمختلفة في القافية وحرف الروي، كما أن الشاعر اختار لها بحر المتدارك أو الخبب، وهو بحر غير شائع في الشعر العمودي، وإن كان بعض الشعراء المعاصرين يفضلون

استعماله أحياناً كنزار قباني في قصائد مثل (عيناك كنهرَي أحزان)، و(القصيدة البحرية)، وكالبردوني في قصيدة (الليل خريفيٌّ أرعن)، وأخيرا أزعم أن هذه القصيدة تميل قليلا نحو الرمزية والغموض، ولعله لهذا السبب أعطاها الشاعر عنوان (مرايا لا تعكس)، وهو يخاطب في القصيدة من أعطاها اسم (فوز)، فاستدعى إلى ذاكرتنا الشاعر العباسي الرقيق (العباس بن الأحنف) الذي وقف شعره على التغزل والتغني بمحبوبته (فوز).

ونحن إذا تقصينا البحور الشعرية التي استعملها الشاعر في هذا الديوان، عدا عن المتدارك الذي ذكرناه للتو، سنجد أنه استوفى معظم البحور الشعرية الشائعة الجميلة، الكاملة وبعض البحور المجزوءة، فاستعمل الطويل، والكامل، والبسيط، والرمل، والوافر، والخفيف، ومجزوء الكامل، ومجزوء الوافر. نتمنى للصديق الشاعر عبدالحكيم الزبيدي كل التوفيق في مسيرته الشعرية كي يتحفنا بمزيد من العطاء والإبداع في إطار المدرسة الشعرية التي اختارها وارتضاها.

17 أبريل 2021م

علي عقيل بن يحيى شاعرًا

عندما كتبت دراستي بعنوان (إبداعنا الأدبي بين التوقف المبكر والاستمرار المتعثر)، التي ألقيتها في اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين بتاريخ 9 يناير عام 2002م، ثم جعلتها أحد فصول كتابي (كُتّاب في المرآة)، ذكرت فيها اسم علي عقيل بن يحيى بوصفه شاعرًا. وكان مرجعي الوحيد في عدّي له من الشعراء الحضارمة المتميزين هو الكتيب الذي أصدره عنه اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين فرع حضرموت في عام 1989م بعد مرور أكثر من عامين على وفاته، وكان بعنوان (علي بن عقيل.. أنشودة الوطن والثورة). فقد احتوى هذا الكتيب على ست قصائد شعرية كانت كافية لأن تترك عندي انطباعا جيدا عن شاعرية هذا الرجل حتى كتبت عنه تلك الإشارة القصيرة في دراستي تلك، التي تساءلت فيها عما إذا كانت القصائد التي كتبها على عقيل بن يحيى يمكن أن "تشكل ديوانا إذا ما تم جمعها".

وبعد ثلاثين عاما، وفي عام 2020م تحديدًا، صدر عن الأستاذ علي عقيل كتاب هذه المرة وليس كتيبًا، أهديت لي نسخة منه ضمن عدد من الكتاب والأدباء ربما بهدف الترويج للكتاب من خلال دفع هؤلاء الأشخاص الذين أهدي إليهم الكتاب للكتابة عنه، كلٌّ من الزاوية التي يحلو له الحديث عنها من جوانب الأستاذ علي عقيل المتعددة. ويبدو أن مشاغلي الأخرى المختلفة منعتني من أن أتجاوب بالسرعة المطلوبة مع هذه الرغبة التي أحسب أنها كانت موجودة لدى القائمين على نشر هذا الكتاب الأخير، الذي كان بعنوان (تريم بوابة الفكر القومي العربي إلى اليمن.. علي عقيل بن يحيى رائدًا).

ولكنني بعد عدة شهور التفتّ إلى الكتاب فجأةً وكتبت عنه مقالًا في الفيسبوك حمل هذا العنوان (علي عقيل بن يحيى قامةً حضرميةً سامقة). وبدأت المقال بالإشارة إلى ما كنت قد كتبته عن علي عقيل في دراستي السابقة الذكر، وأيضًا في مقالي عن الأستاذ عبدالله محيرز الذي زامل علي عقيل في المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف، إذ كان علي عقيل نائبًا لمدير المركز اليمني، محيرز، حتى وفاته في ديسمبر عام 1987م.

وركزت في صلب مقالي الذي نشرته في الفيسبوك على المقدمة التي نُشرت في صدر الكتاب باسم ابنتَي علي عقيل: الدكتورة عزة والدكتورة ليلى، اللتين – حسبَ المقال نقلًا عن هامش في الكتاب: "تقيمان حاليًا في فرنسا وتعملان باحثتين في مجال التاريخ والآثار". ونقلت اقتباسين عن المقدمة كان ثانيهما كما يلي:

"والدنا في حقيقته شاعر مثقف ذو طموح كبير لأمته العربية، قضى الشطر الأول من حياته لتحقيق أحلام الشاعر لأمته، أما الشطر الثاني من حياته فكرّسه لتكوينه الأساسي أي الشعر والأدب والتاريخ. من الصعب الحديث عن أب دون أن يعتقد البعض أن في حديثنا عنه مبالغة أو مثالية بدافع المحبة، لكن كل من عرفه يشهد بأنه شديد الذكاء ذو ذاكرة قوية يحفظ الكثير من القرآن الكريم والشعر القديم. وما يميزه أنه منظم في فكره وعمله مواظب لا يكل."

أما مؤلف الكتاب فهو الدكتور صالح أبوبكر بن الشيخ أبوبكر، من أبناء مدينة المكلا، تلقى التعليم الابتدائي والمتوسط في مدارسها، وحصل على شهادة الثانوية العامة من ثانوية الشويخ بدولة الكويت، ثم على ليسانس الآداب قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية من جامعة دمشق بالجمهورية العربية السورية. ونال المؤلف شهادة (دكتوراه الفلسفة) في التربية وعلم النفس من جامعة إرفورت بألمانيا. وصدر الكتاب عن دار حضرموت

للدراسات والنشر. وعلى الرغم من أن هذا المؤلف ليس من الأسماء المعروفة التي تدور على الألسن، فإنني أعجبت بالجهد البحثي الذي قدمه في هذا الكتاب عن علي عقيل. لقد قدم الدكتور صالح بن الشيخ أبوبكر قراءة واسعة وعميقة – تنم عن رؤية مستقلة وحصيفة – لعصر علي عقيل رجع فيها إلى كثير من المصادر وتناول فيها الجوانب الاجتماعية والسياسية والفكرية وتفاعلاتها في حضرموت والمنطقة عمومًا وفي المهجر منذ ما قبل جيل صاحب السيرة وحتى ما بعده، وكيف تأثر علي عقيل بكل ذلك وكيف كان دوره البارز والفاعل الذي قام به في كل الأماكن التي عاش فيها وارتحل إليها وفي كل مجالات النشاط التي خاض فيها حتى انتهى به المطاف إلى العيش آخرَ سنوات عمره الحافل في مدينة عدن نائيا بنفسه بعيدًا عن السياسة ومتفرغا لاهتماماته الشخصية كما تقول مقدمة ابنتيه في الكتاب.

لا ريب أن الشعر كان من الاهتمامات الشخصية البارزة لعلي عقيل وقد رافقه في كل مراحل حياته النضالية والوطنية والحزبية، ولكن لعله لم يستعمل الشعر، إلا في النادر، صوتًا دعائيًا لأفكاره الحزبية التي كان يؤمن بها، بل كان شعره صوتًا صافيًا يعبر به عن خلجاته وهواجسه الإنسانية والعاطفية وعن مبادئه العامة ومنطلقاته الأساسية التي يترجمها في شعر حقيقي ربما ينتمي إلى مدرسة الكلاسيكية الجديدة في طريقة اختياره للألفاظ الجزلة الرصينة وفي جودة وقوة السبك، كما تجد أثرًا في بعض قصائده للمدرسة الرومانسية، وهناك نزعة أبيقورية تفصح عنها قصائد للشاعر غير قليلة. وعادةً ما يعمد علي عقيل إلى الإطالة في قصائده، خاصة المناسباتية منها، شأن شعراء الإحياء كالبارودي وشوقي وحافظ ومطران. ومن أمثلة شعره الإنساني، أو ما يمكن أن يندرج أيضا ضمن ما يعرف بشعر الأسرة، هذه الأبيات المؤثرة من قصيدة له بعنوان (أبنائي)، وأبناء علي عقيل هم: ابنه الأستاذ عباس علي عقيل، الذي كان

قد شارك بفصل مطول عن حياة والده ضمن كتاب (علي بن عقيل.. أنشودة الوطن والثورة)، وابنتاه عزة وليلى. تقول الأبيات:

عزائـيَ فـي دنيـا المكـاره أبنـائي ... ألـوذ بهـم كالطفـل مـا بـين آبـاءِ
إذا اسـودت الـدنيا بـدربي ومقلتـي ... رأيتهمـــو نـــورًا يشـــع بظلمـــائي
وإمـا جفـاني النـاس غـدرًا وجـدتهم ... لقـونيَ بالأحضـان سـلوى لضـرائي
هم الناس في دهري فليس سواهمو ... أكنـت طريـدًا أم مقيمًـا أحبـائي
هـم العمـر والـدنيا فـأنى تغيـرت ... بـي الحـال ألقـاهم حيـالي وتلقـائي
كمـا أنـا يبغـوني غنيـا ومعـدما ... معـافىً ومنهوكًـا طريحًـا بـأدوائي
تمنيـت أجفـاني مجـال مـراحهم ... وأغمضـها كـي لا تصـاب بأقـذاءِ
أهيـــب بقلبـــي أن يقبـــل تربـــةً ... مشـوا فوقهـا لاهـين فـي ظل نعمـاءِ
وعاهدتـــه ألا يحـــب ســـواهمو ... وما كنت لولا الغدر أكره أعدائي

ولكن مما يؤسف له أن شعر علي عقيل لم يُهتمّ بتوثيقه وحفظه، وتعرض جزء منه للتلف أو الضياع نظرا لتنقلاته الكثيرة بين أكثر من قطر عربي والتزاماته الحزبية والسياسية التي ربما لم تترك له الوقت الكافي للاهتمام بجمع أشعاره وإصدارها في ديوان في أثناء حياته. وكان ينبغي أن يقوم بهذه المهمة في فترة وجوده في عدن التي تصفها ابنتاه بأنها كانت فترة استقرار وأمان "رغم أن ظروف البلاد نفسها لم تكن دائما كذلك"، ولكن لعل الرجل – رحمه الله – كان دائما أكثر شعورًا بالواجب نحو وطنه ونحو الصالح العام منه نحو مجده الشخصي، فانشغل بمهام عمله في المركز اليمني للآثار والمتاحف وأعطاه جل وقته وجهده.

وحسنًا فعل القائمون على إصدار الكتيب والكتاب عن المناضل الوطني والقومي والأديب الكبير علي عقيل بأن ضمنا عمليهما مختارات من قصائده جاءت دائمًا في نهاية الإصدار. وقد أحصيت هذه القصائد في الكتابين فوجدتها

أحد عشر قصيدة فقط، وهناك قصيدتان تكررتا في كلا الكتابين. قلنا إن إنتاج علي عقيل من الشعر ربما تعرض جزء غير قليل منه للتلف أو الضياع، ولكن حتى ما سلم وبقي من هذا الإنتاج لم يسلم من حدوث أخطاء في أثناء عملية النقل والنسخ في كل مرة، ففي كل قصيدة من قصائده هناك دائمًا أبيات تحتاج إلى إصلاح وإلى إمعان النظر فيها للوصول إلى الصورة الأصلية الصحيحة التي أرادها وارتضاها الشاعر. وهذا ما تبين لي بعد اطلاعي على مجموعة قصائد الأستاذ علي عقيل الباقية كلها، التي تحتفظ بها ابنته الدكتورة عزة علي عقيل، وكنا قد تكلمنا معًا عبر وسائل التواصل الاجتماعي عن إمكانية إصدار ديوان يضم أشعار وقصائد والدها ويبقى تراثًا خالدًا تتناقله الأجيال. وإذا أمكن القيام بعملية تحقيق لهذه الأشعار ومقارنتها بنسخ أخرى من الديوان قد تظهر من خلال البحث والعودة إلى بعض المظان فستكون تلك بداية الطريق للوصول إلى إصدار ديوان حقيقي للشاعر علي عقيل بن يحيى.

وكنت قد نشرت في الفيسبوك أبياتًا أعجبتني من القصيدة التي نشرت في نهاية كتاب الدكتور صالح بن الشيخ أبوبكر، والتي كان علي عقيل قد قالها بمناسبة ذكرى الأربعين لرحيل "فقيد الأدب حسن بن عبدالرحمن السقاف" – وليس الكاف كما جاء في الكتاب بالخطأ. وفي مطلع القصيدة ينقض الشاعر المقولة الشائعة منذ القدم عن أن أعذب الشعر أكذبه فيقول:

ما الشعر أعذبه الكلام الكاذبا ... ليس البواكي كلهن نوادبا
إن الرثاء هو الوفاء يقوله ... متفجع لا راغبًا أو راهبا
فإذا الدموع على الخدود تساقطت ... ميزت منها صادقًا ومواربا
دع عنك رواد الخداع ورهطه ... وقل الحقيقة شاعرًا أو كاتبا

ما أجمل هذا القول! وفعلاً ومن خلال استعراضي العام لأشعار علي عقيل واطلاعي على سيرته الشخصية وجدت أن أكره ما يكرهه علي عقيل الخداع

والزيف والتلون، وهذه أشياء راجت واستشرت بل أصبح يُتباهى بها في عصرنا البائس هذا. لقد كان الرجل (مناضلاً) حقيقيًا يتميز بالصدق والنقاء الوطني والثوري ويؤمن بالشعب في مجموعه وبأحقيته في تقدم الصفوف والتعبير عن مطالبه والدفاع عن حقوقه دون وصاية من أحد. كما كان صادقًا في ولائه لمبادئه القومية العروبية ولقضية فلسطين بشكل خاص، بل ذهب إلى الخطوط الأمامية في أواخر ستينيات القرن الماضي، وكاد أن يقضي نحبه شهيدًا في سبيل فلسطين. ولعمري إن هذه المعاني كلها التي ذكرتها للتو تشي بها هذه الأبيات، التي أنهى بها علي عقيل قصيدته الجميلة في رثاء حسن عبدالرحمن بن عبيدالله السقاف، وهي أبيات ما زالت رسالتها قائمة ومطلوبة ليومنا هذا مهما أرجف المرجفون:

إن المزايا في الأنام قليلة ... ويكون أندرها الصدوق مواهبا
أفٍّ لدهر عزّ أن تلقى به ... ذاك الكريم مناصحًا أو عاتبا
مهما نمتّ لبعضنا بقرابة ... فقرابة الآداب أعظم ناسبا
إما دنت قربى فإن وشيجة ... أسمى تعم مشارقًا ومغاربا
ووشيجة الوطن الكبير وليجة ... للمجد يزحم للنجوم مناكبا
لو كان لي وطن العروبة واحدًا ... ما كنت ألقى ظالمًا أو غاصبا
صهيون ميراث الصليب وإثره ... ملأ المغول المشرقين مصائبا
شاهت وجوه الخائنين شعوبهم ... مهما تعالوا رتبة ومناصبا
التابعين دمىً يحرك أمرها ... خلف البحار الطامعون مكاسبا

* * *

مهلاً نشاوى البغي إن لعهدكم ... أجلاً تحدّ له الشعوب مخالبا
الدهر لا ينسى الجميل لأهله ... أتراه ينسى للغشوم مثالبا؟
ليس الذي يولي الكرامة شعبه ... مثل الذي يوليه سوطًا لاهبا
الشعب رهن إبائه فإذا يُمسّ بسطوة هز السلاح معاقبا

النصر للشعب الشجاع وهكذا شعبي يلاقيه الطغاة محاربا
مهما تعثرت الزحوف بسيرها شق الكفاح لها طريقًا لاحبا
عشنا بآمالٍ ولم نخدع بها تبقى الشعوب حضارةً وتجاربا

ولك أن تحصي، عزيزي القارئ، كم مرةً تكررت لفظة الشعب والشعوب في هذه الأبيات القليلة! أليس هذا ما نحتاجه بالضبط وما نفتقده بشدة؟ الإيمان بالشعوب وإيلاؤها الكرامة بدلاً من إيلائها سوطًا لاهبًا تساق به وراء مشاريع الوهم؟ أما آن الأوان أن تكف السلطة و(المعارضة) معًا – أو ما تسمى بالنخب – عن التغني باسم الشعب زورًا وبهتانًا بينما هي في حقيقة الأمر تتاجر بقضاياه خدمةً لمصالحها الشخصية وأهدافها الحزبية والأيديولوجية الضيقة؟!

واللافت والعجيب أنني ربطت بين الرجلين: علي عقيل بن يحيى، وحسن عبدالرحمن السقاف في مقالي الذي بدأت بالحديث عنه، والذي تناولت فيه الإبداعات الشعرية والقصصية في حضرموت، ما ظهر منها وما بطن! أو ما ظل حبيس الأدراج. فقد ذكرت حسن السقاف أولًا وأشرت إلى صدور ديوانه (عبر وعبرات) عن مؤسسة العفيف الثقافية في صنعاء في عام 2001م، ثم عرجت على ذكر علي عقيل باعتباره ينتمي إلى نفس المنطقة، وادي حضرموت، وقلت عنه إنه "كتب في خضم نضاله الوطني عددًا من القصائد ذات الديباجة الرصينة لا ندري إن كانت تشكل ديوانًا إذا ما تم جمعها". فهل كان هذا إرهاصًا بما سيكون من بعدُ من اهتمامي الشخصي بشعر علي عقيل بن يحيى والسعي إلى إخراجه في ديوان؟ لعله كذلك، ولعل التوفيق يحالفني ويصدر الديوان يومًا ما بإذن الله!

7 ديسمبر 2020م

صلاح عبدالصبور والحزن

في منشور لي سبق أن نشرته عن (الجنوب) استشهدت بعبارة، من قصيدة للشاعر صلاح عبدالصبور، تقول: "معذرةً يا صُحبتي قلبي حزين". وكنت في زمن الحماس للاطلاع على الإصدارات الأدبية والثقافية قد اشتركت في (المجلة العربية للعلوم الإنسانية) التي كانت تصدر عن جامعة الكويت، وكانت تصلني بانتظام على صندوق بريدي في المكلا. وفي أحد أعداد هذه المجلة نشر مقال للشاعر والناقد الدكتور عبده بدوي بعنوان (ظاهرة الحزن في شعر صلاح عبدالصبور).

وبينما أنا أعيد ترتيب مكتبتي في مقرها الجديد في البيت عثرت في أحد أعداد مجلة (العربي) الكويتية على مقال لرئيس التحرير أحمد بهاء الدين في حديث الشهر جعل عنوانه: (كيف مات صلاح عبدالصبور؟). وأحمد بهاء الدين أحد الكتاب الأثيرين عندي وقد تكلمت عنه في أكثر من مقال لي. وهو من الكتاب الذين يفتقدهم المرء في هذا الزمن ويفتقد نوعية المجلات والكتابات التي كانت تنشر تحت إشرافهم، ومنهم طبعا أحمد زكي ورجاء النقاش وكل الرعيل من الكبار الذين تتابعوا على رئاسة تحرير مجلة (الهلال) المصرية، وغيرها من المجلات ومنها مجلة (الرسالة) لصاحبها الأديب الكبير أحمد حسن الزيات رغم أنني لم أعاصرها ولكنني اطلعت على بعض أعدادها القديمة، وكان من بين كتابها المرموقين الناقد أنور المعداوي. أما اليوم فنحن نعيش زمنا آخر لا أدري كيف أصفه وأصف ثقافته، ولهذا السبب وربما أيضا بحكم التقدم في العمر أصبح المرء زاهدا في متابعة ما يصدر من مجلات وصحف في العالم العربي.

ما تكلمت عنه للتو ليس بعيدا عن موضوع مقال الأستاذ بهاء الدين عن

صلاح عبدالصبور، فالمقال يتكلم عن محنة الكاتب أو الأديب الجاد في بلداننا العربية، وعن ماهية الالتزام عند الكاتب، ومما ورد فيه هذه الفقرات التي ختم بها أحمد بهاء الدين مقاله:

... "فدعوة التزام الأديب ازدهرت واشتهرت في بلاد اقترن فيها الالتزام بالحرية.. ولا يمكن أن يوجد التزام بدون حرية، لأن الالتزام هو في البداية اختيار، وهو بغير الحرية إلزام لا التزام.

... نحن نطلب من الفنان الالتزام بما نلتزم به نحن، وليس بما يلتزم هو به من قيم، وما يرتبط به من مجال يرى أن عطاءه فيه أخصب.

... وقد كان صلاح عبدالصبور فنانا ملتزما بقيم إنسانية وفكرية وفلسفية وفنية... والملتزم حقا يختار العمر الأدبي الطويل، الذي يمكث في الأرض، على العمر المادي الذي هو قصير في آخر الأمر، مهما طال".

لقد مات صلاح عبدالصبور وهو لم يتجاوز سن الخمسين إلا بشهور قليلة، وكانت وفاته بتاريخ 14 أغسطس 1981م. وقبيل وفاته استكتبه الدكتور محمد إبراهيم الشوش عندما كان رئيسا لتحرير مجلة (الدوحة) القطرية، فنشر في الدوحة سلسلة مقالات في منتهى الجمال يشملها عنوان واحد هو (مشارف الخمسين)، ولكل مقال عنوان آخر مستقل. وقد نشرتها (دار الشروق) بعد ذلك تحت عنوان (على مشارف الخمسين)، بإضافة حرف الجر على. وفي هذه المقالات يتحدث عبدالصبور عن بعض مراحل حياته وذكرياته التي ترتبط بطبيعة الحال بمجال اهتمامه الأبرز وهو الفكر والأدب والفن. وأظن أن هذه المقالات وقد مرت على قراءتي لها مدة طويلة لا تخلو جميعها من نبرة حزن، ولكنه ذلك الحزن النبيل والعظيم الذي يليق بشاعر وكاتب كصلاح عبدالصبور، حتى ذلك المقال الذي وردت فيه كلمة (الضحك). فمن بين مقالات الكتاب مقال بعنوان (جماعة الضحك القديم)، تحدث فيه عن

أصدقائه في زمن الشباب الباكر، وكان من بينهم الفنان عبدالحليم حافظ. وقد كان صلاح عبدالصبور من أوائل الشعراء الذين غنى لهم الفنان الناشئ في ذلك الوقت، وأتذكر أغنية فصيحة له بعنوان (لقاء) غناها عبدالحليم وكانت من تلحين كمال الطويل، وهي ذات إيقاع رتيب.. وحزين! وسأنقل هنا، ختاما لمقالي هذا عن صلاح عبدالصبور والحزن، الجزء الذي تكلم فيه عبدالصبور عن علاقته بعبدالحليم حافظ، وهو بعنوان (عندما بكيت):

"أخذت ذات مرة يد صديق عرفته على مقهى الطلبة بالزقازيق وكان يكبرني بعامين، وقد أتم دراسته في معهد موسيقى، وأقام ينتظر تعيينه مدرسًا للموسيقى، أخذته من مقهى الطلبة بعد أن توثقت بيننا صلة الصداقة لأقدمه إلى مرسي جميل عزيز في مقهى جماعة الأدباء الضاحكة .

وهكذا عُقدت الصلة بين عبدالحليم شبانة، الذي سمى نفسه فيما بعد عبدالحليم حافظ، وبين مرسي جميل عزيز، ولكن مرسي تباطأ في الكتابة لعبدالحليم، وفي دفعه إلى ساحة الشهرة، ودخل عبدالحليم الغناء معتمدًا على كلماتي التي لم أكرر مثلها، وعلى ألحان كمال الطويل، صديقنا في ذلك الزمان في الصعلكة القاهرية .

لا أريد في هذا المقام أن أتطفل على ذكرى مطرب أحبه الملايين، ونادم الملوك والأمراء، وتسنم أوج الشهرة، ولكن أذكر أنني فوجئت بنعي عبدالحليم وأنا في الهند – ذكر أحمد بهاء الدين في مقاله أن عبدالصبور عمل ملحقا ثقافيا لمصر في الهند – فلم أملك إلا أن أبكي، ولم يفد لخاطري أن العشرين عاما الأخيرة باعدت بيني وبينه إلا حين نلتقي مصادفة فنتبادل السلام والمجاملة، ولكن ما وفد لخاطري كان أننا اتفقنا سنوات ثلاثا أو أربعا لا نكاد نفترق إلا على موعد، ونشق طريقنا في الحياة جاهدين مجهدين".

13نوفمبر 2019م

الشاعر جمال عبدالله حميد

عرفت الأستاذ جمال عبدالله حميد، أو بالأحرى عرفت عنه، منذ السنوات الأخيرة من الألفية الماضية عن طريق صديقنا الأديب الأستاذ عمر عوض خريص، فلعلي لم أتشرف بمعرفته شخصيا إلا في وقت لاحق. ولكن كان الصديق خريص يحدثني عنه وعن قوله الشعر باقتدار، وعلمت أن عمه هو الصديق الدكتور محمد أبوبكر حميد الذي ربطتني به علاقة أخوية وأدبية منذ زمن بعيد. ثم أخذت تصلني بين وقت وآخر نماذج من قصائده الشعرية صادفت هوى في نفسي لقربها الشديد من المدرسة التي أنتمي إليها في الشعر، والتي نظمت على أساسها معظم أشعاري خاصة تلك التي ظهرت في ديواني الثاني (الحبيبة والفارس).

يلتزم الشاعر جمال حميد في قصائده بالشعر العمودي أو البيتي وينطلق من سجية صافية تؤثر الوضوح والإبانة وتنأى عن الغموض ومسالكه الملغزة التي ينتهجها البعض إما عن دراية وحنكة وإما تقليدًا وركوبًا للموجة! وخلفيته إسلامية تجمع في تناغم جميل بين التوجه الصوفي الذي عرفت به مدينة الشحر وبين تبني (الفكرة الإسلامية) التي تؤمن بدور إيجابي للإسلام في الحياة وفي إنقاذ الأمة والدفاع عنها ضد أمراض الداخل وهجمات ومؤامرات الخارج، وهي الفكرة التي كان يتبناها أمثال أديبنا الكبير الأستاذ علي أحمد باكثير. وهذا ما عرفته ليس من خلال شعره فقط ولكن أيضا من خلال حواراتي الشخصية معه في أكثر من مناسبة. ومواضيع الشاعر جمال تدور غالبا – ولا يعيبها هذا في شيء – حول الهم الديني والإصلاحي ورثاء الشخصيات الدينية والأدبية كمرثيته الأخيرة الجميلة في الشاعر عوض بن

فاتح رحمه الله، التي شاركتها على صفحتي في الفيسبوك. وإن خرج عن ذلك قليلا، فإلى مواضيع اجتماعية يلتقط فيها مظاهر محببة من الحياة في مدينة الشحر كقصيدته عن مصيف (الواسط) التي نُشرت في مجلة (الفكر)؛ أو على الأقل هذا ما يغلب على ظني من خلال ما اطلعت عليه من أشعار الأستاذ جمال، الذي له أيضا مشاركات جميلة في مساجلات الدان الشعبية، ولكن لم أطلع على قصائد شعبية أو عامية طويلة له[1] لا يستبعد أن يكون له منها نصيب. وأحسب أنه قد آن الأوان لأن يفكر الأخ جمال حميد بجدية في جمع أشعاره في ديوان يظهر إلى الناس، فهذه الأشعار جديرة بأن يطلع عليها المهتمون ومتذوقو الشعر.

كانت هذه مقدمة لما سأنقله الآن من مقاطع مختارة من قصيدتين للشاعر جمال حميد. القصيدة الأولى وجدتني أحتفظ بها في أرشيفي، وعندما سألت الأخ جمال عنها قال إنها سبق أن نشرت منذ فترة طويلة في مجلة (سعاد) التي يرأس تحريرها الأستاذ عمر خريص، والقصيدة تتحدث عن: "علاّمة الشحر الإمام الحبيب عبدالله بن عبدالرحمن بن الشيخ أبي بكر بن سالم رحمه الله تعالى". يقول الشاعر في بداية القصيدة:

قف في رباط المصطفى متذكرا من قام فيه معلما ومذكرا
وابدأ بمنشئه وباني صرحه من بالتقى والعلم شاد وعمّرا

وقال عن العلامة في موضع آخر:

من منهل الصدق ارتوى فنما به غصن من الإخلاص طاب وأزهرا
وعلى وسيم جبينه نور التقى وخشوع ذي نسك أضاء وأسفرا

(1) اطلعت بعد ذلك على قصائد عامية طويلة له لا تقل براعة وإجادة عن أشعاره الفصيحة.

أحلى الشمائل كللته بتاجها فغدا على عرش القلوب مؤمرا
من مثله نفع البلاد وأهلها لا يرتجي منهم جزاءً أو قِرى؟
شاد الرباط وشاد مسجد نورهم ليظل شرعُ الله فيهم نيّرا

أما القصيدة الثانية – وهي من بحر الكامل كالقصيدة السابقة – فقد نشرناها في مجلة الفكر في العدد رقم (27)، ثم أعدنا نشرها في العدد الممتاز رقم (43)، وهي بعنوان (هلال الربيع)، والمقصود بالربيع هنا شهر ربيع الأول، ذكرى مولد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم. ويقول حميد في بداية القصيدة:

أهلا هلال ربيعنا الوضّاءِ أشرق وعُمّ الكون بالأضواءِ
أهلا بمطلعك السعيد ومرحبا فلأنت أكرم طالع بسماءِ
إن القلوب إليك جد مشوقة شوق الظماء بقفرة للماءِ
بدد بنورك يا هلال ربيعنا ظُلَما من الأنكاد والأرزاءِ

ويقول في موضع آخر:

ما مثل أحمد مرسل من ربه وأغرّ جاء بشرعة غراءِ
نلنا بها في العالمين مكانة تسمو برفعتها على الجوزاءِ
آساسها التوحيد والعدل الذي بسواه يحيا الخلق في إشقاءِ
والعلم والإخلاص من لبناتها ومحاسن الأخلاق والآراءِ
كنا نسير إلى الأمام بسيرنا في نهجها وعدونا لوراءِ
كنا بها في عزة ومهابة نبني صروح الحق في الأرجاءِ
حتى ابتغينا العز في غير الذي قد جاءنا من أعظم العظماءِ
فأذلنا المولى وعدنا القهقرى نحسو كؤوس الذل والبأساءِ

وفي هذين البيتين الأخيرين إشارة واضحة إلى مقولة الفاروق سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه: "نحن قوم أعزنا الله بالإسلام، فمهما ابتغينا العزة

في غيره أذلنا الله.“

ونظرا للشعور الصادق لدى الشاعر بقضايا أمته تراه يذكر بحرقة وألم ممض القدس والمسجد الأقصى، كما يذكر بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية وما أصاب المدينتين الرمزين في هذا الزمن النكد من أهوال وأرزاء بسبب الاحتلال الغربي والصهيوني وبسبب تخاذل الحكام العرب والمسلمين.

وبعد أن يفصل في حال كل مدينة على حدة في ثنايا القصيدة الطويلة، يجمع بينهما في نهاية القصيدة قائلا:

بغـــداد يـــا دار الســـلام ومـــوطن الإســـلام والأعـــلام والصـــلحاءِ
بغـــداد يـــا أمـــلا لأقصـــانا هـــوى أعليـــه أبكـــي أم عليـــكِ بكـــائي؟
لـو كـان يجـدي بالـدماء بكاكمـا لـذرفت مـن قلبـي الحـزين دمـائي
ســيظل جرحكمــا بقلبــي نازفــا وبكـــل قلـــب نـــابض بوفـــاءِ

ثم يختم الشاعر جمال عبدالله حميد القصيدة كما بدأها بتوجيه الخطاب إلى هلال الربيع، فيقول:

هـــذي همـــومي يـــا هـــلال ربيعنـــا أبـــديتها مـــن شـــدة البرحـــاءِ
لكـــنّ لـــي ثقـــةً بنصـــر إلهنـــا لشـــعوب طـــه أكـــرم الشـــفعاءِ
لكـــن بـــرجعتهم إليـــه وصـــدقهم فـــي حبـــه والصـــدقُ دربُ نجـــاءِ
ومحبـــةِ المبعـــوث فينـــا رحمـــةً والإهتـــدا مـــن هديـــه بســـناءِ
صـــلّى عليـــه وآلـــه وصـــحابه ربُ الســـما مـــا مُـــدّ كـــفُ دعـــاءِ
أن يكشف المولى الخطوبَ وينجلي عـــن أمـــة المختـــار كـــلُ بـــلاءِ

آمين!

11 سبتمبر 2021م

الشاعر علي أحمد بارجاء

وقصيدته عن (دار السلام) الباكثيرية

الأستاذ علي أحمد بارجاء، الذي غادر دنيانا الفانية – رحمه الله – في السابع من شهر مارس من العام الماضي 2020م، أديب وشاعر وباحث حضرمي بارز من مدينة سيئون، التي ينتمي إليها علي أحمد باكثير. وقد كتب هذه القصيدة التي سأنقلها بعد قليل عن الأديب الكبير باكثير، أو بالأحرى عن (دار السلام)، منزل باكثير في سيئون، وتكلم طبعا في القصيدة عن ظروف وسبب كتابتها، وامتدح في الجزء الأخير من القصيدة الرئيس اليمني الراحل علي عبدالله صالح، وليس في هذا حرج على الشاعر ولا على المحتفي بالقصيدة الآن، فهي مكتوبة وفق حيثيات ومقتضيات الزمن الذي كتبت فيه، ولا بد أن لها أشباها كثيرة في النتاجات التي ظهرت في تلك الفترة، من أي نوع كانت!

وأنا أنشر القصيدة لكونها ذكرى غالية بقيت عندي من هذا الأخ العزيز والكاتب والأديب المتميز الذي جمعتني به لقاءات ليست قليلة في أماكن مختلفة من الرقعة اليمنية، ولا بد أنه عهد إليّ بقصيدته هذه في أحد تلك اللقاءات، ولعله لم يعد يحتفظ بنسخة منها كما أخبرني ابنه المبارك، عبدالرحمن، الذي لجأت إليه للحصول على معلومات عن والده، رحمه الله، فأفادني بذلك – جزاه الله خيرا – كما أرسل لي عددا من صور والده. وفي الدراسة أو البحث الذي كتبته عام 2002م بعنوان (إبداعنا الأدبي بين التوقف

المبكر والاستمرار المتعثر)، ذكرت علي أحمد بارجاء ضمن عدد من الشعراء الذين قلت إنه يغلب عليهم الالتزام بالأسلوب العمودي في كتابة الشعر. وقد صدر بعد ذلك أول ديوان لعلي بارجاء بعنوان (رواء) في عام 2004م، وقصائده كلها تفعيلية. ولكنني مع ذلك أظن أن بين أوراق الراحل العزيز عددا وافرا من القصائد العمودية التي تبحث عن فرصة للنشر. ومن مراجعتي السريعة لديوان الشاعر (رواء) الذي عثرت عليه بحوزتي والحمد لله، أستطيع القول إن الأستاذ علي بارجاء يمتلك مقدرة واضحة وكبيرة في كتابة اللونين من الشعر: العمودي، والتفعيلي.

علي أي حال لم يكن ما كتبته أعلاه إلا مقدمة بين يدي هذه القصيدة التي تحمل عنوان (دارَ السلامِ سلمتِ):

دارَ السلا مِ سلمتِ

نبـــأ ســـعيدٌ أنطـــق الشـــعراءَ ... فجرت قصائدهم تحاكي الماءَ
ســيظل يبــتهج الزمــان بــذكره ... ولسوف يترك في الورى الأصداءَ
ســيئون مـذ أصـغت إليـه تنفسـت ... بعـد اصـطبار دورُهـا الصـعداءَ
نظــرت إلــى دار الســلام فهالهــا ... مـن حالهـا تشـكو الأسـى والـداءَ
قـد أضـحت الغربـان تنعـق فوقهـا ... فتزيـــدها فـــوق العنـــاء عنـــاءَ
غـدرت بهـا رِيبُ الزمـان فأصبحت ... أثـــرا وكانـــت منبـــرا وضـــاءَ
كنـــا نمـــر أمامهـــا فنخالهـــا ... تهفـــو لنجـــدتنا صـــباح مســـاءَ
وتقـول: مـا هـذا الجفـاء أحبتـي؟ ... إنـــي أخـــاف بـــأن أصـــير هبـــاءَ
أيكـون إهمـالي جزائـي منكمـو؟ ... وكـــأنني أنـــا لـــم أكُ اســـتثناءَ
أتظــل ســيئون الطويلــة بعــد ذا ... أرضـــا يكـــرم أهلهـــا العظمـــاءَ؟
يكفيكمـو أن الأديـب اختـارني ... دارا ولـــم يختـــر ســـواي بنـــاءَ

فضممته ضم الرؤوم لطفلها ... ليطيل فيّ إقامةً وثواءَ
فرأى مغادرة البلاد لأنها ... لم تحتمل من مثله الآراءَ
وبكيت يوم وداعه ودعوت أن ... يرقى ويحمل في الفنون لواءَ
لكنه قد ظل بعد فراقه ... في كل ركن فيّ لي يتراءى
وكأنني ما زلت أسمع خطوه ... وأخاله لزيارتي قد جاءَ
وكأنني ما زلت أسمع صوته ... يلقي القصيدَ، يحدث الزملاءَ
هل بعد هذا الحب يسمع صرختي ... رجل همام أو يجيب نداءَ؟
أأباع ثم يزيلني من يشتري ... كيما يشيدُ عمارة شوهاءَ؟!
فأقول قد مات الوفاء ولم تعد ... إلا الدراهم تحكم الأحياءَ
ويضيع آخر ما يذكركم بمن ... قد فاق في إبداعه النظراءَ
ولخدمة الإسلام ظل مجاهدا ... بيراعه لم يحفَلِ الإغراءَ
دارَ السلام سلمتِ عامرةً على ... مر الزمان وروضة غناءَ
وتهيئي ليظل مجدك شامخا ... فينا ويملأ نورُك الأرجاءَ
فسترجعين كما عهدتك منبعا ... للفكر يمحو الليلة الظلماءَ
وسيلتقي الأدباء فيك فزغردي ... وتأنقي، زيدي البلاد بهاءَ
كوني لهم حضنا يُجمّع شملهم ... بعد الشتات فلا يرون شقاءَ
وسيرفل الإبداع فيك مُجدّدا ... مُتجددا مذ غاب عنك وناءَ
نم يا عليٌّ هانئا فقد انبرى ... ليصون دارك من رقى العلياءَ
رجل يقدر في الرجال جهودهم ... ويكرم الأدباء والعلماءَ
ما زال يدهشنا بحسن صنيعه ... كأب يحيط بعطفه الأبناءَ
فهو الرئيس وصانع المجد الذي ... جعل السعيدة ترتقي الجوزاءَ
في حكمة قاد البلاد لأنه ... الأوفى يبادل بالوفاء وفاءَ
فخرت به أرض السعيدة أنها ... – إذ أنجبته – تنجب الحكماءَ

قد كان قلدك الوسام فما اكتفى حُبـــا فثنّـــى الهمـــة القعســـاءَ
لينـــال دارُك بعـــد ذا تكريمَـــه ولنـــا يحقـــق فـــي النفـــوس رجـــاءَ
فإليـــه مـــن كـــل القلـــوب تحيـــةً وقـــد اســـتحق علـــى الـــدوام ثنـــاءَ
فكلاكمـــا فينـــا علـــيٌ قـــدره ومـــن العُـــلا مـــا وافـــق الأســـماءَ

10 سبتمبر 2021م

بكائيتان للأديبين القاصين الكيلاني وباوزير

في ديواني الثاني (الحبيبة والفارس) مرثيتان رثيت بهما أديبين كاتبي قصة هما الدكتور نجيب الكيلاني والأستاذ عبدالله سالم باوزير. كان عنوان مرثية الكيلاني: (الأديب الإسلامي نجيب الكيلاني) وقد كتبتها بعد مرور بضع سنوات على وفاته، وسبب كتابتها أنني تلقيت دعوة للاشتراك في مسابقة شعرية في المملكة العربية السعودية يختار الشاعر فيها شخصية إسلامية قديمة أو معاصرة للكتابة عنها. وكان عنوان مرثية باوزير: (أديب الحياة)، وكتبتها طبعاً بعد وفاته مباشرة وشاركت بها في حفل التأبين الذي أقيم في مبنى المدرسة الوسطى بالغيل. وقبل أن أمضي في الخاطرة المرتبطة بهذين الأديبين أود أن أقدم لكم نموذجاً من أبيات كل قصيدة.

أقول مخاطباً نجيب الكيلاني:

لله إبـــداع نســـجت بحنكـــة الفـــذ الأريـــب
أنتجت لم تستفت غير ضميرك الحر الرقيب
وعملت في دأب وفزت من اجتهادك بالنصيب
أسرعت كي تطوي المسافة قبل يطويك المغيب
كم قد تحديت الصعاب وسرت في صبر عجيب
وبكـــل ناحيـــة مـــن الإبـــداع قارنـــت النقيـــب
ترنو إلى (شوقي) وحاذيت المناكب من (نجيب)

وفي هذا البيت الأخير إشارة إلى أن نجيب الكيلاني كان روائيا وشاعرا

أيضا، فشوقي هو أمير الشعراء أحمد شوقي، ونجيب هو الروائي الكبير نجيب محفوظ. وأقول مخاطباً عبدالله سالم باوزير:

يا أديب الحياة نم بسلامٍ ... فلقد عشت عاملاً بناءَ
كم تجرعت في الحياة صعابا ... لم يزدك العناء إلا نقاءَ
ليس من مات فاستراح بميت ... إنما الموت أن نكون غثاءَ
تتداعى على حمانا الأعادي ... ونسام الأذى صباح مساءَ
ذاك أنا قد أوهنتنا الأماني ... فنسينا شيئاً يسمى الفداءَ
إنما الله لا يخيب مسعىً ... ربما منك نستمد عزاءَ

فالمصادفة وحدها هي التي جعلتني أجمع بين الرجلين في هذا الديوان وأن يكون كلاهما كاتب قصة. ولكنني جمعت بينهما عن قصد في مقالة لي نشرتها منذ مدة في مجلة (آفاق) عنوانها: (فن السيرة الذاتية بين نجيب الكيلاني وعبدالله سالم باوزير)، قارنت فيها بين قصتي حياتهما اللتين كتباها وأصدراها في كتابين من أمتع وأجمل ما يمكن أن يقرأ من السير الذاتية، وهما (لمحات من حياتي) لنجيب الكيلاني، و(أنا والحياة) لعبدالله سالم باوزير. وكان مما قلته في المقالة:

... "وهذه المقالة محاولة لعقد مقارنة بين السيرتين لا تهدف بالدرجة الأولى إلا إلى الاحتفاء بهذين الكاتبين الكبيرين اللذين نذرا حياتهما وأدبهما للانتصار للقيم النبيلة في حياة الإنسان ومحاربة مظاهر القبح والظلم والفساد في المجتمع وتعريتها والسخرية منها".

وكان الدكتور الكيلاني رحمه الله ممن يتبنون وينظّرون لدعوة (الأدب الإسلامي)، وقد روى في سيرته الذاتية المشار إليها أن نجيب محفوظ بعد حصوله على جائزة نوبل قال عنه: "إن نجيب الكيلاني من التيار الإسلامي

وهو منظر الأدب الإسلامي الآن". وأنا وإن كنت في فترة من الفترات قد تأثرت بهذه الفكرة إلا أنني الآن لا أرى مسوغاً للربط المباشر بين الأدب والإسلام كما في هذه التسمية. فلنترك روح الإسلام تسري بصورة طبيعية كنسغ الحياة في أعمال الكتاب الذين ينحازون إلى قيم الإسلام وتصوراته للكون والحياة بفطرتهم السليمة وبتربيتهم وثقافتهم، فهكذا كان باوزير، وهكذا كان علي أحمد باكثير وكثير غيرهما من الكتاب والأدباء الآخرين. إن الشخصية المسلمة كيان واحد متكامل ولا بد أن يشع تأثيرها في أي مكان توجد فيه في مختلف مناحي ومواقع الحياة ومنها الأدب والفن. ولكن علينا أيضاً ألا نعترض على من يؤمنون بفكرة أو نظرية الأدب الإسلامي في أن يدعوا إليها ويكتبوا عنها كما يشاؤون وأن ينتجوا لنا أدباً نتلقاه بعد ذلك نحن معشر القراء، ويحكم عليه النقاد، بوصفه أدبًا فقط!

13 أغسطس 2015م

الخَيّام ورُباعيّاتُه وترجماتُها

في مساء يوم الأربعاء 8 ديسمبر 2021م، سجلت معي قناة حضرموت حوارا، تركز على موضوع الترجمة، ضمن برنامج (حوارات ثقافية) الذي يقدمه ويدير الحوارات فيه الأخ الدكتور عبدالقادر علي باعيسى. كنت في صباح ذلك اليوم ضيفا وحيدا على صديقي الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي في منزله العامر بربوة خلف. والدكتور الجعيدي هو رئيس مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر، الذي يتبنى هذا البرنامج ويختار الشخصيات والمواضيع لحلقاته، التي بث منها حتى الآن عدد كبير مع شخصيات حضرمية ثقافية مختلفة. وقد قدم لي الأخ عبدالله دعوته الكريمة هذه نظرا للعلاقة الوثيقة التي تربطني به ورغبة منه في تسهيل الأمر عليّ – أنا المقيم في غيل باوزير– لكون استوديو القناة يقع في منطقة خلف أيضا، وقد وفر لي بذلك جوا جميلا وشحنني بطاقة إيجابية ساعدتني على الأداء الجيد – كما أظن – في الحوار، فجزى الله الصديق العزيز أبا محمد خير الجزاء .

لا أدري متى ستبث هذه الحلقة، ولكن وجدتها فرصة لأشير إلى ظروف تسجيلها في بداية هذا المقال، لأننا تطرقنا في الحوار إلى رباعيات الخيام وترجمتها من قبل الإنجليزي إدوارد فيتزجيرالد (1809– 1883) والشاعر أحمد رامي. طبعا عرفت جزءا من ترجمة رامي لرباعيات الخيام من خلال الأغنية التي عرفت بهذا الاسم، عندما لحن رياض السنباطي تلك الرباعيات المختارة وغنتها السيدة أم كلثوم. والرباعية الأولى في نصها الأصلي بترجمة أحمد رامي هي كما يلي:

سمعت صوتًا هاتفًا في السحر نادى من الحان غُفاة البشر
هبوا املؤوا كأس الطِّلا قبل أن تفعم كأسَ العمر كفُّ القدر

وطبعا عدلت أم كلثوم على الرباعية، أو عُدِّل لها، لكي تصبح:

سمعت صوتا هاتفا في السحر نادى من الغيب غفاة البشر
هبوا املؤوا كأس المنى قبل أن تملأ كأس العمر كف القدر

وهذه التعديلات التي طرأت بصوت أم كلثوم تعديلات جميلة وفي محلها. وقد فعل والدي، رحمه الله، شيئا مشابها عندما استشهد بإحدى الرباعيات اللاحقة في الأغنية في رسالة بعثها لي من مقر إقامته في جدة بالسعودية عندما كنت في البصرة في سياق النصيحة والتوجيه، إذ غير كلمة (لذّاته) إلى (خيراته)، لنفس السبب الذي عدلت من أجله الرباعية الأولى في الأغنية، وهو الهروب من إيحاءات الانغماس في حياة المجون واللهو والشراب. وهذه هي الرباعية الأصلية كما ترجمها رامي وغنتها أم كلثوم:

لا تشغل البال بماضي الزمان ولا بآتي العيش قبل الأوان
واغنم من الحاضر لذاتِه فليس في طبع الليالي الأمان

أما ترجمة فيتزجيرالد للرباعيات فهناك مصدران لمعرفتي المبكرة بها لا أتذكر بالضبط أيهما سبق الآخر. إذ كنت قد قرأت وأنا في العقد الثاني من عمري كتاب (حصاد الهشيم) للأديب إبراهيم عبدالقادر المازني وفيه مقال بعنوان (التصوف في الأدب) تناول فيه رباعيات الخيام وترجماتها، وأغلب الظن أن هذا هو المصدر الأول لمعرفتي بترجمة فيتزجيرالد. أما المصدر الثاني المتأخر فهو كتاب إنجليزي، اقتنيته وأنا طالب في الثانوية، يحمل هذا العنوان: The Rubaiyat of Omar Khayyam and other Persian Poems. ويضم، رغم صغر حجمه، مجموعة كبيرة من الأشعار الفارسية المختارة من كل

شعراء الفرس البارزين، وتتصدر هذه المختارات ترجمة فيتزجيرالد لرباعيات الخيام. ولكن الكتاب يورد نسختين من الترجمة تختلفان في الصياغة وفي عدد الرباعيات، أولاهما تحمل اسم (النسخة الأولى) وتاريخ 1859، والثانية تحمل اسم (النسخة الرابعة) وتاريخ 1879، وهذا يعني أن فيتزجيرالد ترجم الرباعيات غير مرة، ولا غرو أن العمل الأدبي الذي اشتهر به أكثر من غيره هو ترجمته (الحرة) هذه لرباعيات الخيام. وقد أخذت وصف (الحرة) من النبذة القصيرة التي وردت عن الشاعر في إنسكلوبيديا دار بنجوين (2003)، ومعروف أن الأديب الإنجليزي فيتزجيرالد تصرف إلى درجة كبيرة في ترجمته للرباعيات وأبدعها خلقا آخر، ويحسن بي أن أنقل العبارة بالإنجليزية كما وردت في دائرة المعارف المذكورة: He is best known for his free poetic translation of quatrains from the Rubaiyat of Omar Khayyam.

ويصف كتاب المختارات الشعرية الفارسية الإنجليزي الذي أشرت إليه قبل قليل ترجمة فيتزجيرالد للرباعيات بأنها عبارة عن إعادة صياغة paraphrase.

وقبل أن أذهب إلى ما قاله المازني في مقالته الجميلة عن الرباعيات وترجماتها، أود الإشارة إلى ما ورد عن هذا الموضوع في كتاب من مقتنياتي، هو كتاب (الترجمتان.. رباعيات الخيام) الذي أعده وقدمه الشيخ مصطفى صبحي الخضر. والمقصود بالترجمتين: ترجمة الشاعر أحمد الصافي النجفي، وترجمة الشاعر أحمد رامي، إذ يحتوي الكتاب على النص الكامل للترجمتين. ولكن اللافت أن معد الكتاب افتتح مقدمته للكتاب من أول كلمة بالحديث عن فيتزجيرالد، فقال:

"قام كاتب إنكليزي من بريدفيلك، سوفولك عام 1859 بتعريف الغرب على مآثر رجل مسلم مميز من القرن الثاني عشر. اسم الكاتب هو إدوارد

فيتزجيرالد، الذي نجحت ترجمته لرباعيات الخيام في أن تتغلغل في الثقافة الإنجليزية بفعل جاذبيتها لدرجة أن عناصر منها أصبحت تعتبر اليوم من قبل البعض وكأنها إنجليزية أصيلة".

وقال في فقرة أخرى: "اعتبر بعض النقاد أن إدوارد فيتزجيرالد من أهم الشعراء الإنجليز في القرن التاسع عشر، ليس لأنه كتب شعرا، وإنما لأنه ترجم رباعيات الخيام بلغة شعرية عالية، توازي اللغة الشعرية الفخمة في الشعر الكلاسيكي الإنجليزي في العصر الفيكتوري وما قبله".

قبل ذهابي إلى تسجيل حلقة (حوارات ثقافية) وفي إطار التحضير لها، بحثت عن كتاب (حصاد الهشيم) للمازني في مكتبتي ظنا مني أنني اقتنيته ذات هِزة حنين إلى القراءات القديمة، فلم أجد إلا كتابه (قبض الريح)، والعنوانان كلاهما يعبران عن الروح الساخرة لدى الأستاذ المازني، وربما عن شعوره بعبثية الحياة أو بعبثية ما نقول وما نكتب! ولكنني لجأت إلى المكتبة الإلكترونية التي أتحفني بها منذ مدة صديق عزيز شاب مثقف سيعرف نفسه عندما يقرأ هذه الكلمات، فوجدت (حصاد الهشيم) ضمنها. ونظرا لمحدودية مدة البرنامج ووجود محاور كثيرة للحديث عنها لم أتحدث باستفاضة عن رباعيات الخيام وفيتزجيرالد، ولذلك فكرت في كتابة هذه المقالة التعويضية!

بدأ المازني مقالته بمناقشة فلسفة التصوف في الفكر الإنساني بشكل عام ثم خلُص إلى الحديث عن الصوفية الفارسية فوصفها بأنها: "أقل حدة، وهي ألطف وأرق، والصيغة الأدبية فيها أعم". وبعد ذلك انتقل إلى المقارنة بين ترجمة فيتزجيرالد الإنجليزية للرباعيات وترجمتين عربيتين هما ترجمة أحمد حامد الصراف النثرية، وترجمة أحمد رامي الشعرية، وفي هذا السياق أورد

نماذج من الرباعيات لكل واحد من هؤلاء الثلاثة، وبالنسبة لترجمة فيتزجيرالد أورد النص الإنجليزي وإلى جانبه أورد ترجمته هو لهذا النص الإنجليزي شعرا موزونا مقفى جميلا، ومعروف أن المازني شاعر مقتدر له إنتاج منشور، لكنه هجر الشعر بعد ذلك واتجه إلى كتابة الرواية والمقالة، هذه التي لعلي أقتفي أثره فيها، من بعض الوجوه، وأنا أكتب مقالاتي الآن. ولنستمع الآن إلى الجزء الذي تكلم فيه المازني عن الرباعية التي أوردناها في بداية المقالة وهي أول رباعية في أغنية أم كلثوم:

"ومن أمثلة تصرفه الحسن – يقصد فيتزجيرالد– أنه نقل قول الخيام :

(سمعت صوتا هاتفا في السحر من حانتنا يقول: إيه يا أخا الشراب المفتون، قم لنملأ الكأس بالخمر قبل أن يملأوا كأسنا)

وقد نظمها رامي في هذه الرباعية:

سمعت صوتًا هاتفًا في السحر نادى من الحان غُفاة البشر
هبوا املؤوا كأس الطِّلا قبل أن تفعم كأسَ العمر كفُّ القدر

فنقحها وجعلها هكذا (من ترجمة المازني عن فيتزجيرالد):

بينما أحلم والفجر رطيب طرق السمعَ من الحان مُهيب
كأسَكم من قبل أن تؤذنكم كأسُ محياكم بمحتوم النضوب

Dreaming when dawn's left hand was in the sky
I heard a voice within the tavern cry
"Awake my little ones, and fill the cup
Before life's liquor in its cup be dry"

ولا شك في أن نضوب الحياة أشبه بمعنى الموت من امتلاء كأسها".

وأستميح القارئ عذرا أن أنقل عن المازني اقتباسا آخر يلخص نظرته برمتها التي استفاض في شرحها في مقالته الطويلة:

"والخيام في رباعيات الصاحبين – يقصد الصراف ورامي– سكير ظريف، وأنيس حصيف، وجليس خفيف، وذكر الموت على لسانه معسول لا يفزع، والكلام على القضاء والقدر لا تحس أنه يدور على غير اللسان.. ولكن الأمر في رباعيات فيتزجيرالد غير ذلك، والحال على خلافه.. هناك الخمر ملجأ من مخوف الهواجس ومرعب الخواطر، وحمى من الجنون الذي أحسه وهو يواجه عالم الفناء اللانهائي، أو (اللاشيء) الذي هو مآل الأحياء فيما هداه تفكيره، ولسخره لذعة تحس أنت أنه هو أحسها، ولعبثه المتكلف كيّ أليم، وهو يضعك أمام ما انتهى إليه من الحقائق المرة.. ولعل فضل فيتزجيرالد أنه أضاف إلى الخيام روح الاتزان، فتعادلت المرارة والتهكم، وتكافأ الهم والاستخفاف، ونضح على كآبة النفس ماء الورد، وأطلق إلى جانب الفزع ضحكة، ليعتدل الميزان.

ونقول بإيجاز إن الخمر في رباعيات الصاحبين هي الأصل، ولكنها في رباعيات فيتزجيرالد هي النوط الذي يعلق عليه الشاعر آراءه. ولعل الخيام لم يكن كذلك، ولكنه هكذا أحلى وأشعر، ولا ذنب للشاعر رامي ولا للأستاذ الصراف، وإنما الذنب للأصل، وهما خليقان بالشكر على أمانتهما، غير أنا نستأذنهما في أن نقول إننا نؤثر تصرف فيتزجيرالد".

وكلمة الأمانة التي جاءت على لسان المازني تجعلني أستحضر مقولة "المترجم خائن" الإيطالية. وبصرف النظر عن الترجمة الحرة للرباعيات التي قام بها فيتزجيرالد والترجمة الدقيقة (للصاحبين) – إن كانت دقيقة فعلا – فإن الأمانة بمعنى النقل الذي يتحرى الدقة المبالغ فيها ليست أمرا محبذا في

الترجمة الجيدة، فلا بد في الترجمة أن يكون هناك نوع من الخيانة الإيجابية، إن جاز التعبير، بمعنى أنك تعيد خلق وصياغة النص من جديد وتبث فيه روح اللغة المترجم إليها، وهذه هي الأمانة الحقيقية. لكن ما فعله فيتزجيرالد ربما تجاوز كل الحدود فأنتج لنا خياما آخر أحلى وأشعر، كما قال المازني، وهذا – في رأيي– يجوز في ترجمة الشعر ولا يجوز في ترجمة غيره من ألوان الأدب، ويبقى النص الجديد على ذمة صاحبه! ولعلنا نتكئ هنا على ما قاله الفيلسوف والأديب الفرنسي سارتر من أن الشعر مثل الموسيقى والرسم، بمعنى أنه، حسب فهمي لهذه المقولة، شيء يُحَس أكثر مما (يُفهم) أو أن يكون له (معنى)!

23 ديسمبر 2021م

أطلال ناجي وأطلال أم كلثوم

هوامش على دفتر الشعر

كتب الدكتور محمد الجوادي المؤرخ والعالم المصري وأستاذ الطب في صفحته الرسمية ما يلي:

"الدكتور إبراهيم محمد نجا (النحوي) عالم ولغوي أكاديمي كبير، ومن الطريف أن اسمه الثلاثي يشتبه بل يتحد مع شاعر غنائي معروف هو الشاعر إبراهيم محمد نجا، وهو معاصر له، وهو أيضا من خريجي كلية اللغة العربية، وقد واصل دراساته العليا فيها، لكنه لم يحصل على الدكتوراه ولا الأستاذية، ولم يعمل في هيئة التدريس. كان الدكتور إبراهيم محمد نجا علما وعالما من علماء اللغة الأزهريين المحدثين، عني بعلم اللغة وبدراسة الأنساق الفكرية في التفكير النحوي العربي من منطلق المعطيات العلمية والفلسفية التي أتاحها علم فقه اللغة".

وهذه الإشارة إلى تطابق اسم الدكتور نجا النحوي مع الشاعر إبراهيم محمد نجا جعلتني أتذكر أنني كنت قد سجلت في الدفتر الذي أجمع فيه الأشعار التي تعجبني، وأنا بعد طالب في المرحلتين الوسطى والثانوية، قصيدة لإبراهيم محمد نجا عنوانها (أم كلثوم). لم تكن عندي أي معلومات عن الشاعر إبراهيم محمد نجا، ومن المؤسف أنه لم يكن مشهورا فيما يبدو، على الرغم من أنه شاعر مُجيد. ويبدو أنني نقلت قصيدته عن أم كلثوم من إحدى المجلات أو الصحف، ولعلها من أواخر قصائده، لأنه يشير فيها إلى الجولة التي قامت بها أم

كلثوم وأحيت حفلات لدعم المجهود الحربي بعد نكسة 67م، وشملت هذه الجولة مدينة باريس العاصمة الفرنسية، إذ يقول في المقطع الأخير من القصيدة:

كنت في باريس فنا مشرقا شاعري الروح سحري الرواء
كنت في باريس شعرا ساحرا يعجز الشعر ويعيي الشعراء
عربي القول لكن نبضه مشرق الإيحاء وضاء الخفاء

ويبدو أن من الأشياء التي جذبتني إلى القصيدة هذه القافية الهادئة، قافية الهمزة الساكنة بعد الألف. وهذه هي الأبيات الأولى من قصيدة (أم كلثوم):

أسعدي الأرض بأنغام السماء واسكبي في قلبها سحر الغناء
واصعدي بالروح في أفق السنا واسبحي بالقلب في دنيا الرجاء
وانشري فينا أغاريد المنى وهي حب وسلام وصفاء
إنما أنت ضياء باهر لست مثل الناس من طين وماء
كوكبَ الشرق لكم أسعدته بلياليك النديّات الوضاء
فرأى الدنيا ربيعا مشرقا حين غطى نورَها ليل الشتاء

هذه القافية التي تتكون من الألف الممدودة والهمزة الساكنة تقترن في مخيلتي بالقافية الأخرى التي تتكون من الألف المقصورة التي استعملها ابن دريد في مقصورته الشهيرة، ومن أبياتها هذا البيت الذي كان والدي رحمه الله يستشهد به، وفيه يخاطب الشاعر الدهر:

مارستَ من لو هوت الأفلاك من جوانب الجو عليه ما شكا

وأنا أعزو إعجابي أو ارتياحي لهاتين القافيتين– وبالذات قافية الألف والهمزة الساكنة– إلى خفوت صوت الروي الذي يختلف عن حروف الروي ذات الصوت الواضح البارز وهي كل حروف اللغة العربية بما فيها الهمزة

المتحركة. وهذا يشعرني بأن الشاعر يستعمل (رويًّا) لقصيدته كل الحروف فيكسر بذلك رتابة الصوت الواحد الذي رسخ في الأذهان أنه – مع الوزن – هو فقط الشعر، ولذلك فدواوين الشعراء تكاد تخلو من هذين اللونين من القافية. وقد كنت أتمنى لو نظمت قصيدة على هذا المنوال ولكن هذا لم يحدث، وليس لهذا من سبب فيما أرى إلا الانقياد الأعمى لسلطان (الرنين) عند من يكتبون الشعر منا نحن معشر العرب.

ولقد عدت إلى شبكة الإنترنت فأسعفتني بصورة باهتة للشاعر إبراهيم محمد نجا تُبين عن وسامته، رحمه الله، ومعلومات وافية عنه منها أنه ولد في دمنهور في عام 1919م وأنه أعير للتدريس في العراق لبضع سنوات، وأنه أصدر ثلاثة دواوين شعرية وصدر له ديوان رابع بعد وفاته وأن له عدة دواوين شعرية لم تطبع بعد. وكان قد بدأ في إعداد رسالة دكتوراه موضوعها (العقاد الشاعر) لكنه لم يكملها مع الأسف ولم يحصل على الدرجة لأن الموت اخترمه في عام 1969م. وتقول النبذة التي في الإنترنت عنه إن بعض قصائده غناها كبار المطربين مثل عبدالحليم حافظ ورياض السنباطي وعبدالغني السيد. ولذلك وصفه الدكتور الجوادي بالشاعر الغنائي. وقد عثرت له في الإنترنت على قصيدة رائعة ذات نفس إسلامي بعنوان (يوم بدر)، نشرت في عام 1965 بمجلة (الوعي الإسلامي) عندما كان الشاعر يعمل مدرسا في العراق. وقد نشرت هذه القصيدة على صفحتي في الفيسبوك بتاريخ 2 فبراير 2021م، وألقيتها كاملة في الأمسية التي نظمها الصديق العزيز الشيخ خالد بن عبدالله بامخرمة، في بيته بغيل باوزير بتاريخ 5 فبراير 2021م. ونظرا لطول القصيدة فإنني سأستل منها مقاطع معينة وأرتبها متتابعة وكأنها قصيدة جديدة لكي أنشرها في نهاية هذا المقال. وأنا بهذا الصنيع أقتفي أثر والدي الذي فعل الشيء نفسه مع قصيدتين للشاعر العراقي الرصافي، وكان الهدف من ذلك أن أُلقي القصيدتين – كلا

منهما على حدة طبعا – في بعض المناسبات الوطنية عندما كنت طالبا صغيرا في حقبة الستينيات. وعندما اطلعت بعد ذلك على النص الكامل للقصيدتين وجدت أن والدي رحمه الله قد حذف من إحدى القصيدتين، وعنوانها (الوطن والجهاد)، أبياتا تتعلق بأحداث وقتية أو بأقطار عربية معينة كمصر والعراق فجعل القصيدة عامة لا ترتبط بزمان ولا بمكان وتعبر عن لسان حال العرب والمسلمين في كل بلدانهم وعن الموقف المبدئي الصحيح الذي يجب أن يتخذوه تجاه أعدائهم التاريخيين في كل زمان. وأما القصيدة الثانية، وعنوانها (حكومة الانتداب)، فقد حذف منها الأبيات التي جاءت في نهايتها وكانت تغلب عليها النثرية والابتذال. والحال أنك عندما تقرأ القصيدتين المختصرتين تشعر فيهما بالانسيابية والترابط والانسجام وحسن الختام، الذي هو غير الختام في النصين الأصليين. وقد أثبتُّ هاتين الصيغتين الجديدتين لقصيدتي الرصافي في نفس الدفتر الذي أثبتُّ فيه قصيدة (أم كلثوم) للشاعر إبراهيم محمد نجا.

وهذا الذي قلته عن قصيدتي الرصافي يكاد ينطبق على شعوري تجاه القصائد التي تُستلّ من قصائد أطول لبعض الشعراء لكي يغنيها المطربون والمطربات، إذ أشعر أن الصيغة الجديدة المغناة هي الصيغة المثلى وأن المقاطع الأخرى فيها نُبوّ وسُقم يشعرني بشيء من الامتعاض عندما أقرأها. وأكتفي أن أضرب مثلا لهذه الحالة بقصيدة (الأطلال) لإبراهيم ناجي، فقد غنت السيدة أم كلثوم مقاطع قليلة من هذه القصيدة الطويلة اختارها – كما أظن– الشاعر الأستاذ صالح جودت، وحتى هذه المقاطع أدخلت عليها تعديلات طفيفة، ومثال ذلك التعديل الذي أدخل على مطلع القصيدة نفسه، فبدلا من عبارة "رحم الله الهوى" وضعت عبارة "لا تسل أين الهوى"، التي تخدم انسيابية اللحن والغناء، فأصبح البيت كما يلي:

يا فؤادي لا تسل أين الهوى كان صرحا من خيال فهوى

فقد تعودت أسماعنا وطربت للانتقال السلس من مقطع إلى مقطع من المقاطع الجميلة المنتقاة بعناية وبراعة التي غنتها أم كلثوم، وأصبحنا ننفر من أي مقاطع أخرى في القصيدة ونعدها حشوًا لا معنى له. وهناك شيء طريف آخر يتعلق بهذه الأغنية يسرّني أن أسوقه ضمن هذه الخواطر، فقد نبهني الإعلامي الكبير الأستاذ عارف حجاوي في إحدى حلقات برنامجه الممتع (سيداتي سادتي) على قناة (العربي) إلى أن قافية أحد المقاطع الشهيرة في الأغنية هي في الأصل الذي كتبه ناجي قافية مقيدة أي ساكنة، ولكن اللحن اقتضى تغييرها إلى قافية غير مقيدة فأصبحت الصيغة الجديدة أجمل وقعا واستحسنها عارف حجاوي، ونحن نؤيده في ذلك، لأن إدخال الألف على الروي (الياء) لكي تمد أم كلثوم آخر الكلمة بصوتها العظيم خدم المعنى الذي تعبر عنه الأبيات وهو الرغبة في الانطلاق والتحرر. وسأورد هنا المقطع الأصلي للقصيدة الذي ينتهي ببيت رابع حذف من الغناء لأن الياء فيه، نحويًا، في محل جر، ولأنه أيضا بيت سقيم كما أرى:

أعطني حريتي أطلق يديّ ... إنني أعطيت ما استبقيت شيّ
آه من قيدك أدمى معصمي ... لِمَ أبقيه وما أبقى عليّ؟
ما احتفاظي بعهود لم تصنها؟ ... وإلام الأسرُ والدنيا لديّ؟
ها أنا جفت دموعي فاعف عنها ... إنها قبلك لم تبذل لحيّ

ومعروف أن القوافي أصبحت بصوت أم كلثوم: يديّا، شيّا، عليّا، لديّا. ومن عجيب المصادفات أن أغنية (الأطلال) تنتهي بمقطع من نفس وزن قصيدة إبراهيم محمد نجا في مديح أم كلثوم، ومن نفس القافية التي امتدحتها، وقد طرأ تعديل إلى الأفضل في البيت الأخير، فبدلا من عبارة "وقل لي الحظ شاء"، وضعت عبارة "فإن الحظ شاء". يقول إبراهيم ناجي:

يا حبيبي كل شيء بقضاء ما بأيدينا خلقنا تعساء
ربما تجمعنا أقدارنا ذات يوم بعدما عز اللقاء
فإذا أنكر خل خله وتلاقينا لقاء الغرباء
ومضى كل إلى غايته لا تقل شئنا فإن الحظ شاء

ودعونا الآن نبقى مع الصيغة المختصرة من قصيدة (يوم بدر) للشاعر إبراهيم محمد نجا رحمه الله رحمة الأبرار:

سوف تبقى على مدى الأيام
شِرعةُ الخير شِرعةَ الإسلام
فهي بعث من البِلى وشفاء
لصدور مليئة بالسقام
وهدى يمحق الضلال ونور
سرمدي يشق قلب الظلام
وصعود إلى العلا وسمو
عن حياة الشرور والآثام

* * *

يا رعاك التاريخ يا يوم بدر
أنت في الدهر غرةُ الأيام
أنت معنى الكفاح في الحق لا في
باطل زينوه بالأوهام
أنت بدر وافى الظلامَ فولّت
من سناه كتائب الإظلام
فيك أصغى الزمانُ والتفت
الدّهرُ إلى ساحةِ الوغَى والصّدامِ

حيث جند الضلال قد جاء يبغي
نصرة الشرك بالقنا والسهام
والنبي الكريم بين صحاب
كل فرد كالصارم الصمصام
لم يروا في الحياة إلا حطاما
فاشتروا دينهم بهذا الحطام

* * *

هُدَّ ركنُ الضّلالِ وانصَدعَ
الشِّركُ وباءتْ فلولُهُ بانهزامِ
واستفاضَ الرّشادُ وانقشعَ
البغْيُ ودالتْ عبادةُ الأصنامِ
واستقام الإسلام حصنا قويا
ثابت الركن مستقر الدعام
ومضَى يفتحُ الممالكَ باسم
اللهِ لا باسمِ سُلطةٍ وانتقامِ
أينما سار فالحياة رخاءٌ
في سلام وعزة في وئام
يا لقومي.. لقد تغير قومي
ورماهم زمانهم باصطلام
غيروا قوة بضعف وعزا
بهوان وصحة بسقام
واسْتعَزُّوا بغيرِهم فقضَى
الغيرُ عليهم بالعَسْفِ والإرغامِ

ورمـــــاهم مـــــن شـــــره بـــــدواهٍ
قـــــاتلات.. شُـــــلت يمـــــين الرامـــــي
فأقـــــاموا علـــــى الهـــــوان وســـــاروا
فـــــي طريـــــق الحيـــــاة كالأيتـــــام
* * *
أيـــن مجـــد الإســـلام ضـــخما عريضـــا؟
أيـــــن بنيانـــــه المتـــــين الســـــامي؟
لا تقولـــوا مضـــى إلـــى غيـــر رُجعـــى
لا ولا تســـــمعوا لقـــــول النيـــــام
واســـــتعيدوه مثلمـــــا كـــــان صـــــرحًا
مُحكَـــــم الخلـــــق أيّمـــــا إحكـــــام
أتريـــــدون عـــــزكم بـــــالتمني؟
أتريـــــدون مجـــــدكم بـــــالكلام؟
تعِســـــتْ أُمّـــــةٌ تُحـــــاولُ بـــــالقَولِ
بُلـــــوغَ المُنَـــــى ونَيـــــلَ المَـــــرامِ
إنمـــــا منطـــــق الضـــــعيف ضـــــعيف
وكـــــلام القـــــوي حـــــدّ الحســـــام
فـاتركوا الضـعف وارفعـوا الـذل عـنكم
واهجـــــروا اليـــــوم مضـــــجع النُـــــوّام
واعملـــــوا إنمـــــا الحيـــــاة كفـــــاح
وجهـــــاد فـــــي ســـــاحة الأيـــــام
وامســـــحوا عـــــنكم الفتـــــور وبثـــــوا
فـــي النفـــوس القـــوى وفـــي الأجســـام

سـوف نبنـي صـرح السـلام مكينـا
مسـتقرا والويـل للهـدّام
سـوف نحمـي الأخـلاق مـن نـزوة
الشَـرِّ وبغْـيِ الهـوَى وجهـلِ الطّغـامِ
ونضـم القلـوب بعـد انفصـام
ونلـم الصـفوف بعـد انقسـام
ولنـا الـدين غايـة وطريـق
وإمـام أنعـم بـه مـن إمـام
ولنـا الله ناصـر ومعـين
وهـو نعـم النصـير نعـم الحـامي

27 نوفمبر 2021م

ذكريات عن مصطفى محمود

في حلقة من حلقات البرنامج الأسبوعي الذي أتابعه على اليوتيوب، تكلم معد ومقدم البرنامج عن الدكتور مصطفى محمود الطبيب والعالم والأديب والصحفي وصاحب البرنامج التلفزيوني الشهير (العلم والإيمان)، رحمه الله رحمة واسعة، فأغراني ذلك بأن أكتب هذه الخواطر عن الدكتور مصطفى محمود.

كان مصطفى محمود من الأسماء الأدبية المعروفة في ستينيات القرن العشرين الماضي عندما بدأت أتعلق بالقراءة في الكتب والمجلات، وأتتبع بشكل خاص المواضيع والمقالات الأدبية والفنية. كان اسم مصطفى محمود يتردد في الصحافة وكان يشدني أسلوبه الرائع والجميل في الكتابة. وقد تحدث مقدم البرنامج عن المرحلة التي كان مصطفى محمود يكتب فيها في مجلة (روز اليوسف) التي كان يرأس تحريرها في تلك الفترة الصحفي والروائي الشهير إحسان عبدالقدوس. وكانت هذه المجلة رائجة ومقروءة على نطاق واسع آنذاك، وكان والدي رحمه الله مواظبا على قراءتها حتى إنه عنون موضوعا جانبيا في أحد مقالاته في صحيفة (الطليعة) الحضرمية بعنوان (لا شيء يهم)، وهو عنوان إحدى روايات إحسان عبدالقدوس التي كان ينشرها في (روز اليوسف)، ولا بد أنها تحولت إلى فيلم سينمائي كمعظم روايات إحسان. ولشدة ارتباط هذه الروايات والقصص بالوسط السينمائي، سميت إحدى الممثلات المعروفات باسم إحدى بطلات قصص إحسان وهي الفنانة (نادية لطفي)!

أتذكر من الأعمدة التي كان مصطفى محمود يكتبها في (روز اليوسف) عمودا كان يتناول فيه أسبوعيا أحد الفنانين أو الفنانات وخاصة

المطربين منهم. فكان يتحدث عن صوت هذا المطرب أو المطربة بأسلوب غاية في الإمتاع والجمال. وقريبا من هذه الفترة ولعله في أواخر الستينيات أو أوائل السبعينيات نشرت مؤسسة روز اليوسف كتابا لمصطفى محمود عنوانه (اعترافات عشاق). استخرجته الآن من مكتبتي وبحثت جاهدا عن تاريخ إصدار هذا الكتاب ولكن دون جدوى. فالكتاب يخلو من ذكر سنة الإصدار. وهذا كما أظن من عيوب النشر والناشرين. اقتنيت هذا الكتاب من المكتبة الوطنية بالمكلا لصاحبها الشيخ أحمد سعيد حداد. رحمه الله. الذي كان يضع ختم المكتبة وعليه رقم صندوق البريد على كل الكتب والمجلات والصحف التي كان يوزعها. وعلى الغلاف الخلفي للكتاب أسماء عدد من الكتب التي كانت قد صدرت لمصطفى محمود. وعلى رأس القائمة كتاب (الله والإنسان). مما يوحي بأنه أول كتاب يؤلفه وينشره. وهو الكتاب الذي يُذكَر دائما لإثبات أن مصطفى محمود كان بعيدا عن الدين. قبل أن يحدث التحول الكبير في حياته من الشك إلى الإيمان. كما جاء في عنوان أحد كتبه.

علمت من الحلقة اليوتيوبية التي خصصها صاحب البرنامج للدكتور مصطفى محمود أنه بدأ في إعداد وبث برنامجه التلفزيوني (العلم والإيمان) في عام ١٩٧١م. أي في بداية عهد الرئيس السادات وأنه أنجز من هذا البرنامج أربعمائة حلقة قبل أن يتوقف في أواخر التسعينيات بعد ثمانية وعشرين سنة متواصلة. كان هذا برنامجا مفيدا وممتعا وكانت طريقة مصطفى محمود في التقديم والحديث طريقة جذابة ومشوقة. وكانت طلته رحمه الله مشرقة ومحببة. وكان حديثه لا يخلو من الظرف والنكتة في خضم الحقائق العلمية التي كان يعرضها وكان يتكلم بأسلوب لعله يمزج بين الفصحى الشائعة والعامية المصرية. أتذكر أنني رأيت هذا البرنامج بصورة متقطعة في أكثر من مدينة عربية من المدن التي زرتها. فقد انتشر في كل التلفزيونات العربية.

ولكن أحب وأحن الذكريات التي شاهدته فيها عندما كان البرنامج يبث من تلفزيون المملكة العربية السعودية في مدينة جدة وأكون جالسا عند والدي في منزل الشيخ محمد عوض بن طاهر باوزير، رحمهما الله، فنشاهده معا ويعلق والدي أحيانا على شيء من أسلوب مصطفى محمود في الحديث الذي تصاحبه ابتسامته الهادئة، عندما تكون هناك طرفة مثلا أو دعابة في أثناء الحديث.

كان مصطفى محمود كاتب قصة وروائيا إلى جانب كتاباته الفكرية الأخرى المتنوعة وأظن أن بعض أعماله تحولت إلى أفلام سينمائية، وكان بهذا زميلا وصديقا للأدباء والفنانين، ولكن من أشهر صداقاته الصداقة التي ربطته بالفنان الأستاذ محمد عبدالوهاب، وقد تطرق إليها صاحب البرنامج. واللافت أنه انتشر مؤخرا في وسائل التواصل مقطع صوتي لمصطفى محمود، استمعت إليه بالمصادفة، يتحدث فيه عن صديقه عبدالوهاب وكيف كان يكلمه عن الآخرة والحساب وأنه في مثل ذلك الموقف ما جدوى الأغاني التي يلحنها أو يغنيها، وما جدوى الأهداف التي يحرزها لاعب كرة القدم مثلا مهما كانت روعة تلك الأغاني والأهداف ومهما كان عددها. ويقول مصطفى محمود في التسجيل إن عبدالوهاب عندما كان يسمع منه هذا الكلام كان ينخرط في البكاء. وبمناسبة هذا السياق، أتذكر أنني سمعت أو قرأت للأديب السوداني الكبير الطيب صالح كلاما يشبه هذا حول جدوى العمر الذي يضيع أو الذي ضاع فعلا في اهتمامات مختلفة لا تساوي شيئا أمام الانشغال بالدين أو الاستعداد لليوم الآخر!

ومن الشخصيات التي كان مصطفى محمود على صلة بهم وربطته بهم الزمالة والصداقة الأدباء الروائيون مثل نجيب محفوظ. وقد كنت أقرأ في كتاب (صفحات من مذكرات نجيب محفوظ) الذي كتبه الناقد رجاء النقاش على لسان نجيب محفوظ على ضوء الحوارات التي أجراها معه،

فاستوقفتني عبارة في الكتاب عندما جاءت عرضا (سيرة) مصطفى محمود. كان نجيب محفوظ يتحدث عن أصدقائه من الأدباء والمثقفين الذين يرتادون جلساته أو ندواته التي كانت تعقد في المقهي وذكر صلاح جاهين وكيف أنه انقطع عن الحضور بعد زواجه الثاني ثم قال: "... كما انقطع الدكتور مصطفى محمود بعد أن دخل في دور (الدروشة)!" والمقصود بذلك المرحلة التي اتجه فيها مصطفى محمود إلى التدين وبنى المسجد المعروف باسمه في القاهرة وفتح بعض المشاريع التي تساهم في مساعدة وعلاج الفقراء والمعوزين. ولا شك أن كل إنسان حر في ما يعتقده ونحن نحترم كل الأدباء الكبار ونقدر أعمالهم وإنجازاتهم بصرف النظر عن مواقفهم الشخصية من كثير من القضايا!

9 أبريل 2021م

الجزء الثاني

حياة في الكتابة

فن المقالة في حياتي

لعله ليس سرا أنني أنتمي إلى أسرة عرفت بالثقافة والصحافة وممارسة مهنة – أو هواية – الكتابة. كان اثنان من أفراد هذه الأسرة، وهما أبي سعيد عوض وعمي أحمد عوض، كاتبين وصحفيين بالمعنى الحقيقي للكلمة، وهما اللذان قامت على أكتافهما صحيفة (الطليعة) الحضرمية الرائدة منذ أواخر خمسينيات القرن العشرين الماضي. نشأت أنا وبدأت أتعرف على عالم الكتاب والصحيفة والقراءة بشكل عام في الوقت الذي بدأت تصدر فيه صحيفة (الطليعة) وأنا ما أزال في المرحلة الابتدائية. وقبل (الطليعة) كان بيتنا الأصلي– بيت جدي عوض– في الغيل القديمة لا يكاد يخلو من الصحف والمجلات ابتداء من مجلة الأطفال (سندباد) إلى مجلة (المصوّر) و(روز اليوسف) وغيرها، بل أذكر أنه كانت تصل إلى والدي بعض الإصدارات الصحفية المبتدئة من دولة الكويت من أصدقائه الشباب الذين كانوا قد هاجروا إلى هناك طلبا للرزق مثل الأخ سالم سعد بن حصين حفظه الله والأخ أحمد سالم باحميش رحمه الله، ومع هذه الإصدارات كانت تصلنا أحيانا تسجيلات جميلة لبعض الأغاني الكويتية الحديثة، وأتذكر جيدًا منها أغاني الفنان شادي الخليج المبكرة مثل (ليش ليش يا خاين ليش؟) و(أحبه حبيبي).

لا أذكر أنني كنت أقرأ مقالات والدي في (الطليعة) أو افتتاحيات رئيس التحرير أحمد عوض باوزير حتى بعد أن كبرت قليلا، لا أدري لماذا، أو ربما قرأت شيئا من مقالات (عصام) عرضًا، وكنت أعرف بالتأكيد أن هذا هو الاسم المستعار الذي كان والدي يوقع به مقالاته في باب (من

الخميس إلى الخميس). هل كنت أراها أكبر من مستواي؟ هل أن مواضيعها لم تكن تثير اهتمامي وأنا في تلك السن؟ هل هو أثر من الاتجاه العام أن زامر الحي لا يطرب، فما بالك إذا لم يكن زامر الحي وإنما زامر البيت نفسه؟! ففي نفس تلك الفترة تقريبا كانت تشدني مقالات مجلة (الحوادث) اللبنانية وأحرص على قراءتها ومعظمها كانت مقالات سياسية، طبعا، تميل بقوة إلى الخط الناصري. حينها لم يكن يخطر ببالنا أن ولاءات الصحافة ربما تكون مدفوعة الثمن، كما أننا صغارا وكبارا كنا نأخذ سياسات عبدالناصر ومواقفه على أنها من المسلمات التي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها، وحتى لو كان هناك شيء من ذلك في تلك الأيام فإنه لم يكن بالشكل الفج والفاضح الذي وصل إليه الحال في وقتنا الحاضر إذ أصبح كل شيء يباع ويشترى بأبخس الأثمان حتى الأوطان!

كان يرأس تحرير مجلة (الحوادث) الصحفي الكبير الأستاذ سليم اللوزي الذي اغتالته المخابرات السورية بعد ذلك في عهد حافظ الأسد، وكان يكتب فيها، بالإضافة إلى رئيس التحرير طبعا، صحفي من الفرع اللبناني لأسرة النقاش نسيت اسمه الأول، وأمين الأعور، وغادة السمان. وكان مرتبطا بالحوادث ويكتب فيها أحيانا الشخصية الفلسطينية المعروفة شفيق الحوت، وغيرهم. وقد استمرت متابعتي للحوادث حتى بعد أن سافرت إلى الكويت وكان قد انضم إليها كاتبان أحببتهما أيضا وكنت أحرص على قراءة مقالاتهما فيها، وهما الكاتب (الإسلامي) محمد جلال كشك، والكاتب البحراني محمد جابر الأنصاري الذي كان يكتب عادةً في شؤون الخليج. وهناك موقف طريف أتذكره يرتبط بحبي لهذه المجلة، وهو أنني كنت في الكويت أسكن في جمعية الجنوب والخليج العربي، التي كان يشرف عليها أخونا الأستاذ سعيد محمد بابقي، وحدث أن دعا المشرف إلى اجتماع عام

للطلبة نوقشت فيه بعض الأمور، ومن بينها تقليص عدد الصحف التي كانت الجمعية مشتركة فيها، وعندما عرفت أن التقليص سيطال مجلة (الحوادث)، تحاملت على نفسي، رغم طبيعتي الخجولة، ووقفت لكي أطالب باستمرار (الحوادث)، وأعتقد أن الأستاذ بابقي استجاب لهذه المطالبة.

في مرحلة الدراسة المتوسطة بدأت تظهر عندي نزعة أو هواية الكتابة في مواضيع الإنشاء التي كان يطلب منا كتابتها، وغالبًا كانت مواضيعي تنال إعجاب معلمي مادة اللغة العربية ومادة اللغة الإنجليزية أيضا. ويحلو لي أن أسجل في هذا المقام بعض الذكريات من زمن طراوة العود وغضارة الصبا ذلك الذي بعد العهد به. حدث ذات مرة أن كتبت موضوع إنشاء، وكان معلمنا في تلك السنة هو الأستاذ الفاضل محمد أحمد عتعوت باوزير، رحمه الله، وهو من بين أكثر الأساتذة الذين مروا علينا قربا إلى نفسي بعلمه وتمكنه من مادته، وبشخصيته المرحة البشوشة والوقورة الحازمة في الوقت نفسه، ولعل الكثيرين يعرفونه إماما لمسجد الروضة في المكلا، التي استوطنها في سنوات عمره الأخيرة بعد التقاعد. ربما لم يكن الموضوع (المقال) ليلفت انتباه الأستاذ عتعوت لولا احتواؤه على شيء من روح المشاكسة و(الشقاوة) التي ظلت لا تظهر عندي إلا في الكتابة! ويبدو أنني بتأثير مما كنت أسمعه انتقدت مستوى التعليم وتحسرت على المستوى الذي كانت عليه المدرسة الوسطى في الماضي وعبرت عن هذه الفكرة مستخدما أسطورة أبو الهول اليونانية أو شيء من هذا القبيل، فما كان من الأستاذ عتعوت – ولا أدري ماذا كان دافعه – إلا أن تكلم مع زميله وصديق والدي الأستاذ عوض بكران رحمه الله حول موضوعي هذا، وقام أبو وديع بدوره بنقل القصة إلى والدي وأطلعه على كراس الإنشاء الذي كتبتُ فيه الموضوع.

لا أتذكر أن والدي قال لي كلمة واحدة تعليقا على هذه الحادثة، وإنما

اكتفى بالصمت. يبدو أنه كان مطمئنا إلى أنه قد غرس في نفسي – بطريقة ما – أشياء كثيرة وانتهى الأمر. ولا أنسى مرة عندما كنت إلى جانبه وهو على فراش مرضه الأخير في بيت عمي الشاعر محمد عوض باوزير بعدن، وطلب مني أن أكتب على لسانه رسالة تعزية إلى أحد أصدقائه في والده. قلت له: "ماذا أكتب؟"، فرد علي قائلا: "كله في راسَك"، ولعله قالها (في كورَك)، و(الكور) هي الكلمة التي نستعملها في العامية بمعنى الرأس. فقد كانت رسائلي تصل إليه عندما كنت مغتربا في بعض الأقطار العربية للدراسة أو السياحة وهي مكتوبة بصياغة خاصة أبث إليه فيها بعض لواعجي وأفكاري ولا بد أنها كانت تسعده على نحوٍ ما. ولكن عندما كنا معا وجها لوجه في بيت واحد كنت نادرا ما أخوض معه في حديث عميق أو صريح، لم أكن أجرؤ بسبب طبيعتي الخجولة الميالة إلى الصمت حتى مع أقرب الناس إلي! ومن الأشياء التي لم أجرؤ أن أقولها له لا شفاها ولا كتابةً، بل لم أجرؤ حتى أن أصارح بها نفسي في وقت مبكر، حقيقة أنني لم أكن أرغب في دراسة الطب أو الهندسة أو أي تخصص علمي، وأنني خلقت لشيء آخر! قد أكون قلتها له بطريقة ملتبسة عندما كنت أحدثه في بعض رسائلي عن شعوري بشيء من الحزن والانقباض الذي لا أعرف مصدره، أو شيء من هذا القبيل. ولكن لله في حكمته وتدبيره شؤون تجل عن إدراكنا القاصر، وهذا ما يمنحنا الرضا والاقتناع في النهاية بما قسم لنا من رزق ومصير في هذه الحياة!

أعود بعد هذا الاستطراد الطويل إلى موضوعات الإنشاء. إذ أذكر أنه ذات مرة أعجب مدرس اللغة الإنجليزية بتعبير ضمن موضوع الإنشاء وصفت به جدةً لي، هي في الوقت نفسه جدة الأستاذ عبدالله سالم باوزير لأبيه وقد تكلم عنها في سيرته الذاتية، بأنها وقد بلغت من الكبر عتيا: was looking foolishly outside the long room. لقد عهدتُ جدتي تلك، رحمها الله، وهي تجلس عند

مدخل (الضَّيقة) وتطل – دون أن تنظر– على (الحِيوة) مما جعلها تتسلل إلى موضوعي الإنشائي بذلك الوصف الكاريكاتوري الذي أعجب به الأستاذ، وليسامحني الله. وكان والدي رحمه الله يُطلع بعض ضيوفه وزواره المميزين على دفاتري التي أجمع فيها الأشعار مثلا أو دفاتري المدرسية التي أكتب فيها مواضيع الإنشاء. وذات مرة كان عنده صديقه الدكتور عبدالله سالم البيض، شقيق الشاعر الغنائي الراحل، الذي كان قد تخرج لتوه طبيبا من بريطانيا، وطلب مني أن أعرض عليه كراس اللغة الإنجليزية الخاص بمواضيع الإنشاء، فاستوقف الدكتور عبدالله موضوع استعملت فيه كلمة man بمعنى (الجنس البشري) وليس بمعنى (رجل) وهو المعنى الشائع، وشرح ذلك لوالدي، ولا بد أن الدكتور البيض اعتبر ذلك الصنيع مما لا يتيسر في تلك المرحلة الدراسية المبتدئة إلا لطالب شغوف باللغة ومجتهد في تحصيلها.

ولكن لعلّي حتى بعد أن تجاوزت الثلاثين عاما من عمري لم يكن يخطر ببالي أنني سأكون كاتبا من كتاب المقالة الفنية الحرة. كنت أمارس كتابة الشعر وكتبت بعض القصص القصيرة. ثم بدأت أنشر على استحياء بعض المقالات الأدبية القصيرة في صحيفة (الشرارة) وذلك في بداية عقد الثمانينيات. وما لبثت أن وجدت نفسي أتوغل شيئا فشيئا في الكتابة النثرية إلى جانب الاستمرار في كتابة الشعر. ولكن بقيت تلك الكتابات تركز على الأدب. وفي تلك الفترة بدأت أتعرف من جديد على مقالات والدي في صحيفة (الطليعة) وأكتشف ما فيها من براعة ومقدرة في جانب الشكل ومن إخلاص وعمق في جانب المضمون، ولا بد أنني تأثرت إلى حد بعيد بمدرسة سعيد عوض باوزير في كتابة المقالة. ونظرا لتمكني إلى حد ما من القراءة باللغة الإنجليزية بدأت أتعرف على الكتاب الإنجليز الذين اشتهروا بكتابة المقالة، ووقع في يدي كتاب ضخم يضم عددا كبيرا من المقالات التي كتبت في اللغة الإنجليزية

على مر التاريخ، وعنوان هذا الكتاب (المقالة) The Essay وقد اخترت مقالا من هذه المقالات قمت بترجمته إلى اللغة العربية ونشرته في صحيفة (الشرارة)، وكان من تأليف المرأة التي تحدت الإعاقة السمعية والبصرية والنطقية، هيلين كيلر، وعنوانه (إبصار لثلاثة أيام)، وفيه تخيلت الكاتبة أن حاسة الإبصار عادت إليها لمدة ثلاثة أيام وعددت ما هي الأشياء التي ستفعلها وتحرص على رؤيتها في هذه الأيام الثلاثة . كنت قد عثرت على مسودة هذا المقال المترجم منذ أيام قليلة وهو طويل حتى إنه نشر على حلقات في الصحيفة، ومع الأسف لم أعد أدري أين وضعته لكي أحفظه، كما يحدث في كثير من الأحيان، وإلا فقد كنت أنوي أن أنشر مقتطفات منه في الفيسبوك.

كان الفيسبوك هو الذي فتح لي مجال الانطلاق في كتابة المقالة بما وفره لي من حرية لا تتقيد بشيء إلا ضمير الكاتب. لقد كتبت العديد من المقالات وشعرت بالثقة بأنه أصبحت لي قدم راسخة في كتابة المقالة والحمد لله. وكان آخر كتاب أصدرته وهو (على طريق الوعي) كل مقالاته تقريبا مما نشرته في الفيسبوك. ومع ذلك ما زالت تراودني بين الحين والآخر فكرة الابتعاد عن وسيلة التواصل الاجتماعي هذه بصورة نهائية، فيا له من جحود!

27 أبريل 2021م

في حب اللغة الإنجليزية والترجمة

إرهاصات مترجم وبداياته

في مكتبة المعارف التي كانت تابعة لإدارة المعارف بالسلطنة القعيطية، وكان والدي أمينها طوال عشرين عاما منذ تأسيسها، كان يوجد دولاب واحد فقط خاص باللغة الإنجليزية، في حين كانت دواليب الكتب العربية ربما تقارب العشرين دولابا، وهذا شيء طبيعي. كان هذا الدولاب يحتل الزاوية القريبة المواجهة للمكتب الذي كان يجلس إليه والدي، وأنا أذكره هنا وأبدأ به حديثي هذا عن قصتي مع اللغة الإنجليزية والترجمة لأنه كان أول خزانة كتب إنجليزية أقف أمامها مستمتعا بمنظر الكتب المتراصة ومستعرضا عناوينها، وهو الشيء الذي سيتكرر بعد ذلك كثيرا في حياتي. ومكتبة المعارف هذه كان يفترض فيها أن تخدم المدرسين والطلبة بصورة أساسية، وتحتفظ ذاكرتي بعنوان كتاب كان يطالعني دائما في تلك المكتبة الإنجليزية الصغيرة هو Learning and Teaching أي (التعلُّم والتعليم)، ولعلي لم أفتح هذا الكتاب مطلقا لأنني اعتقدت أنه فوق مستواي في ذلك الوقت. وعندما أعود أحيانا وأتأمل مسار حياتي وطبيعة تفكيري وميولي كنت كثيرا ما أتخيل نفسي مدرسا ناجحا للغة الإنجليزية. ومن الكتب الأخرى التي أتذكرها في تلك المكتبة نسخة مبسطة من رواية She لرايدر هاجارد وهو نفسه مؤلف قصة (كنوز الملك سليمان) وغيرها من قصص المغامرات. وكان في المكتبة قاموس إنجليزي إنجليزي متوسط الحجم مغلّف بجلد سميك ذي لون أزرق حائل يخلو من الكتابة، وسمك القاموس بوصة واحدة

تقريبا وله أوراق رقيقة وتتوزع في بعض الصفحات رسومات جميلة غير ملونة تصور معانى بعض الألفاظ. كنت شغوفا بهذا القاموس وكثيرا ما أستعيره وأستخدمه في البيت، وظللت بعد ذلك أتذكره بكثير من الحنين حتى اليوم!

كانت المدارس الحديثة في السلطنة القعيطية تتبع المنهج السوداني، لأن هذا ما أقرته الدولة بالاتفاق مع دار المستشار البريطاني التي استقدمت من أجل ذلك السوداني الشيخ القدال سعيد القدال ليكون أول ناظر معارف في السلطنة ويشرف على سير العملية التعليمية. وطبقا لهذا المنهج، كان التلميذ يقضي أربع سنوات في المدرسة الابتدائية ثم أربع سنوات أخرى في المدرسة الوسطى، قبل أن ينتقل إلى المدرسة الثانوية. كان تدريس اللغة الإنجليزية يبدأ من أول سنة في المدرسة الوسطى، وهمتُ عشقا بلغة شيكسبير منذ البداية الأولى عندما أخذنا نتلقى دروسها الأولى من خلال كتاب (البرايمر) Primer الذي كان يدرسه لنا المرحوم الأستاذ محمد سعيد مديحج مدير (المدرسة الوسطى) آنذاك، الذي ظل يحلم في سنوات لاحقة بأن تستعيد مجدها القديم.. وهيهات!

كان العام 1959م هو عام بلوغي سن الدراسة والتحاقي بالمدرسة الابتدائية، وهو العام الذي تأسست فيه صحيفة (الطليعة) الحضرمية وصدر أول عدد منها في 28 مايو 1959م، وقبلها ببضعة أشهر وتحديدا في شهر ديسمبر من عام 1958م صدر العدد الأول من مجلة (العربي) الكويتية تحت رئاسة تحرير العالم والأديب المصري الدكتور أحمد زكي. كان أحمد زكي أكاديميا متخصصا في العلوم بالإضافة إلى تخصصه الأدبي العميق في الفلسفة، وكان أديبا صاحب أسلوب فريد في الكتابة لا يحيد عنه، سواء في افتتاحياته (للعربي) تحت عنوان (حديث الشهر) أو في أبوابه (العلمية) الطريفة التي كان يحررها في المجلة ويخاطب بها القارئ المثقف العادي. وقد كنت شديد الإعجاب بأسلوبه هذا ولعلي حاولت أن أقلده في بداية تعلقي بالأدب.

وأود أن أستشهد هنا بجزء انتقيته من مفتتح حديث الشهر للعدد الأول من (العربي) نموذجًا لأسلوب أحمد زكي المميَّز:

"... وأسميناها (العربي)، وما كان اسمٌ بوافٍ بتحقيق ما يجول في رؤوس رجال الوطن العربي كله ورؤوس نسائه، من معانٍ، وما تستدفئ به قلوبهم من آمال وأماني، كاسم (العربي) في حسمه وإيجازه.

ولقد كان جاز للعربي أن تتخذ لها منزلا، أي قطر من أقطار العروبة. فبغداد جازت. وجازت القاهرة ودمشق. وجازت الخرطوم والرباط وتونس. جاز كل بلد له اللسان العربي لسانا، والبيان العربي الناضح بعروبته بيانا.

ثم تشاء الأقدار أن يكون منزل العربي بلدا من أصغر بلاد العرب حجما، وليس بأصغرها خطرا، فكان الكويت للعربي منزلا. وخير ما شاءت الأقدار."

وقد مارس أحمد زكي الترجمة، وله عدة كتب مترجمة عن الإنجليزية، وكان يختار للترجمة نوعا خاصا من الكتب هو ذلك النوع الذي يقدم العلوم الحديثة في قالب شائق أدبي أو قصصي، وكان يخلع عليها من روحه وأسلوبه قدرًا أكبر من الجمال والإمتاع. وقد ورثت عن مكتبة والدي أحد كتبه المترجمة هذه، الذي كان عنوانه (قصة الميكروب كيف كشفه رجاله)، ثم اقتنيت بنفسي ما استطعت العثور عليه منها، مثل (بواتق وأنابيق.. قصة الكيمياء)، و(مواقف حاسمة في تاريخ العلم)، وكل هذه الترجمات نشرت بالتعاون والتنسيق مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر الأمريكية. وعندما كنا في سنوات الدراسة الأولى، كان من بين سلاسل الكتب التي تأتي من مصر وتهدف إلى تثقيف الناشئة وتعويدهم على القراءة سلسلة (الكتب العلمية المبسطة)، وكنت معجبا بهذه السلسلة المتقنة وصورها ذات الألوان الزاهية، وهي كتب كانت تترجم عن الإنجليزية. وكان الدكتور أحمد زكي هو من

ترجم الكتاب الأول في هذه السلسلة، الذي كان بعنوان (الحرارة)، ونشرت في صدر الكتاب كلمة قصيرة للمترجم، يطيب لي – ما دمنا في سياق الحنين والذكريات– أن أنقل هنا نصها، الذي بقيت أحفظ العبارة الأولى منه، ولذلك سهل عليّ استخراج بقية النص من الإنترنت:

"الأمة برجالها ورجالها من صغارها؛ لهذا سألت أن يكون لي شرف الشركة في تثقيف هؤلاء الصغار، فأجبت إلى سؤلي، فكان لي من ترجمة هذا الكتاب أول كتب هذه السلسلة القيمة متعة قلّ أن تعادلها متعة."

بعد السنة الأولى في (الوسطى) التي درسنا مادة اللغة الإنجليزية فيها الأستاذ مديحج، تولى تدريسنا هذه المادة أساتذة سودانيون، وكنت محط إعجاب هؤلاء الأساتذة الأفاضل نظرًا لتفوقي فيها، وهو تفوق كان يوازيه تفوق في مادة اللغة العربية أيضًا، وقد بدأت كتابة أولى محاولاتي الشعرية وأنا طالب في المدرسة الوسطى. وعلى الرغم من أن القدر – ولا اعتراض على حكمه – كان يرسم لي مصيرا يبتعد بي عن هوايتي وميولي الحقيقية، ظل حب الأدب، المرتبط باللغة طبعا، وعشق اللغة الإنجليزية، يحفر عميقًا في عقلي ووجداني مما جعلني أقتني من مصروفي الخاص عددًا من الكتب الإنجليزية المهمة وأنا ما زلت بعد طالبًا بين الوسطى والثانوية التي انتقلت إلى مدينة المكلا للالتحاق بها لعدم وجود مدرسة ثانوية في غيل باوزير في ذلك الوقت. وأذكر هنا من هذه الكتب التي ما زلت أحتفظ بها: مسرحية (حلم ليلة صيف) لشيكسبير مع شروح وافية لها، وكتابًا يضم عددًا من الأشعار الفارسية المترجمة إلى اللغة الإنجليزية لكبار شعراء الفرس بمن فيهم عمر الخيام في رباعياته الشهيرة التي ترجمها الإنجليزي إدوارد فيتزجيرالد. وأتذكر أن كاتبًا لعله أنيس منصور قال شيئًا في أحد مقالاته الذي قرأته عن رواية للكاتب الإيطالي ألبرتو مورافيا صدرت آنذاك عنوانها (امرأة من روما)،

وذات مرة كنت في زيارة للمكتبة الوطنية في المكلا لصاحبها أحمد سعيد حداد، التي اقتنيت منها تقريبًا كل كتب مكتبتي الصغيرة في ذلك الوقت، فإذا بي أعثر على ترجمة إنجليزية لرواية (امرأة من روما) فاشتريتها وأنا في منتهى السعادة، ووجدت من نفسي قدرة على استيعاب تلك الرواية، باستعمال القاموس طبعًا، والاستمتاع بلغتها، ولعلها أشبعت عندي شيئًا من النزوع الفطري نحو الأنثى وأنا في تلك السن الغضة؛ لأنها كانت قصة بائعة هوى، أو مومس، تروي تجربتها بضمير المتكلم. وقد حدث أنني بعد ذلك في الثمانينيات، عندما بدأت (أترجم) اهتمامي بالترجمة عمليًا، أن ترجمت قصة قصيرة لألبرتو مورافيا نفسه عنوانها (الحلم) ونشرتها في مجلة (آفاق) لسان حال اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين في حضرموت. كان عقد الثمانينيات هو بداية دخولي عالم الكتابة والنشر في الصحافة، ومما شجعني على ذلك أنني كنت أقطن في مدينة المكلا نظرا لارتباطي بالعمل في إحدى الدوائر الحكومية. كنت ما زلت أتلمس طريقي في الكتابة وفتحت لي مجلة (آفاق) التابعة لاتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين أفقا للنشر بصفتي عضوا في الاتحاد، فكنت أنشر أحيانا قصيدة وأحيانا قصة قصيرة وأحيانا ترجمة لقصيدة أو قصة قصيرة عن اللغة الإنجليزية، كما كنت أنشر في صحيفة (الشرارة)، ولكن يبدو أن ترجماتي في الشرارة كانت تنحو باتجاه فن المقالة، ومما نشرته فيها ترجمة لمقال طويل نشر على ثلاث حلقات بعنوان (إبصار لثلاثة أيام) كتبته الأديبة الأمريكية التي كانت مصابة بالعمى والصمم، هيلين كيلر. كانت مكتبتي تسعفني بالنصوص الإنجليزية التي تشدني لترجمتها، وأحيانا كانت هذه النصوص مترجمة عن لغة أخرى غير الإنجليزية، فقد ترجمت ذات مرة عن الإنجليزية قصيدة للشاعر الروسي المعروف (بوشكين) نشرت في مجلة (آفاق)، وأشرت قبل قليل إلى ترجمتي لقصة مورافيا، (الحلم)، ولغتها الأصلية هي الإيطالية طبعا. وفي أواخر الثمانينيات ترجمت قصيدتين لشاعرين

إنجليزيين ونشرتهما معا وجعلت لهما عنوانا رئيسيا واحدا هو (مملكة العقل ومملكة الخيال بين شاعرين)، على اعتبار أن أحد الشاعرين، وهو الشاعر الرومانسي جون كيتس، يتخذ جانب الدفاع عن (الخيال) كما هو عنوان قصيدته Fancy، والآخر، وهو الشاعر سير إدوارد داير، يقف في صف الدفاع عن (العقل)، وعنوان قصيدته (عقلي مملكتي). وكانت قصيدة كيتس على النمط الذي يجمع بين كل بيتين متتاليين في قافية واحدة، وقد وفقت والحمد لله إلى اتباع نفس هذا النمط في الترجمة مع إعطائها روح الشعر من خلال اختيار الألفاظ ونسج العبارة مستفيدا من ذائقتي الشعرية التي كونتها بالقراءة خلال سنوات عمري التي خلت مع وجود الموهبة الفطرية عندي كما أظن، وقديما قيل: كلٌّ مُيسَّرٌ لما خُلق له. وهذه هي السطور الأولى من قصيدة (الخيال) لجون كيتس:

دومًا دع الخيال يطوف
فالمسرة ليست أبدًا حبيسة الكهوف
إن المتعة العذبة من لمسة تذوب
كفقاقيع القطرات عندما الغيث يصوب
دع الخيال المجنح إذن يهيم
في آفاق الفكر الممتدة وراء التخوم
افتح على مصراعيها مغاليق سجن البال
يمرق قدما ويحلق نحو السحاب الخيال
يا للخيال المعسول! هلا أطلقتموه
كم فرح للصيف لكن العادة تمحوه
وكم متعة للربيع
تذوي كما تذوي أزهاره وتضيع

ترجمة الكتب

في عام 1990م دخلت البلاد مرحلة جديدة، ففي 22 مايو من هذا العام اندمج الشطران الشمالي والجنوبي من اليمن في دولة واحدة سميت (الجمهورية اليمنية). عندما أعلن خبر قيام الوحدة اليمنية (المباركة) كنت في بغداد مرافقا لوفد من الإخوة الذين قدموا إلى العراق للمشاركة في حضور تجمع شعبي لمناصرة الشعب العراقي والرئيس صدام حسين ضد الحملة التي كان يتعرض لها من القوى الغربية. وكان الخبر مبعث فرحة عامة اجتاحت أبناء الشمال والجنوب نابعة من العاطفة القومية التي كانت متأصلة عند الجميع وغير معنية بما كان يدور في الخفاء وفي كواليس السياسة والسياسيين. وبالنسبة لي فبالإضافة إلى العاطفة والتربية الوطنية العروبية التي تربينا عليها كان سبب فرحتي مرتبطا باهتماماتي الفكرية والثقافية التي تمُتُّ للسياسة بصلة أيضا. فقد كانت الوحدة كما تصورناها إيذانا بعهد جديد يفتح فيه المجال للحريات بشكل عام وخاصة حرية اتخاذ المواقف الفكرية والتعبير عنها دون مساءلة بعد انتهاء عهد الحزب في الجنوب الذي كان مضيّقا فيه على كل شيء وكان الناس يعانون فيه من ضنك العيش والحجر على حرية الرأي إلا ما كان متماشيا مع توجه (الحزب والدولة)!

كان هذا الاستبشار بعهد الوحدة هو الذي ربما دفعني إلى اتخاذ وجهة جديدة لنشاطي وأدى إلى انحسار هاجس الترجمة عندي ولو إلى حين. لذلك كانت فترة التسعينيات خالية من أي ترجمات لي، ما عدا مقالة قصيرة للألمانية ألريكة فريتاج ترجمتها عن الإنجليزية ونشرتها في الفكر، لأنني انشغلت باهتمامات أخرى لا حاجة للخوض فيها في هذه المقالة، وإنما أردت أن أعطي لمحة عن الجو العام الذي ساهم في إبعادي عن نشاط الترجمة. ولكن خلال العقد الأول من الألفية الجديدة عدت إلى التفكير في ممارسة الهواية التي ما

كان لها أن تتركني وما كان لي أن أتركها، بل دخلت في طور جديد منها وهو ترجمة الكتب. ودون الدخول في تفاصيل كيف حدث ذلك فإن أول كتاب مترجم لي صدر في عام 2007م، وهو ترجمة كتاب هارولد إنجرامز، أول مستشار إنجليزي في حضرموت، الذي يحمل عنوان (اليمن.. الأئمة والحكام والثورات). وألحقت هذا الكتاب بترجمة كتاب (أيامي في الجزيرة العربية) لدورين إنجرامز زوجة المستشار المذكور. غالبا لم يكن اختياري لهذين الكتابين لأبدأ بهما عن تخطيط ووعي مسبق، ولكن مع ذلك كنت أشعر أن كتبا تتكلم عن منطقتي سأكون أقدر على نقلها إلى اللغة العربية كما أنني سأخدم تاريخ هذه البلاد عندما أفتح نافذة على طريقة تفكير أناس كان لهم دور خطير في صنع الأحداث فيها. ومن حسن الحظ أنني تعرفت مع الانعطافة بين القرنين بل بين الألفيتين إلى شخصيتين إنجليزيتين هما ليلى إنجرامز، ابنة الزوجين هارولد ودورين، وجون شيبمان السياسي الإنجليزي الذي عمل مدة من الزمن في المكلا. فقد خدمتني هاتان الشخصيتان بطريقتين: أولا أنهما أشعراني أنني مخول بترجمة الكتابين بصورة شرعية، بل إن جون شيبمان أهداني نسخة أصلية من كتاب هارولد إنجرامز، وأهدتني ليلى نسخة أصلية من كتاب والدتها دورين بعد أن كنت قد بدأت بالترجمة من نسختين مصورتين من الكتابين. والصورة الثانية التي خدمني بها جون شيبمان وليلى أنني كنت ألجأ إليهما في الأشياء التي يستعصي علي فهمها، شيبمان بالنسبة لكتاب هارولد وليلى بالنسبة لكتاب أمها دورين.

وكان الكتاب الثالث الذي ترجمته ووجدت متعة أكبر في ترجمته نظرا للصبغة الأدبية التي تغلب عليه هو كتاب (وجوه في بلاد العرب) للمستشرق والدبلوماسي الهولندي دانيال فان در مولن. وكان هذا الكتاب يمثل مرحلة تطور منطقية في مسيرتي الترجمية في أكثر من ناحية. ففصوله لم تغب عنها

حضرموت واليمن ولكنها تجاوزتهما لتشمل الجزيرة العربية كلها. ثم إنني دخلت إليه وقد اكتسبت خبرة وثقة أكبر في التعامل مع فن الترجمة، وكانت النتيجة التي أثمرتها هذه التجربة الثالثة مرضية لي إلى حد بعيد والحمد لله. وهناك ناحية ثالثة مهمة هي أنني واصلت نفس طريقتي السابقة في ربط علاقة مع أصحاب الحق الفكري للكتاب المترجم، بحيث أشعر أنني في جانب الأمان كما يقول أهل الهندسة، إذ كانت الراحلة ليلى إنجرامز قد عرّفتني على ابن د. فان در مولن، البروفيسور بيرند فان در مولن، وأدى التواصل بيني وبينه في نهاية الأمر إلى أن يكتب مقدمة جميلة – بناء على طلبي– للطبعة العربية من كتاب والده، تماما كما كتبت ليلى– بناء على طلبي أيضا– مقدمة ضافية للترجمة العربية لكتاب والدتها.

صدى كتاب (أيّامي)!

يعد كتاب (أيامي في الجزيرة العربية) الأكثر رواجا من بين ترجماتي، فقد صدرت منه طبعتان مجموع نسخهما 1500 نسخة نفدت كلها وما زال الكثير يسألون عنه للحصول على نسخ منه. وقد عرض في مكتبات خارج اليمن مثل مكتبة (كنوز المعرفة) في جدة بالمملكة العربية السعودية، ومكتبة (الساقي) في لندن، وهذه المكتبة اللندنية تولت ليلى إنجرامز نفسها تزويدها بدفعتين– كما أتذكر– من الكتاب بسبب رغبتها في أن يكون للكتاب وجود، ولو رمزي، في المملكة المتحدة. وكانت ترسل لي ثمن النسخ المبيعة وقد بيعت كلها، وأنا أشعر نحوها بكثير من الامتنان والعرفان لهذا وغيره من الخدمات التي قدمتها لي ولمشاعر المودة التي كانت تكنها لي. وكانت تسمي الكتاب بأول كلمة من عنوانه العربي: (أيامي)، وتنطقها بالعربي وتكتبها بالنقحرة الإنجليزية: (Ayyami)، في رسائلها لي بالبريد الإلكتروني. والنقحرة كلمة استفدتها من تمرسي بالترجمة وتعني كتابة لغة

بحروف لغة أخرى، وهذا إجراء قد نلجأ إليه نحن المترجمين في بعض الأحيان، والكلمة التي تقابل النقحرة في الإنجليزية هي transliteration.

وكما كان للكتاب صدى على مستوى جمهور القراء، كان له حضور في الدرس الأكاديمي، فقد حصل الأستاذ ماهر سعيد عرم، وهو من أبناء الشحر، على درجة الماجستير في الترجمة عن رسالته التي تناول فيها كتاب (أيامي في الجزيرة العربية)، وكان عنوانها (تقصي استراتيجيتي التغريب والتوطين للعناصر ذات الخصوصية الثقافية في ترجمة نجيب باوزير لكتاب دورين إنجرامز A Time in Arabia من الإنجليزية إلى العربية). وقد كان بيني وبين الأستاذ ماهر تواصل مستمر في أثناء إعداده للرسالة، وبعد إنجازها وإقرارها تكرم بإهدائي نسخة مجلدة منها. وقبل اطلاعي على البحث الذي أعده ماهر عن ترجمتي لكتاب دورين لم أكن أعرف اصطلاحي التغريب والتوطين، ولكنني كنت أمارس هاتين الطريقتين في ترجمتي لما يسمى بالعناصر ذات الخصوصية الثقافية في النصوص التي أترجمها، وهما جزء من أدوات وآليات فن الترجمة التي اكتسبتها بالممارسة فقط وليس بالدراسة المنتظمة. وهكذا كانت رسالة الماجستير هذه فضلا عن كونها أثبتت نوعا من الحضور لترجماتي في الوسط الثقافي والعلمي، فإنها أفادتني شخصيا بأن أدخلتني إلى مجال الترجمة بوصفها علما، إذ اكتشفت أن هناك عددا كبيرا من الدراسات حول موضوع التوطين والتغريب للعناصر ذات الخصوصية الثقافية، لأن ترجمة هذه العناصر تعد فعلا من المسائل التي تمثل صعوبة ما للمترجم، كيف يتصرف معها؟

إن ما جعلني أكتشف وأتتبع هذه الدراسات عن موضوع التوطين والتغريب أن ابنتي الصغرى كانت تستعد لإنهاء مرحلة البكالوريوس في قسم اللغة الإنجليزية بكلية الآداب في جامعة حضرموت وكانت تبحث عن موضوع

لبحث التخرج. وبعد أن فكرنا معا في أكثر من موضوع، اقترحت عليها أن يتناول بحث تخرجها حالات التغريب والتوطين في ترجمة رواية (سيدات القمر) للأديبة العمانية جوخة الحارثي إلى اللغة الإنجليزية، وكانت هذه الترجمة قد فازت بجائزة مان بوكر مناصفة بين المؤلفة والمترجمة الأمريكية ماريلين بوث، وذاع صيتها في الوسط الثقافي العربي، ودفعنا ذلك إلى اقتناء النسختين العربية والإنجليزية من الرواية من العاصمة العمانية مسقط عندما كانت العائلة في زيارة لها. وهكذا خدمتنا الظروف للوصول إلى هذا الاختيار الذي كان اختيارا موفقا، والحمد لله، كما ثبت فعلا بعد ذلك.

المقابلة

جعلت عنوانا لهذا الجزء الأخير من مقالتي هذه عن اللغة الإنجليزية والترجمة اسم البرنامج الرائع الذي يقدمه الأستاذ علي الظفيري على قناة الجزيرة منذ أن عاد إليها بعد أن انتهت بالمصالحة ما سميت بالأزمة الخليجية ومقاطعة دولة قطر من قبل أربع دول عربية من بينها المملكة العربية السعودية التي ينتمي إليها علي الظفيري، وهذا هو السبب في ابتعاده عن الجزيرة طوال فترة المقاطعة. والسبب في اختيار هذا العنوان هو إعجابي الشديد بهذا البرنامج الحواري الذي ظهر فيه الظفيري بأفضل مما كان عليه من قبل في الجزيرة، في اختيار الشخصيات وتنوعها وفي إخراج الحلقات وطريقة إدارة الحوار؛ ولذلك صرت أحرص على متابعته، وشاهدت من بين حلقاته المتميزة، التي تعطي فكرة أيضا عن تنوع الشخصيات، حوار الظفيري مع الفنان المطرب الكويتي المخضرم عبدالكريم عبدالقادر، صاحب أغنيات (تكون ظالم) و(ما نسيناه) و(عاشق) وغيرها، ومع المفكر الفلسطيني المقيم في أمريكا وائل حلاّق، وأخيرا وليس آخرا مع السيد إسماعيل هنية رئيس المكتب السياسي لحركة المقاومة الإسلامية (حماس).

لقد اعتبرت أن المقابلة التي أجرتها معي قناة حضرموت (الحمراء)، تمييزا لها عن قناة حضرموت الزرقاء – حسب لون الشعار – كانت تتويجا لمسيرتي، حتى الآن، في الترجمة بوصفها النشاط الثقافي الذي سأختم به حياتي، فيما يبدو، متفرغا لها تماما بإذن الله، لأن مرحلة نهاية العمر لا تحتمل التعدد بجميع أنواعه. فقد كانت تلك المقابلة مخصصة للحديث عن الترجمة، كما هي سياسة برنامج (حوارات ثقافية) أن يتحدث الضيف عن جانب واحد فقط من اهتماماته، وهي سياسة حكيمة، وكان محاوري هو نفس المحاور في كل حلقات البرنامج منذ انطلاقته الأولى، الأكاديمي والناقد الأدبي الدكتور عبدالقادر علي باعيسى، الذي تربطني به علاقة وطيدة ممتدة.

لن أتحدث عما دار في تلك المقابلة فهي مسجلة وستذاع إن شاء الله مرة بعد مرة وأنا أكتب هذه السطور قبل أن تبث للمرة الأولى[1]، إذ قيل لي إن (مركز حضرموت للدراسات التاريخية والتوثيق والنشر) المتبني لهذا البرنامج يريد أن يستكمل حلقات الموسم الثاني من البرنامج ثم ستبدأ القناة في بث الحلقات، ولذلك يبدو أنني سأنتظر طويلا متلهفا لمعرفة كيف كان أدائي ومظهري بشكل عام في تلك (المقابلة)، وإن كان الإخوة بمن فيهم المحاور أثنوا على الأداء، وعندي إحساس طبعا أنهم لا يجاملونني. وأنا من الذين لا يحبون الظهور الإعلامي، المسموع أو المرئي، ويتهيبون الحديث المباشر أمام الميكروفون، ولذلك فمقابلاتي، أيا كان نوعها، قليلة وأستطيع أن أعددها هنا بشكل دقيق إلى حد ما في ختام هذه المقالة:

أتذكر أنه أجريت معي منذ عدة سنوات مقابلة في تلفزيون عُمان في برنامج (قهوة الصباح) وكانت منصبة على الشعر، فيما يبدو، وكان الذي

(1) بثت المقابلة يوم الأحد بتاريخ 2022/3/20م واستحسنها كثير من الإخوة الذين شاهدوها.

حاورني فيها الإعلامي الصديق الأستاذ عبدالعزيز السعدون (أبو فهد) الذي تعرفت إليه طبعا عن طريق صديقنا المشترك الإعلامي الكبير والشاعر الأستاذ ذياب بن صخر العامري. وفي إذاعة سيئون أجرى معي الإعلامي الأستاذ رشاد ثابت مقابلة في برنامج (ساعة صفاء) المباشر، تداخل معي فيها عدد من الإخوة الكرام المهتمين، وقد أسعدني كثيرا المشاركة في هذا البرنامج الذي انطلقت فيه بالحديث عن جوانب مختلفة دون تحضير يذكر. وقبل ذلك بمدة، كان الصديق الأستاذ نزار باحميد قد أجرى معي مقابلة مسجلة لإذاعة سيئون في لقاء خاص. وذات مرة، أو بالأحرى ذات عِيد، فاجأني الصديق الصحفي الأستاذ خالد القحوم بأن طلب مني التحدث عن طريق الهاتف إلى برنامج (فضاءات عيدية) الذي يذاع بطريقة البث المباشر، ويشاركه في التحاور مع الضيوف الأستاذ محمد بن الشيخ أبوبكر، وفعلا تمت هذه المقابلة التليفونية مع الأخوين القحوم وابن الشيخ أبوبكر على خير ما يرام، ، وتحدثت فيها عن إصدارات مكتبة الصالحية وعن أشياء تتعلق بالمبدعين من أسرتنا (آل باوزير) الصغيرة. وكان التتويج الجميل والختام المسك لهذه المقابلات هذه المقابلة الأخيرة مع قناة حضرموت ومع الدكتور باعيسى، التي انصبت على الترجمة واللغة الإنجليزية، حبي الأول.. والأخير!

4 يناير 2022م

عندما فزت بالجائزة الأولى في تأليف الشعر

طلب مني الصديق العزيز الشاعر والمترجم القدير الدكتور شهاب غانم المشاركة في مشروع شعري، ضمن منتدى الواتسأب الذي يحمل اسمه (منتدى شهاب غانم الأدبي)، من المشاريع التي ما فتئ يتحفنا بها ويفيض على المنتدى من روحه الملهِمة المحفزة التي تحتوي جميع الأعضاء تحت جناح المحبة والألفة، وكنت قد شاركت في أكثر من مشروع من هذه المشاريع الأدبية التي تمخضت عن إصدار كتب رائعة ما زال بعضها في طور الإعداد والتحرير، ولكنني هذه المرة، عندما جاء دور الشعر، اضطررت إلى الاعتذار قائلا له إنني قد هجرت الشعر منذ زمن أو إنه هجرني!

أعادني هذا إلى تذكر خطواتي الأولى في الشعر وأحببت أن أشارك هذه الذكريات الحبيبة مع أصدقائي وأهديها لهم مع بداية هذا الشهر المبارك، رمضان الكريم، بأجوائه الروحانية ونفحاته الإيمانية، التي لا أظنها تتعارض مع حديث الأدب والشعر، بل لعله على العكس من ذلك يعطي كل منهما الآخر بهاء ورونقا!

وأبدأ من الذكرى التي وضعتها عنوانا على رأس هذا المقال. كنت حينها في المرحلة الثانوية التي اضطررت من أجلها لمفارقة مدينتي غيل باوزير والانتقال إلى المكلا للالتحاق بالمدرسة الثانوية الوحيدة آنذاك في حضرموت، ولذلك كان يؤمها الطلبة خريجو المرحلة المتوسطة من مختلف مناطق السلطنة القعيطية، من غيل باوزير والقطن وحورة والشحر وغيرها، فضلا عن أبناء المكلا نفسها طبعا. وقد كان تخرج دفعتنا من المدرسة

الوسطى في العام الذي شهد ما عرف بالاستقلال، في عام 1967م، ومن ثم ضَم حضرموت بسلطنتيها القعيطية والكثيرية إلى الجمهورية الوليدة. ويحلو لي في هذا المقام أن أتذكر أسماء بعض زملائي في تلك المرحلة من غير أبناء الغيل: فمن المكلا كان معنا الشقيقان منير وحسين راشد، والأخ فيصل بامردوف، المهندس المعماري المقيم حاليا في دولة الإمارات على ما أظن، والدكتور عبدالله سعيد باحاج. ومن حورة الأخ فيصل بن سعدون والأخ عبدالصمد باوزير، ومن القطن محمد ناصر الرشيدي وعمر قدري بافضل أخو الشخصية السياسية المعروفة عبدالرحمن بافضل، حفظ الله الأحياء وتغشّى الأموات برحمته وغفرانه .

في إحدى سنوات انتظامنا في المدرسة الثانوية التي كانت تسمى ثانوية المكلا، وحملت بعد ذلك اسم (ثانوية بن شهاب)، وأظنها السنة الثانية، اقترح أستاذنا للغة العربية، السوداني علي المقبول، إقامة مسابقة للشعر الفصيح، وشرع في تنظيمها فعلا، وبما أنني كنت قد بدأت كتابة الشعر منذ المرحلة الوسطى أو مع نهايتها تقريبا وتجمعت عندي بعض المحاولات الشعرية الجيدة، فقد شاركت بقصيدة في هذه المسابقة، فازت والحمد لله بالمركز الأول، وكانت من مجزوء الرمل وعنوانها (نداء في ليل الحب) ، وهذه الأبيات الأولى منها:

نادني واسمع ندايا واختبئ بين الحنايا
خل من قربك نايا نايه كانت دوايا
كلما هدهدتَ روحي يتمشى في دمايا
هات عينيك لأملا منهما دنيا صفايا
هات خديك لكي أزرع بالورد الزوايا

كانت هذه القصيدة مكونة من مقطعين بقافيتين مختلفتين كل منهما

يحتوي على أحد عشر بيتا، وهي موجودة في ديواني الأول (حلم الشاعر) الذي صدر في عام 1984م عن دار الهمداني بعدن، أما جائزة المركز الأول التي حصلت عليها عن هذه القصيدة فكانت كتابا، هو ديوان الشاعر الأندلسي العذب ابن زيدون.

لم يكن اسم ابن زيدون وشعره مجهولا بالنسبة لي في تلك الفترة، فهو من الشعراء البارزين والمرموقين في تاريخ الشعر العربي، وقد كتب عنه الشاعر علي الجارم رواية بعنوان (هاتف من الأندلس) درسناها في إحدى السنوات الدراسية لا أذكر إن كان في الوسطى أو الثانوية. وهناك ذكرى ظريفة مرتبطة بابن زيدون يطيب لي أن أذكرها هنا. فقد كان يدرّس لنا مادة اللغة العربية في آخر سنة من المرحلة المتوسطة بالغيل الأستاذ الشاعر عبدالله عبدالكريم الملاحي الذي كان هو مدير المدرسة بعد أن ترك هذا المنصب الأستاذ محمد سعيد مديحج، رحم الله الاثنين. وفي إحدى حصص المادة أراد الأستاذ الملاحي أن يختبر حفظنا للشعر فأدار بين طلبة الصف مساجلة شعرية على الطريقة المعروفة التي يقول فيها الطالب بيتا من الشعر يبدأ بالحرف الذي انتهى به بيت زميله. وقد رفعت أنا اصبعي لأقول بيتا كنت أحفظه لابن زيدون من قصيدته النونية الشهيرة يبدأ بحرف الباء، وقد قلت البيت وأنا فرحان وواثق من نفسي على النحو التالي:

بتّم وبتنا فما ابتلت جوانحنا شوقا إليكم ولا جفت مآقينا

فاستوقفني الشاعر الملاحي وصحح لي الكلمتين الأوليين من البيت بأنهما (بِنتُم وبنّا) وليستا (بِتّم وبتنا) ، وأردت أن أعترض ولكن الملاحي رحمه الله شرح لي معنى الكلمة الصحيحة – من البين بمعنى البعد– الذي ربما كان غائبا عني حينها، بينما كانت تغمر وجهه ابتسامة مشرقة حانية.

وبمناسبة ابن زيدون وديوانه وشعره، دعونا نختم هذا المقال بأبيات مختارة من قصيدة جميلة له تعجبني بوزنها وقافيتها وروحها العذبة إجمالا. وهي من وزن مجزوء الرمل وهو نفس وزن قصيدتي الفائزة بالجائزة الأولى في تأليف الشعر:

ما على ظنيَ باسُ يجرح الدهر وياسو
ربما أشرف بالمرء على الآمال ياسُ
ولقد ينجيك إغفال ويرديك احتراسُ
ولكم أجدى قعود ولكم أكدى التماسُ
وكذا الدهر إذا ما عز ناسٌ ذل ناسُ
لا يكن عهدك وردا إن عهدي لك آسُ
وأدر ذكريَ كأسا ما امتطت كفك كاسُ
واغتنم صفو الليالي إنما العيش اختلاسُ
وعسى أن يسمح الدهر فقد طال الشماسُ

14أبريل 2021م

قصتي مع الكتابة السياسية

في صحيفة (القدس العربي) اللندنية كتب الأستاذ صبحي حديدي في عمود (هواء طلق) في الصفحة الأخيرة مقالا بعنوان (ثلاثون القدس العربي)، أشار في بدايته إلى احتفال الصحيفة بمرور ثلاثين عاما على: "انطلاقتها الأولى في نيسان (أبريل) 1989م، وكانت لهذه المناسبة صفة شخصية عندي لأن أول مقال لي في هذه الصحيفة نشر بتاريخ 6 نيسان من العام 1990، وكان تعليقا سياسيا قصيرا بعنوان (عشية البيريسترويكا الثانية)؛ ومنذئذ وحتى الساعة، لم أتوقف عن الكتابة الدورية في أعمدة (القدس العربي) الثقافية والسياسية."

وكما أشار الكاتب صبحي حديدي إلى ذكرى نشر أول مقال له في (القدس العربي) أشير أنا إلى أنه تحل في الخامس عشر من هذا الشهر مايو (أيار) ذكرى نشر المقال الوحيد لي في (القدس العربي) في عام 2015، وهو المقال الذي أبنت فيه الراحلة ليلى إنجرامز وكان بعنوان (في وداع ليلى إنجرامز).

ويمضي صبحي حديدي إلى القول:

"وإذْ أشير إلى هذا التفصيل تحديداً، وأقصد مساهمتي الأولى، فلأنني أعلّق بعض المغزى الخاصّ على ابتدائي في الصحيفة بمادّة سياسية وليس بمادّة ثقافية؛ وكان الحقل الثاني هذا هو اختصاصي المُعلن بمعنى ما، الذي كنت أخوض فيه منذ مطلع السبعينيات، في ميدان النقد والنظرية الأدبية والدراسات

الثقافية. والمغزى، من وجهة نظري الشخصية بالطبع، ظلت تغذيه واحدة من أبرز سمات «القدس العربي»: احتضان الرأي الآخر، اليتيم أو ذاك الذي بات غريب الوجه واليد واللسان بعد «عاصفة الصحراء»، حين أخذت أعراف ما سُمّي آنذاك بـ«النظام العالمي الجديد» تحرق الأخضر واليابس في الإعلام العربي إجمالاً، وفي الإعلام العربي الخارجي بصفة خاصة".

يتقاطع هذا القول للكاتب صبحي حديدي الذي أعترف أنني لم أعرفه إلا من خلال صفحات (القدس العربي) مع هاجس المراوحة بين الثقافي والسياسي عندي شخصيا، وهو ما أغراني بكتابة هذا المقال. لا أتذكر أنني تناولت السياسة بشكل مباشر في أي من كتاباتي منذ أن بدأت ممارسة هواية الكتابة في الثمانينيات. كان اهتمامي ينصب على الأدب والنقد والثقافة بشكل عام واستمر ذلك التوجه طوال التسعينيات ثم السنوات الأولى من الألفية الجديدة، ولم يطرأ عليه التغيير إلا بعد أن دخلت مجال النشر في الفيسبوك. لم أنشر أي مقال سياسي على ما أذكر في أي صحيفة ورقية كما كان شأن كثير من الزملاء والأصدقاء، ولكن الفيسبوك والمجال المتاح والمفتوح فيه لعرض ما يعن للكاتب من آراء وأفكار دون التقيد إلا بما يمليه عليه ضميره ومبدأه جعلني أغامر بالخوض في درب السياسة الشائك. ولعلي أستطيع القول إن معظم مساهماتي في الفضاء الأزرق كانت ذات صبغة سياسية حتى الثقافية منها على نحو ما. وهنا أعود إلى الاستشهاد بفقرة أخرى من مقال الأستاذ صبحي حديدي:

"كانت فورة العاصفة تلك تشتغل وفق منطق المنشار، فتأكل الأقلام في الرواح والمجيء، وتكسب كلّما رفعت أثمان التكسّب، حتى لاح مراراً أنّ القلّة القليلة التي لا يأتي عليها ذلك المنشار الجهنمي هي – وفق منطق البقاء

الطبيعي – الأقلية المرشحة لانقراض وشيك ينبغي أن يكون مُطبِقاً ومحتوماً: إمّا أن تكون معهم (قلماً مكشوف الولاء سقيم الأدوات، أو قلماً مبطّن الولاء سفسطائي الأدوات... لا فرق)؛ أو لا تكون البتة، لأنك لست معهم (أمامهم أو خلفهم، على يمينهم أو يسارهم... لا فرق هنا أيضا)"

لا شك أنني كنت متأثرا إلى حد بعيد بالتراث الغني الذي تركه والدي رحمه الله من الكتابات والمواقف السياسية والوطنية، وأضفت إلى ذلك قراءات ذاتية أخرى ومتابعة من بعيد لماجريات الأحداث اللاحقة دون الانخراط في أي من التكتلات والتيارات السياسية. وتكون عندي بالتالي وعي ربما بدا أنه مختلف عن السائد أو حتى معاكس للتيار أمارسه وأحاول الإفصاح عنه بالقدر المتاح. وربما لم يكن هذا الوعي ليجد طريقه إلى الظهور والنشر لو لم تكن الساحة الوطنية والعربية تعيش أوضاعا شاذة بل كارثية تمس كل مواطن في الصميم وتهدد استقراره بل وجوده ذاته. ويحضرني هنا مثال على الكاتب عندما يتأثر بالأحداث التي تجري في محيطه وتهدد كيانه الوطني والقومي فتدفعه إلى الكتابة والإبداع، ألا وهو مواطني الحضرمي الأديب الكبير علي أحمد باكثير الذي أتذكر أنه في كتابه (فن المسرحية من خلال تجاربي الشخصية) أشار إلى تأثره بالجريمة التي حدثت في فلسطين واغتصاب اليهود لها بمساعدة الغرب، مما جعله يندفع إلى كتابة العديد من المسرحيات السياسية، كما أتذكر قوله إنه لم يكتشف قدرته على استعمال السخرية اللاذعة في الكتابة المسرحية إلا عندما انتابه الغضب والسخط تجاه ما حدث في فلسطين . ويحسن أن أنقل هنا ما قاله بالضبط في هذا السياق، إذ قال: "... فقد ظللت برهة بعد ما زاولت الكتابة المسرحية أعتقد أنني من أبعد الناس عن الفكاهة وأقلهم قدرة على الإضحاك والتنكيت إلى أن اشتعل السخط في نفسي للأسباب التي أشرت إليها آنفا فإذا الفكاهة والسخرية طوع بناني."

والذي يقرأ كتابي الأخير (كُتّاب في المرآة) الذي هو في الأساس كتاب أدبي ثقافي يجد أن معظم مقالاته، خاصة تلك التي كتبت في السنوات القريبة الماضية وحتى قبيل صدور الكتاب في العام الماضي 2018، لا تخلو من إشارات وتلميحات سياسية أقصد عمدا إلى إدخالها في نسيج الموضوع الذي أتحدث عنه إيمانا مني بأن الكتابة موقف! وقد داعبني صديق لي عماني متابع لما أكتبه في الفيسبوك معلقا على ما كتبته عن عزمي على ترك الخوض في السياسة قائلا: إنك لن تستطيع أن تترك السياسة وإن الكتابة عندك إنما هي (تكتيك) سياسي!

7 مايو 2019م

فلسطين والجنوب

وعناوين سعيد عوض باوزير الثورية

في سياق الحديث عن المقالات التي كتبها الأستاذ سعيد عوض باوزير عن فلسطين وإعادة التذكير بها، أشير اليوم إلى مقال جديد، إذ إنني كنت قد تحدثت ونشرت في صفحتي على الفيسبوك أجزاء من ثلاثة مقالات لكي تواكب العدوان الصهيوني الأخير على القدس وعلى غزة الصامدة المنتصرة في أواخر شهر رمضان المبارك 1442هـ. هذا المقال الذي نشر في صحيفة (الطليعة) بتاريخ 14 مايو 1964م عنوانه (نكبة فلسطين سببها بريطانيا)، ولعل الملاحظ أن الأستاذ باوزير كان أحيانا يستغل ذكرى النكبة فيعيد التذكير بجذور القضية الفلسطينية وأهميتها في سياق قضية التحرر والنضال العربي الشامل وأنها قضية واحدة لا تتجزأ، على عكس ما يحاول البعض اليوم أن يلوي عنق هذه الحقيقة الساطعة.

وكنت كلما قرأت هذا المقال، يرد إلى ذهني أن كاتبه وهو يكتبه كانت تتملكه فكرة ما، وهي أن بريطانيا، هذه الدولة الاستعمارية التي ارتكبت ما ارتكبته في فلسطين من الجرائم الشنيعة التي يندى لها جبين الشرف والمروءة، والتي يعددها المقال ابتداء من وعد بلفور في نوفمبر 1917م، هي نفسها الدولة التي تستعمر بلاده (الجنوب وحضرموت) أو تفرض عليها الحماية. ربما كانت صياغة العنوان هي التي أوحت لي بهذا الخاطر، وبمناسبة العناوين فقد عرفنا كيف كان والدي، رحمه الله، في بعض الأحيان يختار عناوين مقالاته من الأغاني الوطنية، المصرية أو المحلية، كعنوان (لن ينام الثأر

في صدري) الذي تحدثت عنه في أحد مقالاتي الأخيرة. ولأنني سأتطرق بعد قليل إلى النشيد المصري الشهير الذي أوحى لي بعنوان وموضوع هذا المقال، دعونا أولاً نستعرض بعض أو حتى كل تلك العناوين المستلهمة من الأعمال الفنية المغناة ومن الأعمال الأدبية الشعرية أيضا كما سيتبين.

سأرتب هذه العناوين حسب تسلسل ورودها في كتاب (معارك الأحرار.. مقالات في السياسة) الذي أعددته للنشر وصدر عن جامعة عدن في عام 2002م. فأول عنوان نصادفه من هذا النوع هو (أنا قلبي لبلادي لا لحزب أو زعيم). هذا العنوان اكتشفت لاحقا أنه بيت شعر للشاعر الفلسطيني الكبير إبراهيم طوقان وأن الأستاذ باوزير غير الكلمة الأولى في البيت فجعلها (أنا)، ضمير المتكلم، بدلا من (إنّ)، حرف التوكيد والنصب، إذ إن أصل البيت هو:

إن قلبـي لـبلادي لا لحزب أو زعيم

وإنها لمصادفة جميلة أن يكون أول عنوان في هذا الاستعراض مأخوذا من شعر أحد الشعراء الكبار في فلسطين، التي يتصدر اسمها عنوان هذا المقال.

وعندما قامت ثورة 26 سبتمبر 1962م، وأطاحت بنظام الإمامة في شمال اليمن، كان من ضمن المقالات التي كتبها سعيد عوض باوزير احتفاءً بهذا الحدث مقالان يحمل كل منهما عنوانا هو عبارة عن شطر بيت من قصيدة لشاعر يمني كبير. أول العنوانين هو (الحكم للشعب لا بدر ولا حسنُ)، وهو من قصيدة للشاعر الكبير عبدالله البردوني وردت في أحد دواوينه الأولى وهو ديوان (في طريق الفجر)، والقصيدة عنوانها في الديوان (الحكم للشعب) ومؤرخة في الديوان بتاريخ قيام الثورة نفسه، والنص الكامل للبيت هو:

لا (البدرُ) لا (الحسنُ) السجان يحكمنا
الحكـم للشـعب لا بـدرٌ ولا حسـنُ

وفي مقالة للدكتور عبدالعزيز المقالح عن البردوني ذكر أن الإشارة إلى البدر والحسن بوصفهما المتنافسين على حكم البلاد بعد الإمام أحمد حميد الدين. كان ديوان (في طريق الفجر) أول ديوان أطلع عليه للبردوني، اقتنيته من المكلا وأنا طالب في مراحلي الدراسية الأولى، ولم أكن أعرف أي شيء عن هذا الشاعر قبل ذلك، ولذلك كانت سعادتي بالديوان لا توصف. وبالعودة إلى العنوان الذي اقتبسه والدي من قصيدة البردوني، فإنني كنت قد كتبت كلمة قصيرة في مجلة (الفكر) بعنوان (البردوني وباوزير والثورة) كان مما جاء فيها: "ولأن ديوان (في طريق الفجر) لم يصدر إلا في منتصف الستينيات على الأرجح، ومقال المؤرخ نشر في 11 أكتوبر 1962م، فإننا نرجح أن الأستاذ باوزير ربما يكون قد استمع إلى قصيدة البردوني مذاعة من إذاعة صنعاء في الأيام الأولى للثورة."

أما العنوان الآخر فهو (الله أيقظها والسخط والألم) وهو مأخوذ من قصيدة الشاعر الكبير أبي الأحرار الشهيد محمد محمود الزبيري التي وردت في ديوانه (صلاة في الجحيم)، ولعله أول مجموعة شعرية صدرت له، وهو من الكتب التي ورثتها عن والدي واستخرجته الآن لكتابة هذا المقال. تتصدر الديوان مقدمة جميلة للأستاذ محسن العيني، الذي تولى رئاسة مجلس الوزراء عدة مرات بعد الثورة، تطرق فيها إلى قصة كتابة قصيدة (صيحة البعث) التي أخذ منها العنوان، واللافت هنا أن هذه القصيدة لم تكتب بمناسبة ثورة سبتمبر، بل هي قصيدة قديمة تعود إلى أربعينيات القرن الماضي، ولنترك الأستاذ العيني يروي قصتها:

"وفي عدن بدأت الحركة السياسية تأخذ شكلها التنظيمي العلني لأول مرة، فتأسس حزب الأحرار اليمنيين، ووقف الزبيري يسجل هذا الحدث بقصيدة تغنى بها اليمنيون طويلا:

سجل مكانك في التاريخ يا قلمُ فهاهنا تبعث الأجيال والأممُ

هنا القلوب الأبيّات التي اتحدت هنا الحنان هنا القربى هنا الرحمُ
هنا البراكين هبت من مضاجعها تطغى وتكتسح الطاغي وتلتهمُ
لسنا الألى أيقظوها من مراقدها الله أيقظها والسخط والألمُ"

والآن جاء دور الأغاني والأناشيد الثورية والوطنية. فقد كتب الأستاذ باوزير مقالا عن فلسطين بعنوان (لن ينام الثأر في صدري)، وهذا نشيد يتكون من مقطعين ألفه الشاعر الفلسطيني هارون هاشم رشيد وغنته مع المجموعة فايدة كامل، الفنانة المتخصصة في أداء الأغاني الوطنية نظرا لصوتها القوي الحاد النبرة، وبالمناسبة فقد غنت لثورة سبتمبر اليمنية أغنية جميلة. ويأتي بعد ذلك عنوان مأخوذ من أغنية أو نشيد (دقت ساعة العمل الثوري) للموسيقار محمد عبدالوهاب، وهذا العنوان هو (نحن الشعب.. عارفين المشوار). وآخر عنوان في هذا الاستعراض هو (أنا الشعب زلزلة عاتية)، وهذه إحدى الأغاني الوطنية العديدة للفنان العدني الراحل محمد مرشد ناجي الذي كان الأستاذ باوزير من المعجبين به وتربطه به صداقة، وكان يسميه (فنان الجنوب الأول)، ويقول المقطع الأول من الأغنية:

أنا الشعب زلزلة عاتية
ستخمد نيرانهم غضبتي
ستخرس أصواتهم صيحتي
أنا الشعب عاصفة طاغية

في خضم هذه التفاعلات التي كانت تعتمل في المنطقة العربية وما تثيره من المشاعر الوطنية والأحلام الوردية بأوطان متحررة ومتمتعة بالسيادة على أرضها ومقدراتها، ظهر في بداية الستينيات من القرن العشرين الماضي نشيد (الوطن الأكبر)، الذي كتب كلماته الشاعر أحمد شفيق كامل، صاحب

أغنيتي (إنت عمري) و(أمل حياتي) لأم كلثوم، ولحنه الموسيقار محمد عبدالوهاب، وغنى مقاطعه المتعددة بالتناوب الفنان عبدالحليم حافظ ومجموعة من المطربات، وكل هؤلاء كانوا في أوج مجدهم الفني وشهرتهم المدوية، والمطربات هنّ على التوالي حسب ترتيب ظهورهن في النشيد: صباح، وفايدة كامل، وشادية، ووردة الجزائرية، ونجاة الصغيرة، وغنت كل منهن مقطعا واحدا، أما عبدالحليم حافظ فقد غنى مقطعين، أحدهما في بداية النشيد، والآخر في نهايته، وهو الذي تقول كلماته، وهي بيت القصيد في هذا المقال:

وطني يا زاحف لانتصاراتك
يا اللي حياة المجد حياتك
في فلسطين وجنوبنا الثائر
حانكمّل لك حرياتك

وأقصد ببيت القصيد هذا الربط، الذي بدأت المقال بالحديث عنه، بين فلسطين والجنوب، إقليمنا الذي نعيش فيه، فليس بعيدا عن إدراك كل وطني حر وغيور أن هذه المنطقة التي تشمل حضرموت وباقي مناطق الجنوب لم تتمتع فعلا بما كان يحلم به شعبها من الحرية والكرامة والسيادة منذ الخمسينيات من القرن الماضي، وإنما دخلت منذ العام 1967م في نفق مظلم من الكوارث الوطنية – إن جاز التعبير– التي ما زالت تتوالى حتى اليوم. وإن الأمل الوحيد، بعد فضل الله سبحانه وتعالى وتوفيقه، هو في توحيد النضال العربي، وخاصة في الربط بين تحرير فلسطين من الاحتلال الصهيوني وبين تحرير اليمن والجنوب من الهيمنة الإقليمية والدولية التي أصبحت تتستر وتتزيا بأسماء وأشكال مختلفة!

وبالعودة إلى الأستاذ سعيد عوض باوزير الذي جمعت في عنوان هذا

المقال بينه وبين (فلسطين والجنوب)، فإنني هنا أود الإشارة إلى أنه كان قد توقف عن الكتابة لصحيفة (الطليعة) منذ منتصف عام 1965م تقريبًا، بل يكاد يكون توقف عن كتابة أي مقالة، خاصة المقالات السياسية، حتى وفاته في 25 أكتوبر 1978م – وإن لي في ذلك لأسوةً حسنة!

11يونيو 2021م

إعادة الحياة إلى كتابات الشقيقَين باوزير

وقراءة الأحداث على ضوئها

خلال ما يقرب من عقدين من الزمان منذ عام 1998م وحتى عام 2017م، شاء الله سبحانه وتعالى لكتابات ومقالات الشقيقين الأستاذين سعيد عوض باوزير وأحمد عوض باوزير أن تظهر تباعا في كتب تحفظ للتاريخ وتتناقلها الأجيال، بفضل الجهود التي بذلها ابنا الشقيقين نجيب سعيد باوزير ومراد أحمد باوزير خلال هذه المدة، وساهم في ذلك أخي الشيخ أمين سعيد باوزير المقيم في عدن فيما يتعلق بكتابات أحمد عوض باوزير في الصحف العدنية. وهذه الكتب هي خمسة نذكر أسماءها فيما يلي مرتبةً حسب تاريخ صدورها:

- الثقافة وسيلتنا إلى الكفاح، لسعيد عوض باوزير، (1998م)
- معارك الأحرار، لسعيد عوض باوزير، (2002م)
- الطليعة تقول.. سلسلة مقالات افتتاحية صحيفة (الطليعة)، لأحمد عوض باوزير، (2013م)
- مقالات أحمد عوض باوزير في الصحف العدنية (النهضة– الرقيب– الأيام)، (2015م)
- مقالات وحوارات واستطلاعات الأستاذ أحمد عوض باوزير في صحيفة (الطليعة)، (2017م)

وما أقصده بقراءة الأحداث هو الصراع الذي يدور الآن في المنطقة، والذي لا يبدو له حتى الآن أي أفق واضح، إذ يبدو أن التاريخ يعيد نفسه كما

يقال، ولذلك سأركز على فترة منتصف الستينيات التي أرى أنها تشبه إلى حد كبير، في خطوطها العامة على الأقل، التفاعلات الجارية حاليا في منطقتنا. ولقد كان الأستاذان باوزير ينظران إلى الأحداث بوعي وبصيرة نافذة وينطلقان من رؤية وطنية واحدة، تنحاز بطبيعة الحال إلى معاني التحرر الكامل والاستقلال الصحيح البعيد عن التبعية، وتتطلع إلى مستقبل زاهر للبلاد ينعم فيه الشعب بالاستقرار والرخاء، ولندع جانبا هنا البعد القومي الذي كانا يؤمنان به ويفكران فيه، لأن القراءة الحالية التي نتوخاها أكثر التصاقا بالهم المحلي. وسيقتصر دوري في هذه القراءة على نقل بعض الاقتباسات – دون تعليق – مما كتبه سعيد عوض وأحمد عوض في هذه الفترة القصيرة التي أشرت إليها، والتي ربما لا تتعدى السنتين فقط، تاركا للقارئ الكريم أن يستخلص ما يشاء أو ما يتوصل إليه من أحكام!

سأبدأ بما كتبه رئيس تحرير (الطليعة) أحمد عوض باوزير. فقد نُشر في كتاب المقالات والحوارات والاستطلاعات مقاله بعنوان (أسئلة يجب أن تثار.. ماذا بعد مؤتمر لندن الدستوري)، الذي يحمل تاريخ 11 يونيو 1964م، وكان مما جاء فيه:

"وهناك الآن علامة استفهام كبيرة حول حقيقة الموقف في هذه الحكومات غير الداخلة في الاتحاد الفيدرالي (ونعني بها حضرموت والمهرة). لقد كانت هناك علامة استفهام حول الأسباب التي حدت ببريطانيا إلى إبقاء حضرموت خارج الاتحاد وامتناعها عن مزاولة أية ضغوطات على هذه الحكومات للانضمام إلى الاتحاد. لكن علامة الاستفهام هذه اتسعت دائرتها الآن حتى أصبحت لغزا يحير الأذهان للوهلة الأولى على أقل تقدير، فإن اجتماعا دستوريا كالاجتماع الذي يعقد الآن في لندن، يناقش المستقبل السياسي لعدن وما يسمى بالاتحاد ويقرر مصير هذه المنطقة لسنوات طويلة..

ثم لا تدعى إليه الحكومات غير الداخلة في الاتحاد والخاضعة للحماية البريطانية، إن مثل هذا العمل ليس بالعمل العفوي كما يخيل لبعض البسطاء، بل هو في واقع الأمر صدى لخطة بريطانية مرسومة ما زالت خطوطها غير واضحة تماما وإن كانت بعض مقدماتها قد أخذت في الظهور شيئا فشيئا."

وفي كتاب (الطليعة تقول) نُشرت الافتتاحية التي كتبها رئيس التحرير لصحيفته في العدد الذي حمل تاريخ 10 مارس 1966م، وكانت بعنوان (معنى هذا الاختيار الصعب). وسأقتبس من هذه الافتتاحية فقرتين، تقول الأولى:

"إن الاستعمار البريطاني يريد لنا أن نقبل مقترحاته الدستورية وأن ننضم إلى جمهوريته السلاطينية المزيفة، وإلا فإنه يتهددنا علانية، وعن طريق مندوبه السامي بأن يطبق الأرض والسماء علينا ويحرك صنائعه من حولنا ليمارسوا ضدنا ضغوطا اقتصادية وتحركات مريبة وخيانات عفنة، ليضطرونا للركوع وليعيدونا سيرتنا الأولى إلى ركاب الاستعمار وعملائه."

وتقول الفقرة الثانية:

"... وإن الضمانات الوحيدة للتغلب على تلك المتاعب هي في وحدة هذا الشعب وتماسكه أفرادا وجماعات. علينا أن نحرص على وحدة الصف. علينا ألا نستهين بأحد خصوصا في هذه المرحلة الدقيقة الصعبة التي تتطلب تضافر الجهود وتناسي الخلافات الجانبية والحزازات القديمة. إن الشعب الحضرمي، بدوه وحضره، ضباطه وجنوده، عماله وفلاحيه، وتجاره ومثقفيه، مطالبون اليوم بأن يكونوا جميعا صفا واحدا وألا يدعوا للخلافات أن تفرقهم والنعرات القبلية أو الحزبية أن تمزقهم."

والآن نعود إلى كتاب المقالات والحوارات والاستطلاعات لنعثر فيه على مقال كتب بتاريخ 31 أغسطس 1966م، أي بعد أقل من ستة شهور من

الافتتاحية التي اقتبسنا منها للتو، وقبل عام واحد تقريبا فقط مما سمي بسقوط المكلا، عاصمة حضرموت، في يد ثوار الجبهة القومية. كان هذا المقال بعنوان (مرة أخرى: إلى أين نحن سائرون؟)، ومما جاء فيه، والكلام خاص بحضرموت طبعا:

"... ومر بذهني شريط قاتم لأحداث بلادي.. ومشاكل بلادي.. وانتبهت على صوت صديقي، كمن يوقظني من حلم مزعج كئيب، وهو يقول: ماذا جرى لك يا صديقي؟ ما سر هذه الكآبة التي اعترتك؟ أراك قد اكفهر وجهك وجفت بسمتك. وقلت لصديقي متنهدا: هذا ما يحيرني يا صديقي.. إننا هنا في منطقة انعدام الوزن تماما كما ذكرت. لا أحد يدري أين نقف الآن وما هو حجمنا الطبيعي بالنسبة لرقعة الشطرنج التي تحركها الأيدي الخفية من وراء الستار، أو ما هو مكاننا الحقيقي في هذه المنطقة اللاهبة الثائرة، وإلى أين نسير؟"

وننتقل الآن إلى سعيد عوض باوزير. وأنا أحتفظ في مكتبتي بكتاب عنوانه (اتحاد الجنوب العربي)، وهو من الكتب القليلة التي آلت إليّ من مكتبة والدي، وقد حرصت على الاحتفاظ به لاعتقادي أنه من الوثائق التي قد تدعو الحاجة إليها يوما ما. ومؤلف الكتاب هو الأستاذ صلاح البكري صاحب كتاب (تاريخ حضرموت السياسي)، الذي ترك لي والدي منه أيضا نسخة قديمة مهترئة أفادتني كثيرا في أبحاثي ومقالاتي. الكتاب ليس عليه سنة نشر، لكن المؤلف – رحمه الله – ذيّل مقدمته للكتاب بتاريخ سنة 1384 هـ، 1965م، إلى جانب اسم (جدة)، مكان كتابة المقدمة. وكتب في صفحة الإهداء: إلى ابني وائل.

رد والدي الأستاذ سعيد عوض باوزير، رحمه الله، على هذا الكتاب بمقال

مستفيض في صحيفة (الطليعة) – نشر لاحقا في كتاب (معارك الأحرار) – في العدد 298 الصادر 6 مايو 1965م. وهذا المقال من المقالات الأخيرة التي كتبها والدي في (الطليعة)، إذ توقف عن الكتابة بعد آخر مقال كتبه ونشر بتاريخ 20 مايو 1965م. كان هذا المقال الرد بعنوان (كاتب حضرمي يدعو إلى الاتحاد الفيدرالي)، وسأنقل أجزاء قليلة منه في نهاية هذا المقال تغني عن نشره كاملا لأن مقالات الطليعة أصبحت متداولة الآن ويستطيع من أراد الاطلاع على المقال كاملا أن يعود إليها.

ولكن سأبدأ أولا بعرض شيء مما ذكره صلاح البكري في كتابه، إذ قال في مقدمة الكتاب:

"الجنوب العربي كلمة واسعة مطاطة يمكن أن تشمل – عدا السواحل الجنوبية لشبه الجزيرة العربية – اليمن وعسير والربع الخالي وحزاما من أرض صحراوية .... وإنما المقصود بها ذلك الجزء الجنوبي الغربي والشرقي الذي يمتد من باب المندب إلى رأس مسندم عند مدخل الخليج العربي، والذي يحده من الشمال اليمن والربع الخالي، ومن الجنوب المحيط الهندي أو بحر العرب. (لاحظ كيف أدخل البكري عُمان كلها في مفهومه – السياسي– الخاص للجنوب العربي وأخرج منه اليمن)!"

ثم قال البكري مباشرة بعد الفقرة السابقة:

"في هذا الجزء من البلاد العربية يقوم ضربان من الصراع العنيف:

أحدهما حركات ثورية مسلحة للتخلص من السيطرة الأجنبية .

والآخر كفاح ونضال مع الحياة للحصول على الغذاء والكساء والاستقرار".

وربما تأثرا بالتقسيم البريطاني للجنوب بمفهومه المحدود إلى محمية غربية ومحمية شرقية، يقسم البكري الجنوب العربي بمفهومه الواسع الذي نقلناه عنه للتو إلى: 1– الجنوب العربي (الغربي)، وهو الجنوب المعروف الذي يدور حوله الصراع الآن، و2– الجنوب العربي (الشرقي)، ويقصِد به ما تعرف الآن بسلطنة عمان .

وسأنقل الآن فيما يلي عن مقال والدي. قال سعيد عوض باوزير في أول فقرة من مقاله:

"في كتيب يقع في نحو مئة صفحة عنوانه (اتحاد الجنوب العربي)، دعا مؤلفه الأستاذ صلاح البكري بكل بساطة وصراحة وبدون أي تحفظ إلى تأييد الاتحاد الفيدرالي المزيف للجنوب العربي، وإلى انضمام حضرموت إلى هذا الاتحاد.. بل وأبدى أسفه لأن المساعي التي بذلت لربط حضرموت بعجلة الاتحاد لم تكلل حتى الآن بالنجاح".

وبعد أن ناقش الأستاذ باوزير المؤلف البكري في بعض النقاط المحددة، ختم مقاله بما يلي:

"كل هذا لا يهم الأستاذ البكري، وإنما يهمه تأييد فكرة الاتحاد أو الوحدة في الجنوب، من أي جهة أتت، ومهما كان شكلها أو لونها.. ودون أي اعتبار لما تنطوي عليه من مزالق وأخطار .

الواقع أنه حتى الذين يحسنون الظن بالأستاذ صلاح لم يستطيعوا أن يتبينوا الأسباب التي دفعت به إلى تأييد خطة استعمارية مكشوفة يقصد بها تقييد انطلاقة الشعب في الجنوب وتعويق مسيرته نحو الحرية الكاملة والاستقلال الصحيح والوحدة الحقيقية!"

29 يناير 2022م

تداعيات عن البكارة والموت والخريف

(1)

تعرفت إلى الأخ العزيز أبوبكر محسن الحامد لأول مرة في عدن من خلال زمالته لابن عمي وابنة عمي في كلية التربية بعدن أواخر السبعينيات من القرن الماضي. اقتربنا روحيا أحدنا من الآخر من الوهلة الأولى نظرا لميولنا المشتركة المتعلقة بالأدب والشعر، ولعلي التقيت به للمرة الأولى في بيت عمي نفسه الشاعر المعروف محمد عوض باوزير، وهو البيت الذي يقع في الخساف قريبًا جدًا من الموقع الذي كان يحتله باب عدن الشهير– وكان يعلوه قديما عقد مبني من الحجارة له صور ما زالت يُحتفظ بها – على العقبة التي تنحدر الطريق منها إلى المعلا من ناحية وإلى كريتر وشارع الملكة أروى من الناحية الأخرى.

في ذلك اللقاء الذي جمعني بالأخ أبوبكر عرضت عليه كراسة سجلت فيها بعضا من محاولاتي الشعرية الأولى، ومنها قصيدة بعنوان (ليلة الحب) أقول فيها:

في سكون الظلام والليل ساجِ هوّمت في الخيال ذكرى السياج
وذكرت اللقاء ليلة كنا في انشغالٍ عن ليلنا الموّاج
هي في ثوبها الرمادي تخطو نحو درب الهوى منار ابتهاج
وأنا في الظلام أعزف لحني للعيون التي أضاءت فجاجي

وقد نشرت هذه القصيدة فيما بعد ضمن أشعار ديواني الأول (حلم الشاعر) الذي طبع في دار الهمداني بعدن، وهنا عليّ أن أذكر أن البيت الثالث كان مكسورا عندي، لأنني كنت مبتدئا وغير دارس للعروض ولكن

أحتكم في النظم إلى سليقتي الموسيقية التي قد تخون أحيانا، فقد كان الشطر الثاني من البيت هكذا: نحو درب الهوى في ابتهاج، فقام الشاعر العراقي المعروف سعدي يوسف – الذي كان آنذاك هو الذي يقوم بإجازة الدواوين الشعرية في دار الهمداني– بوضع كلمة (منار) بدلا من (في) ليستقيم الوزن، ولعله اختيار موفق! المهم أن الأخ أبوبكر الحامد علق على هذه القصيدة بأن كتب بخطه الجميل على نفس الكراسة:

ما الذي كان ليلةَ الغيل حتى قلتَ فيها النسيب والأشعارا؟

وهذا البيت طبعا من بحر الخفيف نفسه الذي كتبت به القصيدة. ولكن العجيب أنني ظننت حينها أن هذا البيت قاله أبوبكر ارتجالا من تأليفه، خاصةً أنه ترد فيه كلمة (الغيل) وهو اسم مدينتي التي يشار إليها أحيانا هكذا مجردة وأحيانا أخرى تسمى باسمها الأصلي الكامل (غيل باوزير). ولعلي لم أكن قد اطلعت على مسرحية (مجنون ليلى) لأمير الشعراء أحمد شوقي، التي ورد فيها هذا البيت على لسان والد ليلى موجها كلامه إلى قيس، إذ الغيل قد لا تعني موضعا بعينه وإنما مكانا أشبه بالواحة فيه شجر وفير وماء غزير، ومن هنا جاء اسم مدينتي الحبيبة، غيل باوزير. وكان الرد الذي وضعه شوقي على لسان قيس على النحو التالي:

لم تكن وحدها ولا كنت وحدي إنما نحن فتية وعذارى
جمعتنا خمائل الغيل بالليل كما يجمع الحمى السُمّارا
ليس غير السلام ثم افترقنا ذهبت يمنةً وسرت يسارا

(2)

ابن عمي الذي تعرفت إلى أخي وصديقي أبوبكر الحامد من طريقه هو

الفنان خالد محمد عوض باوزير، إذ نشأ محبا للفن وتعلم العزف على العود منذ صغره، وكان قد أصبح نجما معروفا يطلب لإحياء حفلات السمر والأعراس وسجلت له بعض الأغاني في الإذاعة والتلفزيون قبل أن يخترمه الموت غريقا في ساحل العروسة بعدن، وكان رحمه الله يتأهب لدخول عش الزوجية، ولكن شاء الله أن يزف شهيدا إلى جنة الخلد بإذن الله .

كان خالد قبل وفاته قد حصل على شهادة بكالوريوس آداب من كلية التربية العليا بعدن، وفي الوقت نفسه حصل على شهادة دبلوم في الموسيقى من المعهد الذي كان يسمى معهد جميل غانم إذا لم أكن مخطئا أو لعله سمي بهذا الاسم بعد رحيل الفنان جميل غانم الذي كان من دعائم المعهد وربما كان مديرا له عندما كان خالد يدرس فيه. وكان عمي الشاعر الظريف يقول مازحًا عن ابنه خالد إنه أحرز الشهادتين، كما يقال عن الشخص الذي يدخل الإسلام إنه نطق بالشهادتين! رحمهما الله.

وعلى الرغم من أن عمي محمدا لم يكن في قرارة نفسه مرتاحا لانشغال ابنه خالد بالفن والطرب ثم اشتغاله به بعد ذلك، فإنه رضخ في نهاية المطاف للأمر الواقع. كان الأستاذ محمد عوض باوزير أحد الأشقاء الأربعة الذين تشربوا الثقافة منذ نشأتهم الأولى في غيل باوزير وكان أكبرهم سنا ورائدهم على هذا الطريق الجميل والجليل والدي (المفكر) سعيد عوض باوزير رحمه الله. كان أبو خالد، وخالد هو ابنه البكر، يتمنى لابنه أن يكون شيئا كبيرا في أي مجال من مجالات العلم والدراسة ثم العمل فيما بعد، ولذلك ابتعث خالدا وهو صغير في الإعدادية إلى الجمهورية العربية السورية، ولكن للأقدار دائما حكمها الذي لا يدري كنهه إلا الملك الجبار الواحد القهار. وعندما مات خالد تفجرت في نفس الشاعر ينابيع الحنان واللوعة نحو ابنه وربما أحس بشيء من وخز الضمير لأنه – كما هو العرف السائد

مجتمعيا– لم يكن يرى الفن شيئا ذا بال وكان يتمنى لابنه مستقبلا مختلفا كما أسلفنا، ولذلك كتب في رثائه عشر قصائد ضمها مطبوعة على الآلة الكاتبة في كراسة عمل منها عددا من النسخ ووضع على غلافها صورة المرحوم خالد مع هذه الكلمات: "في ذكرى الأربعين لوفاة الفقيد الفنان الراحل المرحوم: خالد محمد باوزير المتوفى بالبحر غرقا يوم الجمعة 14 أغسطس 1981م"، وتتصدر الكراسة مقدمة كتبها العم محمد تلخص سيرة الفنان الراحل، كما تضم إلى جانب قصائد والد الفقيد قصائد رثاء لثلاثة من الشعراء، أولاها للشاعر أبوبكر محسن الحامد، والثانية لكاتب هذه السطور بعنوان (خلود الفن)، وهي موجودة في ديواني الأول (حلم الشاعر)، والأخيرة قصيدة عامية للشاعر سعيد محمد بن هاوي باوزير. وهذه مرثاة الدكتور أبوبكر الحامد التي وعدته أنني سأوردها كاملة في هذا المقال، إذ كنت قد سألته عنها وغاب عن بالي أنها موجودة في كراسة مراثي خالد التي أحتفظ بها، وإلى هذا فهي من أشعار البكارة التي تهتم بها هذه المقالة :

يا أبا خالد عزاءً عزاءً واصطبر فالقضاء أمضى وقدّر
كلما واجه الصبور بلاءً لاذ بالصبر فالمصيبة أيسر
أنت تدري بأن من مات يحيا في غد فالحياة جسر لآخر
فأعن أمه الحنون بقلب ثابت في الهموم تلقاه أصبر
وأعن إخوة صغارا مناهم أن يلاقوك من همومك أكبر

خالد والشباب بذرة حلم كنت ترويه بالعناء ليخضر
أو تمضي والغصن ما زال غضا؟ واقتبال الشباب ما زال أنور؟
كم بعثت الأماني تلو الأماني فإذا الموت فوق ما نتصور
وإذا خطوُنا بليلٍ كسِرّ الموت أيّان سِرّه سيُفسّر؟

(3)

لا شك – كما يعرف من يتابعون ما أكتب – أن البداية لكل هذه (الهيصة)، والتداعيات المرتبطة بالموت، كانت عندما وضع الدكتور أبوبكر الحامد منشوره، المرفق بصورة، الذي أشار فيه إشارة عابرة إلى وفاة الشاعر عوض ناصر الشقاع رحمه الله. وتصادف أن كان لي في الوقت نفسه منشور في الفيسبوك استعرضتُ ونشرتُ فيه قصيدة رثائية جميلة للشاعر سعيد محمد بن هاوي باوزير. وقد علق صديقنا أبوبكر الحامد على المنشور مشيدًا به، ثم عرّج على موضوع رثاء النفس، وذكر بعض الذين رثوا أنفسهم من الشعراء، ثم قال: "ولي قصيدة بهذا السياق". فرددتُ عليه قائلًا: والمازني – وأقصد به الأديب الكبير إبراهيم عبدالقادر المازني – رثى نفسه أيضًا، ثم أوردت مطلع أبيات كنت قد سجلتها في الدفتر الذي اعتدت أن أسجل فيه الأشعار والقصائد التي تعجبني، وذلك في زمن الصبا الغابر، إذ يقول المطلع:

قضى غير مأسوف عليه من الورى فتىً غرّهُ في العيش نظم القصائدِ

ومعروف أن المازني بالرغم من أنه اشتهر بكونه أديبا ساخرا، فإن شعره الذي كتبه في مطلع حياته الأدبية، ثم انصرف عنه إلى كتابة الرواية، كان شعرا يتميز بغلبة طابع الحزن والسوداوية وذكر الموت. وقد ختم المازني أبياته تلك بهذا البيت:

فلا تندبوه إنه ليس بالأسى خليقًا ولا أهل الهموم العوائدِ

وعلى الرغم من أنني كنت في ذلك الوقت في العقد الثاني من عمري فقط، فقد كنت أتقمص نفس شعور الحزن والسوداوية ورثاء النفس الذي تنطوي عليه مثل هذه الأشعار، وكنت قد بدأت منذ ذلك الوقت أولى محاولاتي الشعرية، وهي محاولات لا تخلو من طابع الحزن الذي يميز المرحلة الرومانسية

المبكرة التي يمر بها تقريبًا كل الشعراء في ذلك العصر وربما في كل عصر.

وفي نفس ذلك الدفتر الذي سجلت فيه أبيات المازني سجلت في صفحاته الأخيرة قصيدتين للشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي أظن أنهما وردتا في ديوانه الأول (مدينة بلا قلب). وقد أعجبت كثيرًا بتينك القصيدتين لأنهما كانتا تزخران بتلك المعاني والأحزان الرومانسية التي كانت تستهويني آنذاك، بل أشار في كلتيهما الشاعر صراحةً إلى تأثره، مثلي، بما كان يقرأه من الشعر والروايات، بغض النظر عما إذا كانت إشارته تلك واقعية أم مجرد حيلة أو حلية فنية فقط. وسأورد هنا شيئا مما ورد في هاتين القصيدتين.

كان عنوان إحدى القصيدتين (كان لي قلب)، ويقول الشاعر حجازي في مقطعها الأول:

على المرآة بعض غبار
وفوق المخدع البالي روائح نوم
ومصباح صغير النار
وكل ملامح الغرفة
كما كانت مساء القبلة الأولى
وحتى الثوب، حتى الثوب
وكنتِ بحافة المخدع
تردين انبثاقة نهدك المترع
وراء الثوب
وكنت ترين في عيني حديثا كان مجهولا
وتبتسمين في طيبة
وكان وداع
جمعت الليل في سمتي

ولفقت الوجوم الرحب في صمتي
وفي صوتي
وقلت وداع
وأقسم لم أكن صادق
وكان خداع
ولكني قرأت رواية عن شاعر عاشق
أذلته عشيقته فقال وداع
ولكن أنتِ صدّقتِ

كان ديوان (مدينة بلا قلب) لعبدالمعطي حجازي ومثله ديوان (الناس في بلادي) لصلاح عبدالصبور – وكان الشاعران يقترنان في ذهني دائمًا – من الدواوين التي أسست لحركة الشعر العربي الحديث وما يسمى شعر التفعيلة. أما القصيدة الثانية التي سأجتزئ منها الآن فعنوانها (العام السادس عشر)، وهو نفس السن تقريبًا الذي كنت فيه آنذاك، وفيها يقول الشاعر في المقطع الثاني:

عامي السادس عشرْ
يوم فتّحتُ على المرأة عيني
يومها واصفرّ لوني
يومها درتُ بدوامة سحرْ

وقد توقفت أنا – يومَها – طويلاً عند صورة أو حركة رد انبثاقة النهد (المترع) في القصيدة الأولى، وأعجبت بهذا الوصف الذي أعطاه الشاعر للنهد، والذي استعاره ببراعة من الكأس المترعة بالخمر. وفي مقطع آخر من القصيدة الثانية أورد الشاعر البيتين اللذين تبدأ بهما قصيدة (الأطلال) لإبراهيم ناجي، التي غنتها بعد ذلك أم كلثوم: يا فؤادي رحم الله الهوى...إلخ.

وكيف أنه كان يسهر الليل مع مثل هذه الدواوين والأشعار. وقد أصدر حجازي فيما بعد كتابًا عن إبراهيم ناجي ضم مختارات من شعره مما يدل على تأثره به فعلًا، في حين أصدر صلاح عبدالصبور كتابًا مماثلًا عن علي محمود طه. وبعد هذا المقطع الذي أشرت إليه للتو، يأتي هذا المقطع:

كنت أهوى هؤلاء الشعراء
أتسامى فوق غيم نسجوه
أتمطى في بخور أطلقوه
وأرى الحب شرودًا وتهاويم وحزنا
والمحب الحق من يهوى ويفنى
وعميق الحب حب لم يتم
ليقولوا يا للحنٍ لم يتم

(4)

في سياق حوارنا – أبوبكر الحامد وأنا – على وسائل التواصل الاجتماعي جرنا الحديث إلى ذكر الشاعر الكبير صالح بن علي الحامد. وهنا سألت أخي وصديقي أبوبكر: هل لك علاقة قرابة مباشرة مع الشاعر الكبير صالح الحامد؟ ففاجأني بمعلومة لمت نفسي على أنني لم أكن أعرفها ولم يخطر ببالي أن أسأل عنها طوال كل هذه السنين التي عرفت فيها أبوبكر محسن الحامد. قال لي "إن صالح الحامد عمي، شقيق الوالد."

لقد مات الشاعر والمؤرخ والشخصية الاجتماعية البارزة صالح بن علي الحامد في 13 يونيو 1967م، وقبل وفاته رحمه الله كان قد أشرف واتفق على طباعة كتابه (تاريخ حضرموت)، ولكن الكتاب لم يصدر إلا بعد وفاته وأتذكر أن والدي تلقى نسخة هدية من هذا الكتاب عند صدوره في أواخر

الستينيات. والرجلان لم يطل بهما العمر وماتا في عمرين متقاربين، فقد مات الحامد وعمره خمسة وستون عاما، ومات والدي وعمره ثلاثة وستون عاما. وهنا أتذكر حديث رسولنا محمد صلى الله عليه وسلم: "أعمار أمتي ما بين الستين إلى السبعين"، وأجدني على مشارف السبعين ويخطر ببالي عدد من زملاء الدراسة الذين سبقوني إلى الدار الآخرة ونزلوا عن القطار في محطات ومراحل مختلفة، فأحمد الله على أن كتب لي أن أبقى إلى هذا العمر محتفظا بشيء من العافية، وأطلب إليه سبحانه وتعالى أن يمد في عمري ويحفظ عليّ صحتي وييسر لي حسن العمل وحسن الخاتمة فقد قال سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الآخر: "خيركم من طال عمره وحسن عمله".

(5)

إن خريف العمر– كما يسمونه – ليس إلا لونا آخر من ألوان تجدد الحياة، بالضبط كما هو خريف الطبيعة، وليس شرطا أن يرتبط بالمعاني السلبية التي يعرفها عنه كثير من الناس والتي ربما رسختها بعض أشكال الثقافة السائدة. وعلينا بدلا من ذلك أن نزرع في النفوس المعاني الإيجابية المرتبطة بهذه المرحلة من الحياة، وديننا الإسلامي الحنيف يشجعنا ويحثنا دائما على بث الأمل والتفاؤل وتغليب حسن الظن بالله وما يخبئه لنا المستقبل، مهما كانت الظروف الخارجية المحيطة. ولعل الاشتغال بالفكر والتأمل يوفر لنا جوا وزادا يعيد إلى نفوسنا وعقولنا التوازن ويحتفظ للعقول بالنشاط والتوقد إلى مراحل متأخرة من العمر، ويجنبها ما يعرف بالخَرَف.

وللخريف في ثقافتنا الشعبية المحلية، خاصة في الماضي القريب الذي عشناه، نحن الستينيين، مع منتصف القرن الماضي وما بعده بقليل، معان إيجابية توحي بالهدوء والسكينة والراحة النفسية، عندما كان هذا المصطلح يرتبط

بما يسمى (الظعينة)، وهو الانتقال من مناطق السكنى الرسمية الدائمة إلى المناطق الريفية القريبة والبقاء هناك طوال فصل الصيف إبان إثمار أشجار النخيل بألوان الرطب اللذيذ الأحمر والأصفر، حتى لقد أصبح يطلق على هذا الرطب في اللهجة الشعبية اسم (الخريف). ونحن الآن، في أواخر شهر يونيو، نكاد نكون قد دخلنا في موسم الرطب أو الخريف، وقد بدأت تباشيره تظهر في السوق. وهناك مصطلح في العامية مشتق من البكارة – وأعني بها هنا كما في العنوان كون الشيء بكرا أي في بدايته – يستعمل عادة فِعلا، فيقال: يتبكّر، أي يذوق الإنسان الرطب مع بداية ظهوره ونضجه في النخل.

وكانت عائلتنا وكثير من عوائل مدينتنا غيل باوزير ينتقلون أو (يظعنون) إلى قرية تعرف باسم (الديوان)، تقع إلى جهة الغرب من الغيل. وعلى كثرة الذكريات الحلوة المرتبطة عندي بالظعينة أو (الخُرفة)، وهو مصطلح آخر مرتبط بهذه الفترة مشتق من الخريف، فإن هناك ذكرى مرتبطة بموضوع هذه المقالة، وهي أنني ذاتَ خريف كنت أصطحب معي كتابا ذا حجم صغير على عكس المعروف عن كتب الأطفال من أنها تتسم بكبر الحجم، وكان ذا غلاف سميك وورق داخلي سميك يميل إلى الاصفرار. كان هذا الكتاب عن الشاعر أحمد شوقي وأتذكر أنه كانت في نهاية الكتاب صورة شهيرة للشاعر تجمع بينه وهو في أواخر أيامه وبين المطرب محمد عبدالوهاب الذي كان في مقتبل العمر آنذاك، والاثنان يلبسان الطربوش غطاءً للرأس.

ربطت بين الشاعر أحمد شوقي، الذي كان يلقب بأمير الشعراء، وبين المطرب الصاعد عبدالوهاب علاقة وطيدة، لأن الشاعر كان شديد الإعجاب بصوت عبدالوهاب وأدائه وكان يصطحبه معه في سفراته ويفسح له في مجالسه التي تضم علية القوم ورجال الأدب والفكر، ولكن الأهم من ذلك أن عبدالوهاب لحن وغنى بصوته عددا من القصائد التي كتبها شوقي بعضها

بالفصحى وبعضها بالعامية. ومن أشعار شوقي التي غناها عبدالوهاب تلك المأخوذة من مسرحية (مجنون ليلى) التي كانت ضمن آخر ما كتب الشاعر الكبير في حياته من أعمال أدبية. فقد لحن وغنى عبدالوهاب (أوبريت) يمثل جانبا من المسرحية أدى فيه دور قيس، وشاركته فيه المطربة أسمهان في دور ليلى والممثل عباس فارس في دور المهدي والد ليلى. كما غنى عبدالوهاب أبياتا تأتي في نهاية المسرحية تتكلم عن موضع في نجد يعرف بجبل التوباد شهد ذكريات الحب البريء بين قيس وليلى، ولذلك عُرفت الأغنية باسم (جبل التوباد). والغريب أن الشيخ (جوجل) يذكر (قرية الغيل) وأنها تقع بالقرب من جبل التوباد، وقد بدأنا المقال بإيراد الأبيات التي جاء فيها ذكر الغيل من مسرحية (مجنون ليلى).

وكانت مجلة (الهلال) المصرية قد أصدرت في نوفمبر عام 1968 عددا خاصا عن الشاعر أحمد شوقي، كان من بين مقالاته مقال كتبه الشاعر أحمد عبدالمعطي حجازي بعنوان (شوقي رومانتيكيا)، وكان هذا المقال من أكثر مقالات العدد الخاص التي استهوتني في ذلك الزمن وفي تلك المرحلة من العمر. والمقال طويل لا يتسع المجال لذكر ما فيه من آراء جميلة، ولن أثقل المقال باقتباسات طويلة مما فصل فيه الناقد حجازي. ولكن سأنقل فقط ما قاله عن قصيدة (جبل التوباد):

"سنلاحظ أولا هذا النغم الشجي الوديع الذي يتنفس من أول القصيدة حتى ينتهي في آخرها نهايته المحكمة:

قد يهون العمر إلا ساعة وتهون الأرض إلا موضعا

وسوف نلاحظ أيضا أن الصور واللغة الشعرية أصبحت مألوفة قريبة التناول بعيدا عن ادعاء النبل مما ساعدها على الصدق وبالتالي على أن تدخل

القلب. وسوف نلاحظ أخيرا أن هذه القصيدة لا تفصح عن روح قيس كما تصفه لنا الكتب، وإنما تفصح عن روح شيخ متأمل هزه الصدق فانشرح قلبه للذكرى القديمة وفاض بها لسانه الخجول".

تعالوا نختم المقال بقصيدة جبل التوباد التي هي، كما كتبها شوقي وكما تكلم عنها حجازي، تحمل لي فعلًا نسمات رخية من زمن الصبا الجميل.. أسعد أيام العمر، وأنا في كنف أرأف وأرحم وأحنّ أب وأم، إذ كنت وحيدهما! أسأل الله العلي القدير أن يرحمهما كما رباياني صغيرا، وأن يسكنهما الفردوس الأعلى من الجنة:

جبلَ التوباد حياك الحيا ... وسقى الله صبانا ورعى
فيك ناغينا الهوى في مهده ... ورضعناه فكنت المرضعا
وعلى سفحك عشنا زمنا ... ورعينا غنم الأهل معا
وحدونا الشمس في مغربها ... وبكرنا فسبقنا المطلعا
هذه الربوة كانت ملعبا ... لشبابينا وكانت مرتعا
كم بنينا من حصاها أربعا ... وانثنينا فمحونا الأربُعا
وخططنا في نقا الرمل فلم ... تحفظ الريح ولا الرمل وعى
لم تزل ليلى بعيني طفلة ... لم تزد عن أمس إلا إصبعا
ما لأحجارك صُمًّا كلما ... هاج بي الشوق أبت أن تسمعا
كلما جئتك راجعتُ الصبا ... فأبت أيامه أن ترجعا
قد يهون العمر إلا ساعةً ... وتهون الأرض إلا موضعا

29 يونيو 2020م

بشارة واكيم ورسائل الفيسبوك الخفية

للمطربة المعروفة إسمهان أغنية مشهورة تقول فيها:

إمتى حتعرف إمتى

إني بحبك إنتَ

وقد غنت إسمهان هذه الأغنية في فلم سينمائي شاركها البطولة فيه الفنان الكبير يوسف وهبي في شبابه، كما مثل فيه الممثل الكوميدي اللبناني الأصل بشارة واكيم. وفي سياق الأغنية المذكورة التي ما زالت تذاع حتى اليوم يُسمع صوت بشارة واكيم وهو يقول لجليسه على الطاولة، يوسف وهبي، بينما كانا يستمعان إلى الأغنية: كلام إلِك يا جارة، وقصده أن المطربة كانت تغنيه بكلمات الأغنية، ولكن يوسف وهبي كان سارحا وربما سابحا مع صوت المطربة فاكتفى بأن نظر مستفهما إلى واكيم الذي بادره قائلا: لا، عم بحكي مع حالي!

والعبارة التي قالها بشارة واكيم كان يعني بها البيت الشهير أو شطر البيت الذي يقول: إياكِ أعني واسمعي يا جارة، ولكنه قالها باللبناني حتى يعطيها جرعة أكبر من روح الكوميديا .

وقبل أن أمضي في مزيد من الخواطر والذكريات ذات الصلة أود القول إن ما ذكرني بهذا المشهد التمثيلي ما لاحظته من تبادل لرسائل خفية ملغزة بين المفسبكين، ولكنها ليست رسائل عشق وغرام كما كانت عند الشاعر العربي وعند المطربة إسمهان بل أصبحت رسائل نقد قد يكون قاسيا أحيانا. وهو شيء شاركت فيه أنا شخصيا، إذ تلقيت رسائل ووجهت بدوري رسائل من هذا القبيل. وهي طريقة في النقد تتجنب المواجهة المباشرة ربما تأدبا أو لأسباب أخرى.

ولهذه الطريقة أصل في السنة النبوية الشريفة، إذ عندما كان نبينا محمد صلى الله عليه وسلم يريد أن ينبه أحدا من صحابته إلى خطأ وقع فيه، دون أن يجرحه أو يحرجه أمام الآخرين كان يقول: ما بال قوم أو ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا؟ فيفهم الصحابي الرسالة لأنه هو المقصود بها دون غيره .

ولكن لا أدري إذا كانت كل الرسائل الفيسبوكية التي من هذا النوع تصل إلى العنوان المقصود أو هل تلقى ردا بالمقابل. ولا بأس من القول إن بعض الرسائل ربما لا تكون موجهة لشخص بعينه ولكن أحدهم (يستعنى) كما نقول في العامية، أي يتوهم أنها موجهة إليه. وقد أخبرني أحد الأصدقاء أنه قد يضع منشورا ثم يسارع إلى حذفه خوفا من أن يظن أحد أصدقائه أنه المقصود بذلك المنشور. بالنسبة لي شخصيا إذا اعتقدت أن الرسالة موجهة لي عادة ما أتلقاها بهدوء وربما أبتسم، وإذا رددت فربما لا يكون هذا في نفس الوقت بل بعد فترة تطول أو تقصر عندما أجد الفرصة المواتية والرد المناسب. أما الرسائل التي تصدر مني ففي أحيان قليلة جدا أتلقى ردا أفهمه، وفي بعض الأحيان تستقطب رسالة من هذا النوع اهتماما كبيرا من الأصدقاء الآخرين، وتحصل على إعجابات كثيرة، وقد يفهم البعض منهم مغزاها الحقيقي كما أعتقد!

وبالعودة إلى ذكرياتي الخاصة التي أستعين فيها طبعا بالإنترنت عند الحاجة، فإن الفلم الذي غنت فيه إسمهان تلك الأغنية هو فلم (غرام وانتقام) وهو فلم لم تكمل تصويره بل استعيض عنها بممثلة أخرى لأنها ماتت غرقا في أثناء التصوير في ظروف غامضة، في عام 1944، ورثاها عدد من الشعراء من بينهم شاعرنا وأديبنا الحضرمي الكبير علي أحمد باكثير في قصيدة مطلعها:

غرقت، كيف يغرق النور والحسن وفن الخلود في شبر ماء؟

وأتذكر أن والدي رحمه الله كان يردد هذا البيت أحيانا. وقد أعادت

نشر القصيدة كاملة بنفس (عتباتها) القديمة مجلة (الدوحة) القطرية في منتصف الثمانينيات عندما كان يرأس تحريرها الناقد الجميل الراحل الأستاذ رجاء النقاش رحمه الله. وقد شكلت مجلة (الدوحة) الثقافية في تلك الفترة بداية الظهور والحضور المؤثر لدولة قطر في المجال الثقافي الذي أردفته بعد ذلك بالحضور الإعلامي المؤثر أيضا من خلال إنشاء قناة (الجزيرة) المثيرة للجدل، التي احتفلت قبل أيام بعيدها الحادي والعشرين .

أما بشارة واكيم فقد سمعت والدي أيضا يذكره، كما إن هناك بعض الشواهد الأخرى التي تجعلني أميل إلى الاعتقاد أن والدي ربما يكون قد شاهد بعض الأفلام السينمائية في أثناء مكثه القصير – حوالي سنة – في أسمرا بأريتريا في أواخر الأربعينيات. وكانت أريتريا آنذاك في قبضة الاستعمار الإيطالي، ولعل عاصمتها أسمرا كانت شيئا شبيها بعدن في أيام الإنجليز، في تحضرها وجمالها، وقد ذكرها فان در مولن في كتابه الذي ترجمتُه (وجوه في بلاد العرب)، إذ كان بيساني الإيطالي، وهو أحد شخصيات الكتاب، يقصدها قادما من جدة بين حين وآخر، كما قصدها كريم سوكولوف لغرض الاستشفاء والنقاهة، وهو نفس الغرض الذي قصدها والدي من أجله عندما كان يعاني من مرض الملاريا، ولكنه استغل وجوده هناك في نشاط تعليمي وإسلامي مؤثر .

وبمناسبة إيطاليا والإيطاليين، أو الطليان، كما يفضل والدي أن يسميهم، أختم هذه الخواطر بالإشارة إلى صديق لوالدي اسمه الشيخ سالم عبود بالعمش، لست متأكداً هل تعرف إليه في أسمرا أم في ظروف أخرى ولكنني أذكر جيدا أنه كان يحدثني عن هذا الرجل في نبرة إعجاب واضحة وكيف أنه كان عصاميا وبنى نفسه بنفسه، فبعد أن كان جمّالا، أي أحد أولئك الذين يشتغلون في نقل البضائع على الجمال بين ساحل حضرموت وداخلها، تعلم

وثقف نفسه ذاتيا وتعلم اللغة الإيطالية حتى صار يجيد التحدث بها بطلاقة، ويبدو أن عمله التجاري كان مرتبطا بإيطاليا. وقد استقر المقام بعد ذلك بالشيخ بالعمش في جدة، وعندما زرت والدي في جدة في عام 1973 زرت هذه الشخصية الحضرمية البارزة في مكتبه بجدة، ثم أبلغني والدي بعدها بمدة قصيرة وأنا في البصرة بوفاته وهو يعمل في نفس ذلك المكتب. ولا أظن إلا أن والدي عندما كان يتحدث عن صديقه هذا كان لسان حاله يردد مع علي أحمد باكثير:

إذا ثقفت يوما حضرميا لجاءك آية في النابغينا

8 نوفمبر 2017م

وقفة أمام (بسطة الخامر) بحثا عن (قهوة النشاط)

كتب أخونا وصديقنا العزيز الأستاذ حسين عبدالله بامطرف منشورا يدور حول (بسطة الخامر) التي كانت في الغيل ثم اندثرت، وأشار إشارة سريعة إلى شقيقتها بسطة الخامر التي في المكلا والتي ما زالت قائمة حتى الآن. وعندما ذكر لي الأستاذ حسين أنه يعتزم نشر مقال عن بسطة الخامر الغيلية التي لم أعد أذكر شيئا عنها، انتقل تفكيري على الفور إلى بسطة الخامر المكلية أو المكلاوية وقلت له إن هذه البسطة كان يجتمع أمامها أو قريبا منها بعض المثقفين يتجاذبون أطراف الحديث.

لم تكن عندي معلومة أكيدة عما أدليت به إلى صديقي حسين، ولكنني كنت متأثرا بما ورد في قصيدة لوالدى عنوانها (تحية إلى شلة قهوة النشاط)، إذ توحي هذه القصيدة بأن قهوة النشاط تقع على مقربة من (مسجد السلطان)، كما سماه الشاعر في القصيدة، وهو دون شك المسجد الذي يعرف بمسجد عمر، إذ عمر هو السلطان عمر بن عوض القعيطي الذي بنى المسجد. وتقع بسطة الخامر في ركن من المبنى المقابل للمسجد يحاذي الواجهة البحرية للمسجد ولا يفصلها عن المسجد إلا بضعة أمتار، ولذلك فهي تعد أحد معالم الشارع الرئيسي الذي كان هو الشارع الوحيد في المكلا القديمة، والذي أذكر على وقتي من معالمه الأخرى (مكتبة الشعب) و(المكتبة الوطنية) و(مطبعة المستقبل) – لاحظ أنها كلها معالم (ثقافية) – عندما كانت أمواج البحر تضرب الحاجز الحجري القصير المقام عند حافة الشارع فيكون لرذاذها المتطاير ورائحتها المميزة سحر خاص وأثر منعش يتسلل إلى

(النخاشيش)[1] وإلى شغاف القلب!

عندما فكرت في كتابة مقال يربط بين بسطة الخامر وقهوة النشاط، عقدت العزم على أن أرفق المقال بصور وأعززه بمعلومات موثقة عن البسطة. وفي أول زيارة لي إلى المكلا في شأن خاص جعلت ضمن برنامجي التوجه إلى البسطة، وكان ذلك في مساء يوم الجمعة الموافق 7 فبراير 2020م. وكم كانت سعادتي كبيرة عندما اكتشفت أن الذي كان جالسا في البسطة لخدمة زبائن (التانبول) هو الأخ محمد سالم الخامر حفيد مؤسس البسطة الذي كان يحمل نفس الاسم الثلاثي. وكان موجودا أيضا الأخ زكي سالم عرم الذي هو سبط الجد المؤسس، أي ابن بنته. وفوجئت بالمعلومة التي ذكرها لي الأخ محمد بأن البسطة يعود تاريخها إلى عام 1938م. وعلمت أن بسطة الخامر الغيلية أسسها أخوا محمد سالم يسلم الخامر مؤسس بسطة المكلا، وهما سعيد سالم يسلم وفرج سالم يسلم الخامر. وكان موقع هذه البسطة التي كانت موجودة على أيامنا بجانب دكان الشيخ أحمد عوض جوبان، وهو أحد أعز أصدقاء والدي رحمهما الله. ومن الذكريات التي أحتفظ بها لدكان جوبان هذا، الذي كان من المعالم المهمة لسوق الغيل القديم، أن والدي كان يكلفني أحيانا وأنا صبي بتوصيل أعداد صحيفة (الطليعة) عندما تصل في عصر يوم الخميس وتسليمها إلى أحمد جوبان لبيعها، وبعض هذه الأعداد كانت بأسماء مشتركين، وذلك عندما نكون كلنا مجتمعين على الدكة التي أمام بيتنا القديم في الغيل وهي جلسة والدي العصرية المفضلة خارج (مصوغة) الذهب التابعة لأصدقائه آل بن حصين، وكان يتولى زمامها آنذاك أخونا المرحوم عوض سعد بن حصين (أبو نايف).

---

(1) النخاشيش مفردها نخشوش، من ألفاظ اللهجة الحضرمية، والنخشوش هو أقصى عمق فتحة الأنف!

عندما سألت الإخوة الذين استقبلوني في البسطة عن المقاهي التي كانت مجاورة لبسطة الخامر لكي أتحسس فيها أثر قهوة النشاط التي تكلم عنها والدي في قصيدته، ذكروا لي أنه كانت هناك تلاث مقاهي مجاورة للبسطة، وهي (مقهاية) بازهير – مستعملين هذا الاسم الدارج لكلمة مقهى أو قهوة – ومقهاية باشميلة ومقهاية سالمين خييرة. ويبدو أن مقهاية بازهير هي الأقرب أن تكون هي قهوة النشاط لأنها كما علمت كانت مواجهة تماما للبسطة أي ضمن مبنى مسجد عمر نفسه.

كتب والدي قصيدته بتاريخ 15 يناير 1959م، وهي عبارة عن أرجوزة قسمها إلى مقاطع، وسأختار بعض الأبيات من بعض المقاطع ذات الدلالة، وأعلق عليها إذا احتاجت إلى تعليق. فقال في المقطع الأول:

من مشرق الفجر ومنبع الهدى ... وموطن الأحرار أرباب الفدا
قم مسرعا عند الصباح الباكر ... فكم لدى (السدة) من مسافر
وحي سالمينوف في قهوته ... واشرب إذا أردت من (رُشبته)
واجلس إليه جلسة خفيفة ... تجد لديه نكتا لطيفة

وسالمينوف هو طبعا الظريف الغيلي المعروف سالمين حسين الحضرمي. وقال في نهاية المقطع الثاني بعد أن وصف مراحل الطريق من الغيل إلى المكلا:

وادخل إلى العاصمة المنيعة ... في رحلة طارئة سريعة

وقال في المقطع الرابع الذي ابتداء منه يدخل في صلب الموضوع وهو الهم الوطني والقومي الذي كان يؤرقه:

وبعدما ترتاح عند الظهر ... عرج على السوق بعيد العصر
وقف أمام مسجد السلطان ... وقوف ذي روية يقظان

قف وقفة المفتش المحتاط عن شلة في قهوة النشاط
تصطرع الأفكار في رحابها ويخرج اللؤلؤ من عبابها
وأبحث عن الزعيم بين الشلة الأسحم العملاق رب الصلعة
واطلب لهم شايا على حسابه ووطن النفس على سبابه

والزعيم هنا هو التربوي الأستاذ سالم يعقوب باوزير الذي من المعروف أنه كان أصلع وكان شديد السمرة، ولذلك وصفه بالأسحم. وهذه من مظاهر الدعابة التي كان يحلو للأستاذ باوزير أن يمارسها بالشعر مع أصدقائه، إلى الحد الذي قد يتسبب أحيانا في (زعل) الأصدقاء، ولذلك قال في قصيدة لاحقة كتبها في السعودية:

إن بعض المزح مؤذٍ للصداقات الوفية

وقد أُطلق على الأستاذ سالم يعقوب لقب (الزعيم) بعد حادثة الانتفاضة الطلابية التي حدثت في المدرسة الوسطى بالغيل عندما كان سالم يعقوب مديرا للمدرسة في عام 1958م أي قبل عام من كتابة القصيدة التي قال في المقطع الخامس منها:

وافخر بمن حولك من شباب كالشهب بين كتل السحاب
من بردى والنيل والفرات روافد تزخر بالحياة
تجمعهم ثقافة سليمة وفكرة قومية عظيمة
هم معقد الآمال في هذا البلد وعدة البلاد لليوم الأشد

وأسماء الأنهار التي ذكرها الشاعر في هذا المقطع ترمز إلى سوريا ومصر والعراق وهي البلدان التي ربما بدأ الخريجون الحضارم آنذاك يعودون منها بعد إكمال دراستهم فيها، وكان باوزير يعلق عليهم آمالا كبيرة في انتشال وضع البلاد!

وفي المقطع الأخير من قصيدة (تحية إلى شلة قهوة النشاط) ذكر الشاعر اسمين يرمزان إلى الشيوعية كنت أظن أنه اخترعهما اختراعا، ولكن الباحث الأستاذ أنور باكركر في رسالته للماجستير المعنونة (سعيد عوض باوزير أدبه ونقده) وجد بالبحث والتنقيب أن بولجانن وميكويان اسمان لسياسيين روسيين عاصرا الحقبة الستالينية في الاتحاد السوفييتي، وقد تأكدت من ذلك عندما عدت إلى الإنترنت. يقول الأستاذ باوزير محذرا في ختام قصيدته:

قل دافعوا عن نهضة العروبة واخشوا سموم فكرة مجلوبة
واحموا حمى الأبطال من قحطانِ من شر بولجانن وميكويانِ
ومن شرور الغرب كونوا في حذر حوادث التاريخ ملأى بالعبر
وقل متى يُحقّقُ الحلم متى؟ إلى متى إلى متى إلى متى؟

وما زلنا حتى يومنا هذا نقول: إلى متى؟!

9 فبراير 2020م

قصتي مع القصة القصيرة

بصفتي هاويا للأدب ومولعا بالقراءة كان لا بد أن أتعرف منذ وقت مبكر على فن القصة القصيرة وهو فن مستحدث جاءنا من الغرب. أعجبت واستمتعت ببراعة كثير من الأدباء العرب والأجانب في نسج خيوط قصصهم القصيرة وذهبت أبحث عن مجموعاتهم القصصية وأقرأها باللغتين العربية والإنجليزية. وليسمح لي القارئ أن أعدد هنا أسماء بعض الكتاب الذين قرأت لهم ليس من باب التباهي ولكن من باب الشعور بالعرفان والامتنان لما استفدته منهم على صعيد المتعة الأدبية والتربية النفسية والعقلية. وهم كما تأتي أسماؤهم على بالي دون خطة مقصودة في الترتيب: محمود تيمور، يحيى حقي، يوسف إدريس، عبدالسلام العجيلي، سميرة عزام، ديزي الأمير، عبدالله سالم باوزير، أنطون تشيخوف، ويليام سومرست موم، إدجار آلان بو، جي دي موباسان. وهؤلاء هم البارزون، أو بعضهم، الذين امتازوا بكتابة القصيرة القصيرة وتميزوا في كتابتها، وهناك غيرهم ممن مارسوا كتابة القصيرة القصيرة إلى جانب تميزهم في جنس آخر من الأجناس الأدبية كنجيب محفوظ الذي كان روائيا في الأساس. وفي أواخر الستينيات أو بداية السبعينيات من القرن الماضي خصصت مجلة (الهلال) المصرية أحد أعدادها للقصة القصيرة وأتذكر أن النصوص القصصية العديدة التي احتوى عليها ذلك العدد قد استهوتني إلى حد بعيد ولعل معظمها كانت لأدباء مصريين من جيل الستينيات. كما احتوى هذا العدد على قصة قصيرة جميلة مترجمة عن الإنجليزية بعنوان (الرجل الذي يحب الجُزُر)، وهي للروائي الإنجليزي دي. أتش. لورنس صاحب الرواية الشهيرة

المثيرة للجدل (عشيق الليدي تشاترلي). ومن بين الأعمال الأدبية التي درسناها في آخر سنة من بكالوريوس الأدب الإنجليزي منذ عام ونصف تقريبا قصة قصيرة رائعة للروائي الأمريكي هيمنجواي بعنوان (قطة تحت المطر) أعترف أنني لم أفهم خباياها الفنية والجمالية وأقدرها حق التقدير إلا بعد أن قرأت عنها في الإنترنت عددا من التحليلات النقدية. وقد دفعني هذا الفهم للقصة وأوحى لي بفكرة مقال نشرته في الفيسبوك[1] أسقطت فيه مضمون القصة على الوضع السياسي البائس الذي تعيشه بلادنا في الوقت الحاضر!

لم يقتصر ولعي بالقصة القصيرة على مجرد القراءة ولكنني جربت كتابتها أيضا ونشرت بعضا من محاولاتي، كقصة (اللعبة) التي نشرت في مجلة (آفاق) لسان حال فرع اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين في حضرموت. كما ترجمت عن الإنجليزية بعض القصص ومنها على سبيل المثال قصة (الحلم) للكاتب الإيطالي ألبرتو مورافيا، التي لاقت استحسانا عندما نشرتها في مجلة (آفاق) أيضا. وترجمت قصة (أجافيا)، للكاتب الروسي تشيخوف، التي كانت ضمن مجموعة قصصية له مترجمة إلى الإنجليزية تحت عنوان (السيدة صاحبة الكلب) كنت قد طلبتها من دار نشر بنجوين في بريطانيا ووصلتني بالبريد مع كتابين آخرين. وتحتوي هذه المجموعة على عدد من أشهر وأجمل قصص تشيخوف مثل (عنبر6)، و(الجرادة) وهما من القصص القصيرة الطويلة! وقد استمتعت بقراءتها جميعا في الترجمة الإنجليزية أكثر مما استمتعت بقراءتها في الترجمة العربية التي نشرت في سلسلة (روايات الهلال)، وقد تكوّن عندي دائما انطباع من واقع تجربتي في القراءة أن الترجمة العربية للأعمال الأدبية أو غيرها تخسر شيئا كثيرا أو قليلا من

(1) نُشر هذا المقال ضمن مقالات كتابي (على طريق الوعي).

جماليات النص الأصلي ودقة محتواه إلا فيما ندر .

صديقي إدجار ألان بو

لا أظنني أبالغ إذا وصفت علاقتي بالأديب الأمريكي إدجار ألان بو بالصداقة إذا كانت الصداقة تتضمن من بين عناصرها أو مقوماتها المحبة والإخلاص. لا أتذكر إن كنت قد عرفت بو أولا شاعرا أو كاتب قصة قصيرة. وربما كنت في وقت متقارب تعرفت على هذين الجانبين من جوانب إبداعه الأدبي. فقد كان إدجار آلان بو من الشعراء المهمين في تاريخ الأدب الأمريكي وسابقا على الشاعر الكبير والت ويتمان. وكان أحد رواد فن القصة القصيرة العالميين إلى جانب الروسي جوجول ومن بعدهما الروسي أنطون تشيخوف والفرنسي موباسان. كما كان ناقدا أدبيا خطيرا وصاحب عدد من الخطرات النقدية النافذة التي ربما سبق بها عصره أحيانا.

أشار الناقد المصري الكبير الدكتور محمد مندور إلى الأديب بو في بعض كتبه وعدّه رائدا لمذهب الرمزية في الأدب والشعر بالذات بحيث تأثر به بعض الشعراء الفرنسيين الكبار ومنهم شارل بودلير صاحب ديوان (أزهار الشر). وقد اطلعت على كتاب الدكتور مندور هذا وقرأت فيه الترجمة الكاملة لقصيدة إدجار ألان بو الجميلة بعنوان (الغُراب. The Raven) وأسعدني الحظ ذات مرة بالعثور على كتاب بعنوان (مغامرات وأسرار) في مكتبة الأخ العزيز القاص والروائي الأستاذ صالح سعيد باعامر الذي أعارني الكتاب لأقرأه، وهو كتاب يضم عددا لا بأس به من قصص (الرعب) التي كتبها إدجار ألان بو وترجمتها الناقدة الدكتورة خالدة سعيد وقدمت لها بمقدمة أوردت فيها ما قاله الشاعر الفرنسي بودلير عن إدجار ألان بو. وكان بودلير هو من قدم هذا الأديب الأمريكي إلى الجمهور الفرنسي عندما ترجم عددا من أعماله المهمة إلى اللغة الفرنسية.

ظل هذا الأديب يثير في نفسي الشغف والتطلع إلى قراءة أعماله في نصوصها الأصلية المكتوبة باللغة الإنجليزية. وكان هناك أخ وصديق تربطني به صلة عائلية موجود في الولايات المتحدة للدراسة فطلبت منه أن يرسل لي كتابين من أعمال بو، أحدهما يضم مختارات وافية من كتاباته الشعرية والقصصية والنقدية وروايته الوحيدة المكتملة (حكاية آرثر جوردون بيم)، والآخر يضم قصص الخيال العلمي التي كتبها، فأرسلهما لي هذا الصديق فعلا. وقد أفادني الكتاب الأول بوصفه مرجعا أساسيا لكتابة بحث التخرج في قسم اللغة والأدب الإنجليزيين بجامعة الأندلس، وهنا تتجلى المحبة والإخلاص في أنني عندما طلب مني اختيار موضوع لبحث التخرج قررت على الفور أن أتناول إدجار ألان بو وبالذات قصصه القصيرة التي تتمحور حول فكرة الرعب.

كان المشرف عليّ في بحث التخرج الأخ العزيز الدكتور عبدالله عبدالرحمن بكير، وقد أفادني بتوجيهاته وملاحظاته القيمة وأنجزت البحث الذي كان بعنوان (فكرة الرعب في قصص إدجار ألان بو) The Theme of Horror in Edgar Allan Poe's Tales. ويطيب لي أن أسجل هنا ما يشبه التلخيص لما احتوى عليه هذا البحث.

يتكون البحث من ملخص وثلاثة فصول وخاتمة. الفصل الأول بعنوان (الأدب الأمريكي)، ويحتوي على ثلاثة أجزاء عناوينها كالتالي: (تمهيد تاريخي موجز)، (الأدب الأمريكي قبل وبعد بو)، (عصر إدجار ألان بو). والفصل الثاني بعنوان (حياة إدجار ألان بو وأعماله)، ويحتوي على خمسة أجزاء عناوينها كالتالي: (سيرة موجزة)، (تحليل لشخصية بو)، (شعر بو)، (سرد بو)، (نقد بو). أما الفصل الثالث وهو الفصل الأطول والأكثر أهمية فيتناول بالتحليل ثلاثا من قصص الرعب عند إدجار ألان بو كانت قد استهوتني

كثيرا ووجدتها مناسبة جدا لأن أغوص في خباياها الجمالية والنفسية. وعناوين هذه القصص الثلاث هي: (سقوط بيت أشر)، (قناع الموت الأحمر)، و(برميل أمونتيلادو). وعلى الرغم من أن متعة القصة تكون بقراءتها كاملة فإنني رأيت أن تلخيص إحدى هذه القصص في نهاية هذا المقال يمكن أن يعطي فكرة ما عن طبيعة قصص الرعب عند إدجار ألان بو ومواضيعها. وقد اخترت للتلخيص القصة الأخيرة التي تناولتها في البحث، (برميل أمونتيلادو):

تُروى القصة بصيغة المتكلم، ولذلك لا نعرف اسم الراوي إلا قرب نهاية القصة، وحتى ذلك الحين سنسميه (الراوي). يبدأ الراوي قصته بأن يخبرنا أن فورشناتو كان قد أساء إليه، ولم يكتف بذلك، بل إنه أهانه. وعند ذاك لا بد للراوي أن ينتقم. يلتقي الراوي بفورشناتو الذي كان يلبس لباس المهرجين بمناسبة احتفال كرنفالي في ذلك اليوم وكان قد دخل في حالة من السكر الشديد. يذكر الراوي لفورشناتو أنه ظفر ببرميل من خمر البراندي النادر يسمّى (أمونتيلادو)، ويفصح فورشناتو عن رغبة عارمة في أن يتأكد من أن هذا الذي حصل عليه الراوي خمرة أصيلة. ومن أجل هذا الغرض يذهب مع الراوي إلى مقبرة تحت الأرض أو سرداب موتى يخص عائلة مونتريسور.

يتبادر إلى الذهن أن ذلك المكان الذي قصده الاثنان هو المكان الذي يحتفظ فيه الراوي ببرميل الخمر. ويقود الراوي فورشناتو أعمق فأعمق داخل السرداب وفي أثناء ذلك يعمل على جعله يسكر أكثر فأكثر. كان فورشناتو يكح طول الوقت وكان الراوي يلح عليه أن يعودا من حيث أتيا قائلا له إن المرض قد أخذ منك مأخذا بحيث لا يحبذ لك أن تذهب إلى الأعماق الرطبة للسرداب. ولكن فورشناتو يكتفي بأن يستمر في الحديث عن خمر (أمونتيلادو).

وفي النهاية يدخل فورشناتو إلى ثغرة تسع رجلا واحدا في جدار سرداب لا يمكن وصفه إلا بأنه (مقرف). يقيد الراوي فورشناتو إلى الجدار ثم يبدأ في سد الثغرة عليه بأن يبني عليها حاجزا من الطوب. وعندما لم يبق إلا مكان لبنة واحدة أخذ يعذبه نفسيا حتى عمد إلى التذلل والتوسل إليه أن تأخذه به الرحمة والشفقة. وفي النهاية نعرف اسم الراوي عندما يهتف به فورشناتو: مونتريسوورور. وبعد أن يصرخ باسم مونتريسور لا يجد فورشناتو أي عبارة أخرى يقولها. ولكن قبل أن يضع مونتريسور اللبنة الأخيرة، تُسمع أجراس المهرج التي كان يضعها فورشناتو على جسمه وهي تصلصل. وعندها ينهي مونتريسور عمله ويترك فورشناتو هناك ليموت. وفي آخر جملة من القصة يخبرنا مونتريسور بأن هذه الواقعة قد حدثت منذ خمسين عاما ولم يكتشفها أحد.

21 أبريل 2019م

الضعينة في الديوان

أيام الخريف الساحرة

في السيرة الذاتية (أنا والحياة) للقاص الكبير الراحل عبدالله سالم باوزير، وتحديدا في الجزء الأول منها الذي يحمل عنوان (استعادة الزمن المفقود)، هناك فصل بعنوان (ليالي الخريف الساحرة). يصف الكاتب باوزير في هذا الفصل ذكرياته البعيدة عن (الضعينة) في قرية الديوان، والضعينة مأخوذة من الفعل الفصيح ظعن بمعنى نزح أو انتقل، ولكننا نحن في لهجتنا المحلية عادة ما نقلب الظاء ضادا، وقد فضلت استعمال الكلمة في هذا المقال بنطقها المحلي إمعانا في استحضار الجو بكل إيحاءاته. ودعوني أقتبس من الأستاذ عبدالله افتتاحية فصله هذا الذي يعد من أمتع فصول سيرته الذاتية:

"دأبت بعض الأسر في مدينة غيل باوزير على قضاء فصل الصيف خارج المدينة، خاصة تلك الأسر التي تملك بساتين من النخيل تستدعي التواجد بقربها للإشراف عليها، ولكل فئة من هذه الأسر قريتها. وتقع هذه القرى على الجانب الغربي من المدينة وفي خط واحد لا تبعد القرية عن الأخرى إلا مسيرة عدة دقائق بالأرجل. هذه القرى هي على الترتيب من خروجك من الغيل: الدروع، المخبيّة، القرية، الفُرجة، الديوان".

وكانت أسرتنا (تضعن) في الديوان، وهي أكبر هذه القرى التي عددها الأستاذ باوزير، واستعمال حرف الجر في، هنا – وليس إلى– يشير إلى أن كلمة الضعينة في استعمالنا المحلي أصبحت تدل على عملية السكنى

المؤقتة نفسها، في الديوان، وليس على النزوح أو الارتحال (إليها). وكل هذه القرى ما عدا قرية المخبية تدب إليها الحياة في موسم الخريف فقط، وهو موسم نضج الرطب وجنيه من النخيل، وتظل مهجورة في باقي فصول السنة، وقد وصفها الأستاذ باوزير بطريقته اللماحة الظريفة بأنها بعد انتهاء الخريف وعودة الأسر إلى أماكن سكناهم الأصلية الدائمة تكون أشبه بديكور لقرية انتهى فريق العاملين من تصوير فيلم سينمائي بها!.

ولا بد أن للأستاذ عبدالله باوزير أسبابه في اختيار لفظة (ليالي) ليضيفها إلى الخريف ويصفها بالساحرة، أما أنا فإنني كنت أرى في كل ساعات اليوم – من النهار أو الليل– سحرا وأيّ سحر! ولذلك استبدلت بكلمة (ليالي) كلمة (أيام) في عنوان هذا المقال عن ذكرياتي الشخصية في تلك القرية، التي لا شك أنها ترتبط بفترة الطفولة والصبا بشكل خاص. وأذكر في إحدى السنوات وأنا طفل صغير ربما قبل سن المدرسة أو في بدايتها، وكنت قد علمت أن وقت (الضعينة) قد حان، أنني ألححت على والدي أن نرحل إلى الديوان في التو والحين وكان الوقت ليلا، وعندما رأى والدي ما أنا فيه من الحالة الطفولية العصبية ولتعلقه الشديد بي وخوفه علي، اضطر للذهاب إلى حافة المسيلة ليستدعي السائق عمر بازمالة الذي أتى بسيارته الكبيرة البيك أب ذات (المُقدُم) والوسط و(السطحة) الخشبية الواسعة (المسقوفة) في الخلف، التي كانت هي الموديل الشائع للنقل في تلك الأيام، وتحركنا فعلا ومعنا بعض الأمتعة إلى الديوان في ساعة متأخرة من الليل.

كانت المرحلة الزمنية التي عاصرتها في نشأتي الأولى، وشهدَت مواظبة أسرتنا سنويا على الذهاب للضعينة في الديوان، هي فترة الخمسينيات والستينيات من القرن الماضي، وقد كانت مرحلة خصبة على مستويات عدة اجتماعية وثقافية وسياسية. فقد كانت المدارس الحديثة قد فتحت وكان

الأمن مستتبا ومظاهر الحضارة والانتعاش الاقتصادي قد أخذت تغزو البلاد، وكانت هناك الأنشطة الثقافية والرياضية. وكان كثير من الأهالي وخاصة من الأسر المتعلمة والمثقفة مثل أسرتنا يطّلعون على الصحف والمجلات والكتب ويستمعون إلى الراديو لمتابعة التطورات السياسية والاستمتاع بالبرامج الثقافية والترفيهية والموسيقى. كان بيتنا، هذا الذي تبدو واجهته في الصورة المرفقة مع المقال[1]، يقع في مركز وواجهة القرية وتمتد أمامه ساحة واسعة لا يحدها شيء من جهة الطريق المتجهة إلى الغيل. وكان ملاصقا لبيتنا بيت باضاوي على ما أذكر. ولعل هذا الموقع الممتاز للبيت كان يشعرني بالزهو، إذ كان هو مركز الحياة والحركة – المحدودة طبعا – في القرية، الذي يؤمه سكانها في العشيات والأماسي ويتجمعون في المقهى الذي أمام بيتنا وفي الساحة لتبادل الأحاديث وشرب الشاي والاستماع إلى إذاعة عدن وما تبثه من البرامج وأغاني المطربين الذين بزغوا في تلك الفترة مثل مرشد ناجي ومحمد سعد وبلفقيه وغيرهم. وكان من أهم معالم ذلك المكان المتوسط من القرية دكان العم عامر بن سحاق، رحمه الله، الذي يكاد يكون الدكان الوحيد في الديوان الذي تتزود البيوت منه باحتياجاتها اليومية الأساسية، وكنت أنا أتردد عليه عندما يوصّونني لشراء شيء من هذه الاحتياجات وتأسرني رائحته المميزة، ويقع هذا الدكان على مقربة من بيتنا في ركن الحوش الكبير الممتد الذي يمثل الحد الذي يتعامد مع حد بيتنا ويكتنف كلاهما الساحة الكبيرة المشار إليها، وعندما جمعتني الأقدار بعد ذلك بالأخ المهندس سعيد صالح بلعفير، رحمه الله، وتزاملنا معا في الدائرة الهندسية بالمكلا، علمت منه أن الشيخ عامر بن سحاق هو خاله أخو أمه. وفي الساحة كان الرجال الذين يمارسون لعبة (العدّة) الشعبية في وقت زيارة النقعة عند نهاية

(1) نُشرت الصورة مع المقال في الفيسبوك، وقد آثرت إبقاء هذه العبارة كما هي وعدم حذفها.

الموسم يمكثون برهة ممتدة من الزمن وهم يتراقصون بعصيهم الغليظة التي تسمى (الصُمُل) – جمع صميل – ويدور أحدهم وهو يحمل (المشعال) المتلألئ ويتجمع الناس حولهم للفرجة، وكان سطح بيتنا، ونسميه في لهجتنا الرَّيم، الذي يطل على الساحة يمثل موقعا ممتازا للسيطرة على المشهد و(الفُرجة). وأذكر في إحدى السنوات مع زيارة النقعة أنه عرض في الديوان في إحدى الساحات الداخلية الصغيرة أو الأحواش الفيلم السينمائي (غزل البنات)، الذي يعد من أجمل أفلام السينما المصرية القديمة، وقام بالتمثيل فيه ليلى مراد وأنور وجدي ونجيب الريحاني، الفنان الكوميدي الكبير. ولأن السينما المصرية كانت تعتمد كثيرا على الموسيقى والغناء خاصةً في عصر العمالقة ذاك، فإنه إلى جانب أغاني ليلى مراد الجميلة والمرحة، انتهى الفيلم بأغنية الموسيقار محمد عبدالوهاب (عاشق الروح)، إذ يظهر وهو يؤديها مع الفرقة الموسيقية الكاملة (الأوركسترا)، وبين وقت وآخر كانت كاميرا المخرج تركز على نجيب الريحاني وتُظهر وجهه المعبر وهو يتلون بالانفعالات الحزينة ويغالب دموعه، لأن كلمات الأغنية – التي لعلها وضعت خصيصا لهذا الفيلم – كانت تعبر عن مشاعر (الأستاذ حمام) وهو اسم الريحاني في الفيلم، الذي أحب تلميذته (الشقية) بطلة الفيلم ليلى مراد ولكنه كان حبا ميئوسا منه، لأن البطلة وإن كانت في النهاية قد أحست بعاطفة الأستاذ حمام نحوها وحاولت أن تظهر تقديرها له واعتذارها عما بدر منها نحوه من (شقاوة) واستخفاف، إلا أن مصيرها ما كان له أن يرتبط إلا بالشاب (الحليوة) أنور وجدي؛ ولذلك ختم حسين السيد مؤلف الأغنية كلماتها بهذا البيت، في نوع من العزاء:

وعشق الروح ما لوش آخر
لكن عشق الجسد فاني

وهي نفس حالة الذي لا يستطيع أن (يطول) العنب – بتعبير المطربة

أحلام – فيقول عنه إنه حِصرِم أو حامض!

وكان يقع على مسافة ليست بعيدة من بيتنا منزل القاضي والفقيه الشيخ سعيد محمد برعية، الذي كانت تربطه بوالدي – رحمهما الله – صداقة ومودة غير عادية، وكان هذا الجوار وتقارب المنزلين يعطي فرصة للقاء المتكرر بين الصديقين غير ما كان يتم في الغيل، وكثيرا ما زرت منزل الشيخ سعيد وحدي أو مع والدي، ولكن أكثر وأمتع اللقاءات كانت تتم في الهواء الطلق في العصريات والليالي أمام منزل الشيخ سعيد برعية، حيث كان يُفرش حصير ويجتمع عليه لفيف من الأصدقاء، منهم العم أحمد عوض صاحب ورئيس تحرير صحيفة (الطليعة). ولأن ذكرى تأسيس صحيفة الطليعة كانت تأتي في الصيف متزامنة مع موسم الضعينة والخريف، فقد دأب العم أحمد، رحمه الله، احتفالا بالمناسبة، على أن يذبح رأس غنم كان الأصدقاء يسمونه (تيس الطليعة)، ولأمر ما ارتبط تيس الطليعة في ذاكرتي بتلك الجلسة أمام منزل الشيخ سعيد محمد برعية!

وتنازعني نفسي هنا لأروي ذكرى قد لا تكون مرتبطة بالضعينة بشكل مباشر ولكنني أخشى ألا تسنح فرصة أفضل من هذه لروايتها. فقد كنت بعد رحيل والدي عن الدنيا أحاول بين وقت وآخر أن أزور الشيخ سعيد برعية في منزله بالغيل أو في مسجد (شدّاد) القريب عندما يكون موجودا هناك وحده بعد صلاة العصر، وكان كل منا يأنس بالآخر، كما كنت أشعر، فالشيخ سعيد، بالإضافة إلى علمه الديني واللغوي الغزير الذي تلقاه من رباط بن سلم ومن قراءاته الخاصة بعد ذلك، كان ذا شخصية محببة منطلقة وقريبة إلى قلوب الكثيرين. وأظن أن الشيخ سعيد روى لي أكثر من مرة، وليس مرةً واحدة، حكاية عن علاقة والدي بالعلامة السيد محسن جعفر بونمي، مما يدل على أن هذه الحكاية كانت تمثل له مغزًى روحيا خاصا قد لا ندركه نحن أبناء الجيل

اللاحق (بتوع المدارس)! وقبل أن أدخل في حكاية الشيخ سعيد، يحسُن أن أشير إلى أن والدي أورد نبذة مطولة عن أستاذه في الرباط، السيد محسن، في كتابه (الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي)، بدأها بهذه الفقرة:

"أستاذنا العلاّمة محسن بن جعفر بونمي، ولد بغيل باوزير سنة 1306هـ. وكان من أوائل الطلبة الذين التحقوا برباط الشيخ محمد بن عمر بن سلم عند افتتاحه بالغيل سنة 1320هـ. كما كان من أكثر طلبته حرصًا على دروس أستاذهم الكبير العلّامة ابن سلم والاستفادة منها، ولذلك كان من أكثر الطلبة انتفاعًا به وأوسعهم ثقافة في المجالين الديني واللغوي".

يقول الشيخ أبو محمد – وابنه محمد، رحمه الله، كان زميل دفعتي الدراسية – إنه كان قد لاحظ أن والدي الشيخ سعيد كان يداوم على زيارة السيد محسن في أواخر أيام هذا الأخير بصورة غير عادية، فسأله بنبرة المستغرب من هذا الأمر، وأظنه قالها باللهجة المحلية هكذا: "كَتّك يا شيخ سعيد؟!"، فرد عليه والدي باللهجة المحلية أيضا: "بغينا بانغتمه". والضمير هنا عائد على السيد محسن طبعًا، ولا تعليق! وأنا أتذكر فعلا أن والدي قد اصطحبني ذات مرة – أو لعلها أكثر من مرة – في زياراته تلك للسيد محسن بونمي، وكنا نقطع مسافة طويلة من بيتنا القديم في الغيل المجاور لمسجد النور إلى (مكلة القضب) حيث كان يقع منزل السيد محسن، ونمر في الطريق على (محطّ) البدو بأغنامهم وجمالهم في الساحة التي تشغلها الآن مقبرة فحيل، ولا بد أن المقبرة استحدثت في زمن لاحق بعد زوال المحط و(صروم) البدو ولم تكن موجودة في ذلك الزمان. طبعا لم يعد يحضرني شيء مما كان يدور بين الرجلين من أحاديث أو أنني لم أكن ألقي لها بالا، ولكنني أتذكر، وكان يعجبني، مذاق الشاي الأحمر الذي كان يقدمه لنا السيد محسن في الفناجين الصغيرة. وقد علمت من مدة قريبة فقط أن بيت

السيد محسن الأساسي هو البيت الذي يقع عند حافة سوق الغيل القديم وفي طرف الطريق المؤدي إلى منطقة برّع السدة، وأن بيت مكلة القضب كان أشبه ببيت الضعينة، التي نتحدث عنها في هذا المقال، لأن تلك المنطقة تحتوي على بعض أشجار النخيل، وربما كان السيد محسن يتردد على هذا المنزل طوال أيام السنة، وليس وقت الخريف فقط، ليستجم و(يغير جو)، كما يقال، في ذلك المكان الريفي الجميل. وكما ذكر الأستاذ عبدالله سالم باوزير في فصله عن الضعينة، وكما أعلم أنا، فإن منطقة (المخبية) القريبة من (مكلة القضب) هي الأخرى من مناطق الضعينة التي لا تهجر بعد موسم الخريف بل تظل معمورة بالسكان طوال أيام السنة. ومعروف أن المخبية كانت تحف بها كثير من بساتين النخيل، ومنها بستان كان ملكا لأسرتنا واسمه (الرباة)، وموقعه بالضبط كان قريبا من (العقبة) الصغيرة التي كانت تميز الطريق إلى الديوان، بعد بستان (الباغ)، ثم أزيلت بعد ذلك. أما بستان النخيل الخاص بأسرتنا في منطقة الديوان فقد كان اسمه (كبيدة) أو (الكبيدة) ويقع على أحد جانبي الطريق التي تربط بين الديوان وبلدة (النقعة) التي سميت بها (زيارة النقعة) المشار إليها آنفا، لأن بها مقابر بعض أولياء الله الصالحين أو لعله وليّ واحد هو الذي كان يقصد بالزيارة.

ها قد وصلنا إلى الجزء الأخير من هذه الذكريات المرتبطة بالضعينة في الديوان، ويبدو أنني أجلتها تلقائيا لأنها الأهم، فما كانت الضعينة لتكون أصلا لولا النخل وثماره اللذيذة من البسر الأحمر والأصفر والرطب الناضج. كان ذهابنا إلى بستان الكبيدة وتجولنا فيه من أمتع لحظات الضعينة، وكان مبهجًا كذلك منظر الحمار عندما يأتي في أثناء النهار محملا بأعذاق البسر والرطب ويحط أمام بوابة بيتنا الكبيرة، ويأخذ (النشيري) في إنزال حمولة الحمار الغنية. ويكون والدي آنذاك ونحن معه جالسين عند البوابة المفتوحة

لاستقبال نسمات الهواء الباردة في الفناء الصغير المسقوف الذي يسمى (السدّة). وقد كان هذا مجلس والدي المفضل في أوقات النهار والظهيرة. و(النشيري) هو الشخص أو العامل المسؤول عن النخل، الذي يقوم بكل عمليات العناية به، وكان النشيري الخاص بأسرتنا هو المرحوم سعيد بن عامر الملقب (سعيد الدُّخن)، وهو والد أخينا العزيز الراحل، البنّاء والمقاول، طارق بن عامر الذي قضى متأثرا بإصابته على أثر حادث سير، رحمه الله. ونظرا لأن تصميم بيوت الديوان كان مرتبطا بالغرض من الضعينة وهو جني الرطب، فقد كان كل بيت يحتوي على حوش واسع، وكان بيتنا بطبيعة الحال يحتوي على مثل هذا الحوش الذي تفوق مساحته كثيرا مساحة (الحِيوة) وهي الفناء المكشوف الذي يقع أمام غرفة المعيشة وتسمى (الضَّيقة). وكان ذلك الحوش الواسع يستعمل لتجفيف الرطب وإنضاج البسر كي يصبح رطبا وعندما يجف يصبح تمرا. ويصف الأستاذ باوزير هذه الثمار بألوانها الحمراء والصفراء، عندما تنثر على أرض الحوش المفروشة بسعف النخيل الجاف، بأنها تتراءى للناظر وكأنها حوض من الزهور. ولكن عندما يكون الحوش خاليا من الثمار المفروشة على أرضه فإنه يصبح مكانا للتجمع واللعب، وكان شائعا لعب الورق أو (القراطة)، كما تسمى باللهجة المحلية، الذي كان يشارك فيه الصبيان والصبايا وأحيانا يكتفي البعض، وخاصة الصبيان، بالفرجة على اللاعبات اللاتي كنّ يأتي بعضهن من البيوت المجاورة ومنهن من قد شببن عن الطوق ويلبسن (الشُقّة) أو (الشيدر) كما تسمى في عدن، وحينذاك يبدأ القلب يخفق أولى خفقات (الحب) والميل الفطري إلى الجنس الآخر، كما يخفق الزهر تحت وقع الندى في الصباح الباكر!

بعد أن توفي أخونا طارق بن عامر، خلفه في عمل المقاولات ابنه البار حسين طارق، الذي يعمل عندي الآن في بناء نصف البيت الشرقي بعد أن

هدمنا البناء القديم الذي بناه والدي في حياته وكانت تقع ضمنه مكتبة بيع الكتب التي فتحتها مدة قصيرة ولم يقدر لها أن تستمر. وقد قال لي حسين، حفظه الله، ذات مرة إنه يعاملني معاملة خاصة لأننا (صحاب الشيبة) على حد تعبيره، أي أصدقاء والده. ولكننا لسنا أصدقاء والده فقط، بل أصدقاء جده أيضاً، كما سبق الحديث عن هذه العلاقة. وحسين يشبه جده سعيد كثيرا في ملامحه وفي بنيته الجسمانية المائلة إلى الضخامة، بخلاف والده طارق الذي كان جسمه يميل إلى القصر والنحافة. وفي النصف الثاني من عقد التسعينيات من القرن العشرين الماضي كان عمي الشاعر محمد عوض باوزير يتردد كثيرا على الغيل بعد أن شرع في بناء بيت له في المنطقة المجاورة لمبنى البريد، وكان المقاول الذي كلفه ببناء البيت هو المرحوم طارق. وفي أثناء عملية بناء البيت الذي لم يسكنه مع الأسف، وإنما باعه لشخص آخر ربما قبل أن يكتمل فيه بناء السقف، كتب عمي حوالي سبع قصائد يمازح فيها طارق، أوردت ثلاثا منها في ديوان (حصاد السنين) الذي أعددته للنشر، وتبدأ إحدى هذه القصائد الثلاث بهذه الأبيات:

يا شيخ طارق أنت شيخ المعلمة
في الغيل فابشر بالهنا والمكرمة
من ربنا والناس لي تبني لهم
هذي البيوت بغيلنا المقرّمة
ومنهم الشيخ الذي ترّك عدن
لأنها وبيوتها مؤممة
وجاك من أجل البنا يا بوحسين
ما اختار غيرك أنتَ في المقدمة

و(المقرّمة) لقب للغيل يستعمله أهلها أحيانا على سبيل الدعابة.

وهكذا يعيد التاريخ نفسه! فبعد أن كان سعيد بن عامر يخدم أسرة آل الرميدي باوزير بصفته (نشيري) يتعامل مع النخل، أصبح الابن والحفيد يخدمان نفس الأسرة في مجال البناء والتعامل مع (النشور)، جمع نَشْر، وهي الحجارة الكبيرة التي تستعمل في البناء، إذ تسمى بهذا الاسم في اصطلاح البنّائين. وفي قصيدة أخرى طارقية، يقول الشاعر محمد عوض باوزير مخاطبا طارق كما خاطبه في القصيدة السابقة، وهذه الأبيات تمثلني في نصفها الأول من حيث علاقتي الحالية بالابن والأخ الحبيب حسين، ولكنها تمثلني أيضا وبشكل أقوى في نصفها الثاني:

ربي عطاك العقل وعطاك الهداية والرشاد
تقوم عا وعدك ذا قالوا عمل جبت المواد
من المكلا أو من المغرب وإلا من تشاد
ولا يهم السعر إن قالوا شوي في السعر زاد
القصد تمشي في العمل ولا يردّك أي راد
تدُور بالسيكل وتضحك إنما في الحق جاد
يا بوحسين ذا مزح من شاعر عليه الاعتماد
يصدق بأقواله ولو خالف جميع اهل البلاد
همه من الدنيا يكون الناس دايم في اتحاد
يتعاونوا ما بينهم من أجل يقضوا ع الفساد
أما الذي هم من هنا شردوا وما زالوا بعاد
معاد لهم رجعة إلى الأحقاف هذا الوقت باد
ما باقي الا ذكرهم وعقاب ما له من نفاد

رحم الله عمي الشاعر الظريف محمد عوض باوزير ورحم أيام الخريف ولياليه الساحرة!

7 فبراير 2021م

ربع قرن من الفكر

كلمة الفكر في عنوان هذا المقال تشير إلى مجلة (الفكر)، وليس إلى الفكر بمفهومه الاصطلاحي الذي شاع بين المثقفين والأدباء و(المفكرين) المعاصرين والذي ناقشته في مقالي بمناسبة مرور أربعين عاما على صدور كتاب والدي رحمه الله: (الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي) وكان بعنوان: (التقدم الثقافي بين الشكل والمضمون)، وإن كان هناك – لا شك – ترابط بين الاثنين.

ومجلة (الفكر) هي المجلة التي صدرت في مطلع عام 1996م بوصفها لسان حال جمعية المؤرخ سعيد عوض باوزير الثقافية، وكانت تسمى نشرة في البداية، كما تسمى (مثوب) الآن نشرة، وهي مجلة في حقيقة الأمر. ولعل رواد الصحافة والنهضة الثقافية في حضرموت، منذ النصف الأول من القرن الماضي، الذين أصدروا صحفهم الخطية أو المطبوعة على المطبعة اليدوية أو الحجرية، كانوا أكثر حصافة وثقة في النفس منا نحن المتأخرين عندما سموا مجلة (الإخاء) ومجلة (المنبر) ومجلة (التهذيب) وغيرها. فالفكر في بداياتها كما هي مثوب الآن لا أظن إلا أنهما تضارعان تلك المجلات من حيث الحجم ومن حيث المواضيع والهموم التي تعالجانها .

وقد اتخذنا لمجلة جمعية المؤرخ باوزير اسم (الفكر) إحياء لذكرى مجلة (الفكر) التي أصدرها في ستينيات القرن الماضي الصحفي الرائد الأستاذ أحمد عوض باوزير والتي توقفت بعد صدور أربعة أعداد فقط منها. أما مجلة (الفكر) الجديدة فقد صدر منها حتى الآن اثنان وأربعون عددا،

وينتظر أن يصدر منها عدد ممتاز قريبا بمناسبة مرور ربع قرن على تأسيسها وصدور أول عدد منها.

كانت (نشرة) أو مجلة (الفكر) هي الرائدة والأم لكل (النشرات) والمجلات التي صدرت في عهد الوحدة في ساحل حضرموت كله وليس في غيل باوزير فقط، ولذلك جعل لها الأستاذ محمد سالم بن صويلح مكان الصدارة في مقاله في مجلة (حضرموت الثقافية) الذي تناول فيه الإصدارات الصحفية الثقافية والعلمية والدعوية.. "بين التوقف والاستمرار" كما جاء في عنوان مقاله ذاك. وفي مدينة غيل باوزير بالذات التي عُرفت بأنها كانت مركز إشعاع ثقافي وعلمي في العصر الحديث فضلا عن الزمن الماضي، صدرت عدد من المجلات بعد (الفكر)، من أهمها مجلة (الحومة)، وقد أصدرها نادي شباب القارة بالغيل ابتداء من أول عدد صدر في شهر يونيو من عام 1999م، وقد توقفت هذه المجلة في نهاية عام 2012م بعد صدور العدد رقم (40) منها. وفي عام 2003م صدرت مجلة (الدعوية) عن المجلس الدعوي بغيل باوزير الذي أصبح اسمه بعد ذلك منتدى الغيل الثقافي الاجتماعي، وهي متوقفة الآن عن الصدور. ومجلة (الحومة) و(الدعوية) كلتاهما من المجلات الجادة التي استطاعت أن تصمد وتتطور وأن يكون لها حضور وتأثير ثقافي منافس لمجلة (الفكر).

وبعد دخول الألفية الجديدة نشطت الفرق الشعبية بالغيل في مجال الإصدارات التي أتاحت المجال لبروز بعض المواهب الكتابية المختلفة، وكانت أبرز هذه الإصدارات نشرة (البوادي) التي أصدرها فريق (العاصفة)، وأتذكر أنني شاركت بالكتابة فيها ذات مرة. أما النادي الرئيسي الرسمي بالغيل (الأهلي)، فقد كان لديه مجلة (صوت الأهلي) التي صدرت منها أعداد قليلة متباعدة، وشاركت بالكتابة في شيء من أعدادها أيضا.

لعلي ابتعدت قليلا عن موضوع المقال الرئيسي وهو مجلة (الفكر) ويوبيلها الفضي، لأخوض في هم الفكر بمعناه العام الواسع الذي ألمحت إليه في البداية أيضا، وذلك ربما لأنني أردت أن أعطى صورة عن الحراك والانتعاش الثقافي الذي شهدته البلاد، وكان لمجلة (الفكر) فضل الريادة والسبق فيه، وذلك بعد الخروج من ربقة الحجر على الفكر والنشر وسيادة الصوت الواحد الذي لا صوت يعلو فوقه. والآن تمر البلاد بمرحلة مخاض صعب وتحول ضبابي لا يعرف أين أو كيف سيكون بعده موقع ودور النشاط الثقافي ومن ضمنه مجلة الفكر و(نشرة) مثوب، في ظل نُذُر بعودة مناخ الصوت الواحد من جديد، في حين أن الثقافة إنما تزدهر في مناخ الحرية والتعدد ومن خلال اصطراع الأفكار والتوجهات المختلفة بلا نبذ أو إقصاء لأيّ منها!

21 نوفمبر 2020م

عن الافتتاحيات في الصحف والمجلات

كما كان الإنجليزي دانيال ديفو رائدا للرواية بوصفها جنسا أدبيا، كان أيضا رائدا لفن الصحافة. وقد اشتهر في المجال الأول بروايته الذائعة الصيت (روبنسون كروزو)، وفي المجال الثاني أصدر خلال السنوات 1704– 1713 مطبوعة تصدر ثلاث مرات في الأسبوع تحت اسم The Review ، والكلمة تعني (مراجعة)، و(نقد)، و(تقييم)، وشاع استعمالها تسميةً للمقالات التي تنشر في الصحافة لاستعراض وتقييم الكتب والأعمال الأدبية، وحتى في اللغة العربية أصبح هذا النوع من المقالات يسمى (مراجعات). وفي رسالة الماجستير التي قدمها الأستاذ محمد سعيد الحامدي عن المقال الافتتاحي في صحيفة (الطليعة) الحضرمية، أشار الباحث نقلا عن بعض المراجع التي استند إليها إلى أن الكاتب الإنجليزي دانيال ديفو هو رائد المقال الافتتاحي للصحف وعلى يديه اكتسب قيمته الفنية في الأسلوب. وقال أيضا إن دانيال ديفو أول من كتب ما كان يسمى آنذاك (الخطاب الافتتاحي) وهو مقال عن موضوع سياسي أو اجتماعي هام، وكان هذا الخطاب هو النواة الأولى للمقال الافتتاحي الحالي.

ويسمى المقال الافتتاحي بالإنجليزية editorial ، ويبدو أنه أصبح بعد ذلك تقليدا راسخا في كثير من الصحف المهمة وعادة ما يكتبه رئيس تحرير الصحيفة أو المجلة. ولرؤساء التحرير أساليب ومناهج مختلفة في كتابة افتتاحياتهم، وبعضهم يجعل لها عنوانا ثابتا أو تسمية يعدل بها عن الاسم المباشر (الافتتاحية) التي تستعملها فعلا بعض الصحف والمجلات. فقد استعمل الدكتور أحمد زكي، أول رئيس تحرير لمجلة (العربي) الكويتية

الشهيرة تسمية (حديث الشهر)، التي ظلت باقية مع تغير رؤساء التحرير. وحديث الشهر في مجلة (العربي) أشبه بمقال عادي له نفس طول المقالات العادية الباقية في المجلة ويثير فيه رئيس التحرير قضية أو موضوعا معينا.

ولكن عادة تكون الافتتاحية قصيرة أو متوسطة الطول، ومن هذا النوع افتتاحية صحيفة (الطليعة) التي اختارها الأستاذ الحامدي المشار إليه آنفا موضوع رسالته للماجستير، والتي كان يكتبها رئيس تحرير (الطليعة) الأستاذ أحمد عوض باوزير، الصحفي الكبير الراحل، وقد جعل لها تسمية ثابتة جميلة هي (الطليعة تقول:)، وهي تسمية ذات دلالة عميقة، تحيل إلى تبني موقف واضح وصريح من الأحداث والقضايا التي كانت تمور بها البلاد والمنطقة والعالم في تلك الفترة من التاريخ الحديث.

وإذا أتينا إلى نشرة ثم مجلة (الفكر) التي أصدرناها منذ تأسيس جمعية المؤرخ سعيد عوض باوزير، وتوليت رئاسة تحريرها، فقد وضعت في أول عدد تسمية الافتتاحية وحدها دون أن أتبعها بعنوان خاص، ولكن ابتداء من العدد الثاني استعملت تسمية (كلمة الفكر) مع عنوان خاص يعبر عن الموضوع الذي طرقته في ذلك العدد وكان هذا العنوان هو (ألوان من العزلة)، وظلت هذه التسمية مدة طويلة ثم عدت إلى استعمال تسمية الافتتاحية مع العنوان الخاص بكل عدد.

وقد عمدنا في إحدى المراحل إلى نشر مختارات من أقوال المؤرخ سعيد عوض باوزير في الصفحة الأولى لتقوم مقام الافتتاحية، وفي مرحلة أخرى استعضنا عن الافتتاحية باستحداث باب أو عمود ثابت سميته (نحن والفكر) في الصفحة الأخيرة جعلته منبرا حرا يتناوب عليه كتاب من داخل أسرة المجلة ومن خارجها. وقد كتب في هذا العمود بالإضافة إلى رئيس التحرير أمثال الدكتور سعيد الجريري والدكتور عبدالقادر باعيسى والأستاذ أكرم

باشكيل والكاتبة الفلسطينية الراحلة ثريا نافع، رحمها الله. ثم جاءت فترة غبت فيها في الخارج وتولى رئاسة تحرير المجلة زميلي وأخي العزيز الأستاذ حسين عبدالله بامطرف الذي دأب على كتابة مقالات طويلة نوعا ما تغطي صفحة كاملة تحت تسمية (الافتتاحية) من جديد تناول فيها مواضيع مهمة. وعندما عدت إلى استلام رئاسة التحرير استأنفت استعمال تسمية (كلمة الفكر) مكتفيا بها دون عنوان خاص في العددين الأولين من الأربعة الأعداد المتتالية التي أصدرتها من العدد 37 إلى العدد 40 الذي توقفت بعده المجلة عن الصدور بسبب الظروف المعروفة، وكان ذلك العدد الأخير هو الذي أعقب مقتل واستشهاد الشيخ علي سالم باوزير حيث نشرنا ملفا خاصا عن هذا العلامة والداعية الكبير رحمه الله. وفي هذا العدد كتبت آخر افتتاحية وكانت بعنوان (رمزية مجلة العربي الكويتية). ونظرا لحساسية المرحلة التي صدرت فيها هذه الأعداد الأربعة، كتبت افتتاحيات تحاول، بتعقل ورصانة، تبني الهم العام الذي يشغل الأمة، وفي العددين الأخيرين استعملت عنوانا خاصا للافتتاحية إلى جانب العنوان العام (كلمة الفكر). وكان العنوان الخاص في العدد 39 هو (ضحك كالبكاء)، وقد تناولت تحت هذا العنوان مسرحية (حبل الغسيل) لعلي أحمد باكثير مسقطا إياها على الأوضاع في العالم العربي، التي أعقبت ما سمي بالربيع العربي.

إن المقال الافتتاحي أو الافتتاحية، شأنه شأن الصحافة نفسها، لا يزدهر وتكون له قيمة إلا في مناخ الحرية. وقد رأينا كيف كان أحمد عوض باوزير في افتتاحية (الطليعة تقول) يتناول القضايا الساخنة التي كانت تمر بها بلاده والمحيط العربي والعالمي، وذلك لأنه كان في البلاد هامش جيد من الحرية يسمح بهذا التناول الجريء والصريح. وقد ذكر الباحث محمد سعيد الحامدي ملاحظة مهمة في دراسته عن افتتاحية صحيفة (الطليعة)، عندما قال:

"والمقال الافتتاحي في الصحافة العربية تراجعت مكانته في الصحف اليومية والأسبوعية، إلا أن صحيفة (القدس العربي) هي الصحيفة اليومية الوحيدة التي تحافظ عليه بصورة دورية من خلال مقالها (رأي القدس)".

وأنا أعزو هذا التراجع في مكانة المقال الافتتاحي إلى تراجع بل غياب مناخ الحرية في العالم العربي بشكل عام في الوقت الحاضر. ومعروف أن صحيفة (القدس العربي) تصدر في لندن وليس في أي قطر من العالم العربي، وإلا لما استطاع (رأي) هذه الصحيفة أن يظل محتفظا ببريقه و(مكانته)! وقد كان مما شجعني على تأسيس جمعية المؤرخ سعيد عوض باوزير الثقافية وإصدار مجلة (الفكر) شعوري أن هناك جوا جديدا من الحرية والانفتاح على الرأي الآخر أصبح سائدا في البلاد بعد تحقيق الوحدة اليمنية. وهذا الحماس هو ما دفعني، قبل تأسيس الجمعية، إلى المشاركة في تحرير صحيفة (المسيلة) التي صدرت في تلك الفترة بصفتي مسؤولا عن القسم الثقافي بالصحيفة التي كان يرأس تحريرها الأستاذ أحمد سعيد الصويل رحمه الله. وكان الحيز المتاح لي في الصحيفة يغطي صفحتين، وكنت أحرص على كتابة افتتاحية أسبوعية في شكل (عمود) أتناول فيها قضية ثقافية معينة تشغل بالي، وكان عنوان إحدى الافتتاحيات التي كتبتها (خيارات باكثير)! وفي مجلة (الفكر) كتبت ذات مرة افتتاحية بعنوان (ثقافة المقاومة)، كان مما قلته فيها:

"في فترة الستينيات من القرن الماضي انطلقت حركة شعرية من الأرض المحتلة في فلسطين أطلق عليها شعر المقاومة. وكانت تلك الحركة تجد ترحيبا في الأوساط الثقافية ومساحة واسعة من الترويج الإعلامي حتى أصبحت أسماء شعرائها البارزين كمحمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد أسماء نجومية لامعة. ثم شيئا فشيئا أخذ يخفت بريق هذه الحركة حتى اختفى

مصطلح شعر المقاومة تماما من الساحة الأدبية ولم نعد نسمع عنه شيئا بالرغم من استمرار بل وتصاعد الهجمة الشرسة للعدو الصهيوني ومن معه من قوى البغي والاستكبار العالمي ضد شعبنا الصامد في فلسطين إلى أن امتدت هذه الهجمة لتبتلع بلدا عربيا كاملا آخر غير فلسطين هو العراق، وأصبح هذا البلد العريق الذي يعرف بالبوابة الشرقية للعالم العربي رازحا تحت أقدام الغزاة المعتدين الذين لا يخجلون من أن يبرروا احتلالهم واعتداءهم كعادتهم دائما بالحرص على مستقبل شعب العراق وحريته وديمقراطيته، ولذلك يسمون المقاومة لهذا الاحتلال إرهابا..."

ولكن من المؤسف أن عاد مناخ التضييق على الفكر والرأي ليخيم على البلاد والعباد من جديد، بل أصبح له سدنة وحراس من بعض المثقفين مع الأسف الشديد. وكان أمرا ذا مغزى أن يصدر العدد 42 من مجلة (الفكر)، الذي صدر في الفصل الثالث من عام 2020م بدون افتتاحية. وقد صدر قبله بسنتين بالضبط العدد 41 الذي أوكلت رئاسة تحريره وكتابة افتتاحيته إلى الصحفي الشاب محمد علي باعيسى ربما هروبا من كتابة الافتتاحية، ولكن محمد علي قام بهذه المهمة خير قيام، فلكل زمان دولة ورجال، كما يقال! وكان آخر عدد أصدرته من الفكر هو العدد الممتاز الذي حمل رقم 43 وكان بمثابة فرصة لأختم به حياتي ونشاطي في الجمعية وفي رئاسة تحرير المجلة وفي نفس الوقت نحتفل بمرور خمسة وعشرين عاما على صدور أول عدد من المجلة في ربيع عام 1996م. وفي هذا العدد تجنبت أيضا كتابة افتتاحية جديدة، وبدلا من ذلك خطرت لي فكرة أظن أنها كانت جيدة عمدت فيها إلى اختيار فقرات معينة من افتتاحياتي السابقة على مدى تلك الفترة من عمر المجلة، حاولت أن تكون معبرة عن منطلقاتي ومبادئي، وجعلت

عنوان هذه المختارات (جناحا التقدم والرقي فكر وطليعة)[1]؛ ذلك لأن الفقرة الأخيرة من هذه المختارات كانت مأخوذة من افتتاحية العدد المكرس للصحفي الأستاذ أحمد عوض باوزير على أثر رحيله، الذي صدر بتاريخ يناير– مارس 2013م. ويسعدني أن تكون هذه الفقرة هي أيضا ختام مقالتي هذه عن الافتتاحيات في الصحف والمجلات:

"فهل كما عادت مجلة (الفكر) إلى الصدور في تسعينيات القرن العشرين الماضي ستعود صحيفة (الطليعة) يوما ما إلى الصدور حاملة نفس رسالة (الطليعة) الأولى فكرا ووعيا ووطنية صادقة؟ نطرح هذا السؤال لا كأمنية خيالية معلقة في الهواء، ولكن كحاجة نعتقد أنها ملحة في هذه المرحلة التاريخية التي نمر بها الآن في حضرموت.

واستلهاما من أجواء هذا العدد التذكاري ومن روح الصحفي الكبير الراحل نقول إن جناحي أي تقدم ورقي هما فكر وطليعة."

5 مارس 2022م

(1) في هذا الجمع بين كلمتي فكر وطليعة نوع من التورية البلاغية، فالفكر والطليعة هما المطبوعتان اللتان أصدرهما أحمد عوض باوزير. ولكن المقصود هنا هو الفكر بمعنى الوعي والعلم والثقافة، والطليعة بمعنى القيادة التي تتقدم الصفوف إلى الأهداف الوطنية.

أنا والأناشيد

هل هناك تعريف للنشيد بوصفه فنا من فنون الشعر أو الغناء؟ وأسارع إلى الإجابة عن هذا السؤال بأنه على الرغم من أننا منذ الصغر نسمع لفظة النشيد ونحفظ ونغني ما يقال لنا إنها أناشيد ونسمع أيضا ما نعرفها بأنها أناشيد، فإنني لم أقف على أي تعريف أو توصيف لمفهوم (النشيد) في أي من الكتب التي اطلعت عليها والتي تتصل بموضوع الشعر والعروض أو الغناء وما إلى ذلك. وهذا المقال ليس بحثا في موضوع النشيد ولكنه خواطر وتداعيات شبيهة بما أكتبه دائما كلما عنّت لي فكرة من هذا القبيل تعيدني من جديد إلى حمل القلم – مجازا بعد أن تركنا استعمال القلم الآن – وإلى الكتابة.. هذه التي لا أدري ماذا أسميها.. أهي عادة أم هواية أم هوس أم قدر لا نستطيع منه فكاكا نحن معشر الكتاب؟ كنت ذات مرة مع الصديق الأديب الدكتور عبدالله حسين البار وذكرت له أنني أفكر في التوقف عن الكتابة، فرد علي بما معناه أنك لن تستطيع، ثم أردف قائلا: نحن كالسمك الذي لا يستطيع أن يعيش إلا في الماء، فإذا خرج منه يموت!

وأعود إلى موضوع النشيد. فبعد أن كتبت جزءا من المقدمة أعلاه خطر لي أن أفتح قاموس الرائد على كلمة (نشيد) فوجدت أن معناها: ما يغنّى من الشعر الوطني أو الحماسي. ولكن هناك أيضا نوع من الشعر الديني أو الابتهالي الذي ينشد بأسلوب خاص ويكون له وقع محبب في الأسماع عندما يكون المنشد ذا صوت جميل ندي، ويطلق على هذا النوع عندنا في حضرموت اسم (نشيدة) بالتأنيث. ومع أننا نستنتج مما سبق أنه ليس هناك

تعريف فنى دقيق للنشيد إلا أننـي أحسب أن هنـاك مواصفات متعارفا عليها للنشيد الحماسي أو الوطني الذي قد لا يلحن أو يغنى ولكن الشاعر يكتبه وفي ذهنه أنه مرشح أو صالح للتلحين والغناء. وهناك أمثلة من هذا النوع كتبتها ونشر بعضها في ديواني (الحبيبة والفارس)، مثل قصيدة (وطن الحضارة) التي كتبت تحت عنوانها (نشيد). وهذا ما جعل الدكتور عبدالقادر باعيسى يقول في ختام مقدمته للديوان عن النصوص الشعرية التي احتواها:

... "وهي لهذا أقرب إلى الشعر والفكر معا، أو إلى الشعر المستند إلى أسس فكرية واضحة حتى تحدثت عن القضايا والأشخاص بوضوح أكبر، وثقة عليا، بل أنشأت الأناشيد مثل (نشيد المهرجان)، و(نشيد مدرسة الفاروق)".

والنشيدان اللذان ذكرهما السيد كاتب المقدمة أحدهما، وهو (نشيد المهرجان)، يجمع بين المعاني الوطنية والدينية، أما الآخر فهو أكثر التصاقا بالمعاني الدينية. والنشيدان لحنا وأنشدا في المناسبتين اللتين كتبا من أجلهما. فالأول قدم في الحفل الافتتاحي لمهرجان غيل باوزير الثقافي الرياضي الذي أقامته جمعية المؤرخ سعيد عوض باوزير الثقافية احتفاءً بالذكرى العشرين لرحيل المؤرخ في عام 1998م، والثاني طلبه مني أخي الحبيب الأستاذ أمين سعيد باوزير، مدير مدرسة الفاروق لتحفيظ القرآن بعدن، وكم سعدت بطلبه هذا وأحمد الله أنني وفقت إلى إجابته، فقُدم النشيد ملحنا في الاحتفال بعيد المدرسة المقام في 27 رجب عام 1421.

وتعد الأناشيد من الوسائل التربوية التي تقدم للنشء في المدارس الابتدائية لربطهم بجذورهم وهويتهم الوطنية والقومية والدينية، وكان والدي رحمه الله حريصا على استخدام هذه الوسيلة، ولكونه موجها تربويا وشاعرا مُجيدا في الوقت نفسه، فقد ألف العديد من الأناشيد التي كانت تقدم في المناسبات المدرسية إما إلقاءً أو مع التلحين والغناء. ومن الأشياء والظواهر المريبة التي أخذت

تطل برأسها في زمننا (الأغبر) هذا تلك الدعوات والتلميحات التي تستهين بما يسمى بالهوية، خاصة الهوية الدينية الإسلامية، وتحط من قدرها، وتستغل الأوضاع السيئة وبؤس السياسة وتدهور المعيشة من أجل أن تجد ثغرة لبث أفكارها المريضة هذه، بدلا من أن يحصل العكس وهو الدعوة للعودة إلى الأخلاق والفضائل والمبادئ السامية الكفيلة، إذا انتشرت، بتغيير الأوضاع إلى الأفضل.

كان جيلنا والجيل أو الجيلان اللذان سبقانا من الفترات التي راجت فيها وازدهرت الأفكار النهضوية والاعتزاز بالأوطان الذي كان يحمل في طياته الاعتزاز بالدين أيضا، وعبر عن هذه المعاني الشعراء الكبار الذين ظهروا في هذه الفترات، ويمكن أن نعد قصيدة الشاعر عبدالله بلخير (شبه الجزيرة موطني وبلادي) من صنف الأناشيد بما احتوته من معان وطنية وحماسية بالإضافة إلى سلاسة لغتها وجمال صياغتها مما جعلها تصلح لتوضع ضمن منهج المحفوظات للمدرسة الابتدائية، وهو ما فعله والدي رحمه الله، وهذه بعض أبيات القصيدة:

يا وحدة العرب التي نسعى لها ... حتى نشيّدها على الأعماد
هذي بوارق نهضة محمودة ... علقت مبادئها بكل فؤاد
ومشت مواكبها وأقبل جمعها ... والله قائدها و(أحمد) حادي
سارت تطالب في الحياة بحقها ... بالسيف سلته من الأغماد
من بعد أن فشل اليراع ولم تجد ... أحدا يخلصها من الأوغاد
وكذا دساتير الحياة تنص أن ... لا حق إلا للقوي العادي!!

وكان الأديب الإسلامي الكبير مصطفى صادق الرافعي من أشهر من نظموا الأناشيد، وقد سماه مؤلف كتاب (حياة الرافعي) الأستاذ محمد سعيد العريان (شاعر الأناشيد)، وأشهر أناشيده (اسلمي يا مصر). وقال العريان، وهو مما يدل على أهمية الأناشيد في تلك الحقبة الذهبية:

"ويقيني أن اسم الرافعي إذا كتب له الخلود بين أسماء الشعراء في العربية، فلن يكون خلوده وذكره لأنه نظم ديوان الرافعي، أو ديوان النظرات.... أو قصائد الحب والغزل بفلانة وفلانة.... ولكنه سيخلد ويذكر لأنه شاعر الأناشيد".

ومن القصائد التي يمكن أن تعد من صنف الأناشيد قصيدة الشاعر علي محمود طه، التي لحنها وغناها الأستاذ محمد عبدالوهاب (أخي جاوز الظالمون المدى)، والتي يقول مطلعها:

أخي جاوز الظالمون المدى فحق الجهادُ وحق الفدا

والقصيدة تتحدث عن فلسطين وما زالت معانيها صالحة حتى اليوم لأن تقال عن هذا الجرح العربي النازف بشرط أن تستعاد الروح العالية التي ظهرت في مثل هذين البيتين :

أخي أيها العربي الأبي أرى اليوم موعدنا لا غدا
أخي أقبل الشرق في أمة ترد الضلال وتحيي الهدى

وهذا الجزء من الأغنية أحد الجزأين اللذين يتحول اللحن فيهما إلى ما يشبه المارش العسكري، وأنا أتذكر والدي ذات مرة عندما كانت هذه الأغنية تنبعث من الراديو، وكان هو في وضع الوقوف منشغلا بشيء ما، وعندما وصل اللحن إلى ذينك البيتين إذا به يحرك يديه ورجليه كما يفعل الجنود في المارش العسكري، رحمه الله.

الفاتح من محرم الحرام 1443
9 أغسطس 2021

عن الانتماء وانتماء الأدب

عرفت لأول مرة من منشور الأخ الدكتور سعيد الجريري أن الأخ الأستاذ علي أحمد بارجاء، رحمه الله، خلف فيما خلفه من آثار أدبية وبحثية، بحثه للماجستير الذي نال عليه الدرجة فعلا، والذي كان بعنوان (الشعر العربي في المهجر الشرقي). وكان من الممكن أن يمر هذا المنشور عليّ (مرور الكرام)، لولا تعليق الأخ الأستاذ زهير الهويمل، على المنشور، الذي تساءل فيه باقتضاب: الشعر العربي أم الحضرمي؟ وقد رد كاتب المنشور الدكتور الجريري – باقتضاب أيضا–: الشعر العربي الحضرمي، وهو ما دفعني وفتح شهيتي لكتابة هذه الكلمات.

كان في صحيفة (الثوري) العدنية عمود حر اسمه (آراء وأفكار)، إذا لم تخني الذاكرة، يتناوب على كتابته كتاب وأدباء مختلفون ربما يشبه، في فكرته وحجمه وشكله في الصحيفة، عمود (هواء طلق) الموجود الآن في صحيفة (القدس العربي) اللندنية. كان هذا العمود يكتسب أهميته وجاذبيته من الكتاب الذين يكتبون مقالاته ومن مواضيع هذه المقالات. وقد دفعني الإعجاب بفكرة العمود ومواضيعه إلى أن يكون لي مكان فيه ولو لمرة واحدة، وهو ما حدث فعلا، إذ أرسلت إلى الصحيفة، وكان مسؤولا عن القسم الثقافي فيها، كما أتذكر، الأستاذ كمال الدين محمد، مقالا نشر في هذا العمود وكان عنوانه: (هل هناك أدب مهجري يمني؟). ولعلي عندما كتبت هذا المقال كنت أنظر بالذات إلى ما كتبه الأدباء الحضارم الذين عاشوا في شرق آسيا، إندونيسيا وما جاورها. ويبدو لي الآن أن الأستاذ بارجاء قد أجاب

عن سؤالي هذا عندما خصص رسالته للماجستير لبحث موضوع (الشعر العربي في المهجر الشرقي)، وإن كنت أفضل لو وسع بحثه بحيث يشمل الأدب بكل ألوانه وليس الشعر فقط. وإنني لأتمنى أن تنشر وتطبع هذه الرسالة قريبا في كتاب يوزع ويطلع عليه الباحثون والمهتمون.

كان الأدباء العرب الذين عاشوا في الأمريكتين، وكتبوا ذلك الشعر الجميل الذي ما زلنا نتلذذ بقراءته وتذوقه حتى اليوم، جلهم أو كلهم من اللبنانيين، وحتى من اللبنانيين المسيحيين، ولكنهم كانوا ينتمون أو كان شعرهم ينتمي إلى العروبة روحا ومبنى ومعنى، بل كثير منهم، كالشاعر القروي رشيد سليم الخوري، كانوا يجسدون مع الانتماء العروبي التماهي مع الروح الإسلامية والاعتزاز بالانتماء إلى حضارة الإسلام وثقافته وعقيدته ونبيه العظيم محمد صلى الله عليه وسلم، رغم كونهم مسيحيين. روح الانتماء هذه التي تلف الجميع بمختلف أعراقهم وطوائفهم في إطار ونسيج واحد عنوانه (الشرق) هي التي أضعناها وخسرناها في عصر التشرذم الغبي هذا!

وكما كان شعراء المهجر (الغربي) الأمريكي كلهم من اللبنانيين، كان شعراء المهجر (الشرقي) الآسيوي كلهم من الحضارمة كما جزم بذلك الدكتور سعيد الجريري وهو أحد الذين ناقشوا رسالة الأستاذ بارجاء. ولكن حسنا فعل بارجاء رحمه الله بأن استعمل النسبة العربية لا الحضرمية لشعر أولئك النفر من الحضارمة الذين تناولهم في رسالته، تماما كما استعمل مؤرخو الأدب النسبة العربية لا اللبنانية لشعر ذلك النفر الكريم من اللبنانيين الذين رفدوا التراث العربي المعاصر بأعذب وأجمل الألحان.

ها أنا ذا أصل إلى الفكرة الأخيرة التي أود التطرق إليها في هذا المقال، وهي مسألة يسيرة، لعلها تمثل لي إشكالا ما، صادفتها عند ترجمتي لكتب بعض الكتاب الأجانب والإنجليز عن منطقتنا وخاصة كتب الزوجين هارولد

ودورين إنجرامز. فقد وجدت هذين الكاتبين يفضلان الحديث عن العرب والعربي عندما يكونان يقصدان الحضارمة واليمنيين أو اليمني والحضرمي، حتى إنني وجدت نفسي مدفوعا إلى إضافة هذا الهامش في أول كتاب كامل أترجمه وهو كتاب (اليمن.. أئمتها وحكامها وثوراتها)، الذي يقول:

"يستعمل إنجرامز كلمة (العرب) كما استعملها في موضع سابق من الكتاب وأشار إلى (القضية العربية) بينما هو – كما يغلب على الظن – يقصد (اليمنيون)، و(القضية اليمنية)".

والشيء نفسه فعلته دورين إنجرامز في كتابها (دراسة للأحوال الاجتماعية والاقتصادية في محمية عدن) الذي أستمتع بترجمته الآن، وأتمنى أن تكون ترجمتي لهذا الكتاب خطوة متقدمة في أسلوبي وطريقتي في الترجمة. إذ قالت السيدة دورين هذه الجملة على سبيل المثال: "لقد عشت لأسابيع متواصلة أحيانا وسط مجتمعات النساء في بيوت العرب.." فلم أستسغ أنا الاكتفاء بكلمة العرب وجعلتها في الترجمة: العرب الحضارمة. فهل كان الكتاب الإنجليز أو الأجانب أكثر حرصا منا على تأكيد انتمائنا العربي وتفضيله على الانتماءات الضيقة؟

2 أبريل 2020م

شيكسبير وصدى مسرحياته

في كتابات دورين إنجرامز

الشاعر والكاتب المسرحي العظيم وليام شيكسبير من الشخصيات التي يعتز بها الإنجليز كثيرا، إن لم يكن هو أكثر شخصية يولونها التبجيل ويؤثرونها بالفخر والاعتزاز، حتى ليكاد يعد عندهم (معلما) من المعالم الوطنية الخالدة. وكنت وأنا في مقتبل العمر أسمع والدي رحمه الله يردد بيتا للشاعر أحمد شوقي يقول فيه:

دستورهم عجب الدنيا وشاعرهم يدٌ على خلقه لله بيضاءُ

والضمير (هم) في البيت عائد على الإنجليز الذين تبدأ القصيدة بمدحهم وعنوانها في الشوقيات (شيكسبير). وتبدأ القصيدة بهذا المطلع:

أعلى الممالك ما كرسيه الماءُ وما دعامته بالحق شمّاءُ

وبعد البيت الذي كنت أسمعه من والدي تتصرف القصيدة للإشادة بالشاعر حينا وتوجيه الخطاب إليه حينا آخر، إذ يجعله في البداية قرينا للدستور البريطاني في الأهمية والعظمة، ويزيد فيعده من نعم الله على الخلق وعلى بني البشر قاطبةً، وأكتفي هنا بنقل أربعة أبيات تلي البيت الذي بدأت بذكره في هذا المقال:

ما أنجبت مثلَ شيكسبيرَ حاضرةٌ ولا نمَت من كريم الطير غنّاءُ
نالت به وحده إنجلترا شرفًا ما لم تنل بالنجوم الكثر جوزاءُ

لم تُكشف النفسُ لولاهُ ولا بُليت لهـا سـرائر لا تحصـى وأهـواءُ
شـعرٌ مـن النسـق الأعلـى يؤيّـده مـن جانـب الله إلهـامٌ وإيحـاءُ

وتقول ليلى إنجرامز عن والدتها في المقدمة التي كتبتها بطلب مني لتنشر مع ترجمتي لكتاب والدتها دورين إنجرامز (أيامي في الجزيرة العربية): "... عملت دورين في المسرح ونجحت من خلال تمثيلها للأدوار الرئيسية في مسرحيات وليام شيكسبير، وبالذات دور الفتاة اليافعة الجميلة، إلا أنها بعد ست سنوات من العمل بالتمثيل اقترنت بهارولد إنجرامز".

ولأن دورين إنجرامز إنجليزية يسري عليها ما قلناه في البداية عن الإنجليز الذين يسري في دمهم الاعتزاز بشاعرهم العظيم، بالإضافة إلى أن شيكسبير ومسرحياته وأشعاره تمثل مرحلة مهمة وحبيبة من حياتها وهي في مقتبل العمر، لهذين السببين كانت دورين تنتهز أي فرصة للإشارة إلى شيكسبير في ما كتبته بعد ذلك من كتب ومؤلفات. فهي مثلا تتذكر الأدوار التي مثلتها وهي تهيم على ظهر الجمل في صحراء حضرموت، فتقول في فصل بعنوان (دورية على الجمال) من كتابها، الذي ترجمته، المشار إليه آنفا:

... "وحتى أخفف من وطأة الرتابة المملة، أخذت أردد مقاطع من دور (جولييت)، الأمر الذي شغلني عما حولي وأنا أحاول استعادة الأبيات التي كنت قد نسيتها منذ تلك السنوات التي كانت فيها هذه الأبيات لا تفارق مخيلتي، عندما كنت أعمل ممثلة في أيرلندا في فرقة Anew McMaster الشيكسبيرية".

وفي الكتاب نفسه، اقتبست أو استشهدت بعبارة من مسرحية (هملت) لشيكسبير لكي تصف أحد رجال السلطنة القعيطية. وفي موضع وفصل آخر من الكتاب تشير مازحةً إلى أحد المواقف في مسرحية (مكبث)، مقارنةً بينه وبين موقف عايشته في حضرموت .

ولكنني أريد أن أقف هنا متمهلا عند عبارة اقتبستها دورين من مسرحية (مكبث) نفسها، عثرت عليها في الكتاب الآخر الذي أترجمه الآن لها عن محميتي عدن الغربية والشرقية سابقا. استوقفني أن العبارة رغم قصرها موضوعة بين معقوفتين، وتوقعت أن تكون مأخوذة من شيكسبير، ولكن من أي مسرحية يا ترى؟ لجأت أولا إلى الاستعانة بالشيخ جوجل فلم يقصر في إفادتي عن مصدر العبارة وأنها جاءت في (مكبث). ثم عدت إلى معجم الاقتباسات الذي أقتنيه، والذي فيه لشيكسبير نصيب الأسد بالطبع، فوجدته ينقل المقطع الشعري الكامل الذي ترد العبارة في نهايته، ونصها كما ورد في كتاب دورين: .the green one red كما أشار المعجم إلى رقمي الفصل والمشهد اللذين ورد فيهما ذلك المقطع في المسرحية، بل ذكر أيضا رقم السطر الشعري، وهو 61.

استعانت دورين إنجرامز بهذه العبارة عندما كانت تصف كيف أن مياه السيول القادمة من وديان حضرموت عندما تصب في البحر تصبغ مياهه الخضراء باللون الأحمر بسبب الطمي الذي تجرفه معها. كيف خطر لها أن تقرن بين اصطباغ بحر حضرموت بلون الطمي وبين اصطباغ بحار (نبتون) بلون الدم في يدي مكبث الذي أصبح يؤرقه ويزعج أحلامه بعد أن قتل الملك دنكان بتشجيع من زوجته ليدي مكبث طمعا في المُلك؟ إنه الهوس بشيكسبير!

ترجمتُ العبارة القصيرة مع ما قبلها هكذا:

"كما أن الوديان الجافة تتحول إلى أنهار متدفقة بالمياه التي، إن لم تحجز وتستخدم في الري، فإنها تذهب إلى البحر فتجعل "أخضره مضرّجا بالحمرة" بتأثير الطمي الذي تجرفه معها من المناطق الداخلية".

أما شعر النسق الأعلى الشيكسبيري كما يصفه شوقي، فهو يقول على لسان (مكبث) هذه السطور الإنجليزية:

Will all great Neptune's ocean wash this blood/ Clean from my hand? No, this my hand will rather/ The multitudinous seas incarnadine, / Making the green one red

وأظن أن كل الكلمات سهلة في هذه السطور، ما عدا كلمة multitudinous وترجمها جبرا إبراهيم جبرا: العارمة، وصفا للبحار، وكلمة incarnadine وترجمها جبرا: تُضرّج. أما نبتون فهو إله البحر في الميثولوجيا الكلاسيكية.

غيل باوزير

6 يوليو 2020م

الأطباء الكُتّاب حتحوت وحتاتة وحتاحت

نقلت في الفيسبوك مؤخرا اقتباسا من مقال نشر في مجلة (العربي) الكويتية للدكتور حسان حتحوت يتحدث عن شهر رمضان. وعندما كشفت في الإنترنت عن اسم حسان حتحوت وجدت هذه المعلومات عنه:

"الدكتور حسان حتحوت طبيب مصري أمريكي متخصص في علم الأجنة والنساء والتوليد، ولد في مدينة شبين الكوم بمحافظة المنوفية بمصر في 23 ديسمبر 1924م وتوفي في 26 أبريل 2009م، في باسادينا بكاليفورنيا. انضم إلى الإخوان المسلمين عام 1941م على يد الإمام حسن البنا مؤسس الجماعة، وشارك في حرب فلسطين بوصفه طبيبا".

إن الاسم حتحوت يتشابه مع أسماء أخرى تنتمي إلى جذر الحاء والتاء. فهناك الدكتور شريف حتاتة، وهو طبيب أيضا، كالدكتور حتحوت، ولكنه يتناقض معه في التوجه الفكري، فحتاتة كان كاتبا وناشطا ماركسيا شيوعيا، ولد في 13 سبتمبر 1923م وتوفي في 22 مايو 2017م، وقد تزوج الكاتبة النسوية الراحلة الدكتورة نوال السعداوي وله منها عقب، إذ عاشا معا مدة طويلة من الزمن ثم انفصلا بعد ذلك.

وهناك الطبيب السوري الدكتور غسان حتاحت، وقد جمع هو الآخر بين الطب والأدب، وله كتابات في مجلة (العربي) الكويتية وغيرها من المجلات الثقافية والطبية المعروفة. ولم نعثر على تاريخ ميلاد هذه الشخصية، ولكن مقالا عنه في الإنترنت ذكر أنه تخرج من كلية الطب بجامعة دمشق عام

1969م، وبعدها أتم دراسته في الولايات المتحدة الأمريكية، حيث تخصص في طب الأطفال، ولم يكتف بذلك بل تخصص أيضا في علم الوراثة والتشوهات الصبغية، وأظهر اهتماما خاصا بمشاكل واضطرابات التعلم عند الأطفال، وعاد بعدها إلى وطنه، وظل يمارس الاختصاص منذ عام 1975م حتى ودعته دمشق في 26 يونيو 2006م.

ولكن أود أن أذكر مع هذه الأسماء اسما ينتمي أيضا إلى جذر الحاء والتاء، ولكنه أصغر منها، وذلك لأن هذا الاسم يرتبط عندي بذكرى معينة. الاسم هو (حتّى) وهو اسم سياسي إندونيسي معروف هو الدكتور محمد حتى، يبدو أنه كان رفيقا لأحمد سوكارنو في السعي للحصول على استقلال إندونيسيا عن هولندا ثم تولى رئاسة الوزارة. أي أن هذا الرجل كان يتردد اسمه في نشرات الأخبار في فترة الخمسينيات من القرن الماضي، ولذلك أطلقه والدي، رحمه الله، على أحد أصدقاء طفولتي، الذي كان اسمه محمد، وهذا الصديق ما زال حيا يرزق وهو رجل فاضل، أسأل الله أن يحفظه ويمتعه بالصحة وطول العمر في طاعته.

وعلى نفس هذا المنوال – ولأن الشيء بالشيء يذكر– كان يتردد في فترة الستينيات في الأخبار أسماء باتريس لومومبا وجوزيف كازافوبو وموبوتو وهم من رجال السياسة في الكونغو. ويبدو أن والدي أعجبه اسم (كازافوبو) فأطلقه على أحد أصدقائه هو شخصيا، لا لشيء إلا أنه كان يحب أن يضفي جوا من المرح والبهجة على الوسط الصغير الذي كان يعيش فيه. فعلى الرغم من الهموم والقضايا الكبرى التي كان يحملها بين جوانحه كان يميل في جلساته مع الأصدقاء إلى النكتة والمرح، وكان من رواة النكتة البارعين، وله ضحكة مميزة ذات نبرة عالية. وقد كتب ذات مرة فقرة قصيرة، ضمن أحد

مقالاته في صحيفة الطليعة، تدعو إلى الابتسام ونبذ الهموم والغموم، أحب أن أختم بها مقالي هذا، وهي بعنوان (ابتسم):

الشاعر الكبير إيليا أبو ماضي فيلسوف متفائل يدعو إلى التمتع بمسرات الحياة والتمتع بما فيها من جمال والتغاضي عما يشوب نواحي الجمال فيها من قبح وشرور وآلام.. ومن أحسن ما قرأت له في هذا المعنى قوله:

قال السماء كئيبة وتجهما ... قلت ابتسم يكفي التجهم في السما
قال العدا حولي علت صيحاتهم ... أأسر والأعداء حولي في الحمى؟
قلت ابتسم لم يطلبوك بذمهم ... لو لم تكن منهم أجل وأعظما
قال الليالي جرعتني علقما ... قلت ابتسم ولئن جرعت العلقما

20 أبريل 2021م

كتاب (وصف رحلة إلى الملايو وجاوة وحيدرأباد)

مقدمة الترجمة

1

هكذا شاءت الأقدار أن تربطني بترجمة أعمال أسرة السيد هارولد إنجرامز. فبعد ترجمة كتاب المستشار الإنجليزي لسلطنتي حضرموت (اليمن أئمتها وحكامها وثوراتها)، الذي أتبعته بترجمة كتاب زوجته دورين (أيامي في الجزيرة العربية)، ها هي الفرصة تسنح لي لترجمة الكتاب الثالث من أعمال الأسرة إنجرامز. فقد طلب مني الأخ الأستاذ عبدالعزيز علي بن صلاح القعيطي أن أترجم تقرير السيد إنجرامز عن زيارته برفقة زوجته إلى الملايو وجاوة وحيدر أباد. كان هذا الكتاب في حقيقة الأمر قد ترجمه أحد الإخوة، وهو الدكتور محمد جعفر قاسم، وقد قدم لي الأستاذ عبدالعزيز هذه الترجمة لمراجعتها. وحيث إنني من المتصلين بالثقافة والكِتاب، كثيرًا ما مرت عليّ كتب أجنبية مترجمة إلى العربية تحمل على غلافها اسمين لمترجم ومراجع. ولكنني لم أعرف حتى الآن ما هي بالضبط مهمة المراجع وما هي حدود عمله، كما لم يحدث قط أنني رأيت اسم مراجع إلى جانب اسم المترجم في الكتب المترجمة إلى الإنجليزية مثلاً. وقد تبين لي من خلال عملي في هذا الكتاب أن المراجعة في حقيقة الأمر لا يمكن إلا أن تكون إعادة كاملة للترجمة! فكل مترجم له اجتهاده الخاص، ولكل مجتهد نصيب كما يقال. وقد أدخل المترجم السابق – جزاه الله خيرًا– بعض التعليقات المستندة في معظمها إلى خبرته التخصصية، وهي مفيدة على وجه العموم وقد أبقيت عليها، ولكنني أعدت

النظر في القليل منها التي بدا لي فيها وجه آخر. كما كتب الدكتور محمد جعفر قاسم توطئة – كما سماها– تركزت حول أمور تاريخية وسياسية مرتبطة بموضوع الكتاب. وكتبت أنا هذه المقدمة التي تنحو منحى آخر، كما اخترت بالاتفاق مع الأستاذ عبدالعزيز بعض الصور من حضرموت التقطت بعضها في زمن قريب من الزمن الذي يعالجه الكتاب إن لم يكن في نفس الزمن. ولعلنا نكون بذلك قد حققنا رغبة أحد الشخصيات الحضرمية الذي اقترح على إنجرامز– كما ذَكَر في الكتاب – أن يكون تقريره مشفوعًا بصور من حضرموت. وعسى أن يكون هذا الكتاب، بمادته وبتوقيت صدوره، إضافة جيدة ومهمة إلى الأدبيات المتعلقة بالمنطقة تفيد الباحثين والمهتمين.

2

لم تقتصر علاقتي بتراث إنجرامز على الترجمة، بل تعدتها إلى خوض مجال دراسة هذا التراث، وذلك عندما كلفني المركز الذي كنت قد ترجمت الكتاب الأول بالاتفاق معه، (مركز البحوث والدراسات اليمنية)، بكتابة ورقة ضمن ندوة ينظمها في جامعة عدن عن هارولد إنجرامز. وقد اخترت أن يكون عنوان هذه الورقة (هارولد إنجرامز من خلال كتاباته عن اليمن)، واستفدت آنذاك من ثلاثة كتب كانت متوفرة بين يدي. أولها الكتاب الذي ترجمته المشار إليه آنفا، والثاني هو الكتاب الذي ترجمه الدكتور سعيد عبدالخير النوبان تحت عنوان (حضرموت 1934– 1935م)، وقد كان هو الآخر تقريرًا قدمه إنجرامز إلى وزارة المستعمرات بعد زيارته الاستطلاعية الأولى مع زوجته إلى حضرموت، وقد أشار المترجم كاتب التوطئة إلى هذا التقرير ويبدو من كلامه أنه لم يعلم عن ترجمة النوبان له، والثالث الكتاب الأشبه بالسيرة الذاتية (الجزيرة العربية والجزر) الذي لم يترجم حتى الآن، وكانت الراحلة ليلى إنجرامز، ابنة هارولد ودورين، قد أهدتني نسخة منه. كما كانت ليلى حاضرة

في تلك الندوة التي عقدت بتاريخ 6 أكتوبر 2003م في إحدى قاعات جامعة عدن. ومما يؤسف له أنني لم أكن حينها قد اطلعت على هذا الكتاب (وصف رحلة إلى الملايو وجاوة وحيدر أباد)، إذ لا شك أنه كان سيضيف أبعادًا أخرى إلى دراستي تلك عن أعمال إنجرامز المرتبطة باليمن، لأن رحلته تلك إلى جنوب شرق آسيا لم تكن رحلة سياحة أو ترفيه بل كان منشغلاً في أثنائها بحضرموت. وربما كان من المناسب هنا أن نقتبس من الفصل الذي كتبته دورين إنجرامز عن هذه الرحلة من كتابها الذي ترجمتُه إلى اللغة العربية، (أيامي في الجزيرة العربية)، إذ قالت:

"كان عدد الحضارم في جزر شرق آسيا حوالي ثمانين ألفًا في عام 1939، وكانوا، بسبب ارتباطهم بوطنهم الأصلي، يتابعون باهتمام شديد الأحداث الجارية هناك. وبما أنه كانت تدور تكهنات عديدة حول (صلح إنجرامس)، كما كان يسمى، والتطورات التي شهدتها البلاد منذ أن أصبح هارولد مستشارًا – تنظيم وتحسين الإدارة، تدريب القوات المسلحة، إنشاء الطرق، تطوير الخدمات التعليمية والصحية – لذلك قرر هارولد أن يذهب لزيارة العرب المقيمين في سنغافورة وجاوة لكي يطلعهم على ما يدور في حضرموت ويحصل على دعمهم المعنوي والمادي. كما أضاف ضمن برنامج رحلته زيارة (دول الملايو غير الاتحادية) لدراسة معاهدات الحماية الخاصة بهم ونظام الإدارة عندهم وذلك بهدف اقتباس وتكييف ما يمكن أن يكون صالحًا لحضرموت."

3

والأستاذ عبدالعزيز القعيطي صاحب فكرة ترجمة هذا الكتاب إلى اللغة العربية هو أصغر أبناء السلطان علي بن صلاح القعيطي الذي ارتبط معه والدي المؤرخ والمفكر سعيد عوض باوزير بعلاقة صداقة وعمل وتشابه في الرؤى

والأفكار، وبقي ملازمًا له في مدينة (القطن) حوالي ست سنوات، بصفته مستشارًا وسكرتيرًا ومديرًا لمدرسة الهدى التي أنشأها السلطان وموجهًا لنشاطاتها التربوية والثقافية. وأنا أعرف أبا خالد الأستاذ السفير عبدالعزيز منذ أن كنت طفلًا في غيل باوزير في الخمسينيات من القرن الماضي، إذ تجمعنا خؤولتنا نحن الاثنين في نفس العائلة وهي عائلة آل طاهر القطنية الكريمة التي كان قد أصهر إليها الصديقان والشخصيتان الوطنيتان: السلطان علي بن صلاح القعيطي والمفكر سعيد عوض باوزير.

وقد أتي عبدالعزيز إلى غيل باوزير لكي يكمل فيها المرحلة الابتدائية من تعليمه بعد أن كان قد اجتاز سنتين منها في القطن، وذلك بناءً على اقتراح من والدي، وسكن في بيتنا في الغيل القديمة، وكان من أقرانه في الابتدائية من أبناء الغيل – كما أخبرني– الكوادر الثلاثة المعروفون في المالية والخارجية: المرحوم الأستاذ أحمد سالم وحدين، والأستاذ عبدالعزيز أحمد باعيسى، والأستاذ محمد عوض بن همام، وكذلك صديقنا (أبو ضاحي) الأخ سالم سعد بن حصين. ولكنني لم أشهد على هذه المرحلة المبكرة من حياته؛ لأنني كنت لم أولد بعد ثم بعد أن ولدت كنت في سن الطفولة غير المدركة. ولكن عندما كبرت قليلًا أصبحت أسمع بعض الحكايات المرتبطة بالأخ عبدالعزيز، ومنها أنه كان قد تعرض لحادث ما، ربما وهو ما زال في القطن، وأصيب بجراحة بليغة في ساعده الأيمن ظل أثرها باقيًا. وقد اصطحبه من القطن إلى غيل باوزير الخال عوض بن طاهر، وظل يتردد به فترة من الزمن على منتجع الشيخ مرعي بن علي الحاج في بستان (وديكة) على الطريق بين قرية (الديوان) وبلدة (النقعة)، وذلك للعلاج على يد هذا الرجل اليافعي الميسور الحال، الذي كانت لديه معرفة بالطب ويمارس العلاج، والذي أذكر أنا أيضًا ملامحه وسمته الوقور و(ذقنه) – لحيته الصغيرة – من بين ما

ظل عالقًا بذاكرتي من ذكريات الطفولة والصبا وما يسمى (بالظعينة) – أي التصييف – في قرية (الديوان) في موسم جني الرُّطب (الخريف). ويبدو لي الآن الشيخ مرعي وقصره الريفي المنيف وبستانه (ودَيْكة) وحصانه – إذ يقال إنه كان لديه حصان – كأنه ينتمي إلى عالم أسطوري! ولماذا نذهب بعيدًا؟ لقد عدنا، أنا والأخ عبدالعزيز، نستذكر تلك الأيام من غيل الخمسينيات وأوائل الستينيات من القرن الماضي وقال لي إنه يتذكر عندما كان هو وخاله عوض بن طاهر يقطعان الطريق من غيل باوزير إلى (وديكة) أنهما كانا يمران طولَ الطريق وسط غابة من أشجار النخيل والبساتين الزاهية . هذه الغابة لم تعد الآن– بعد أن أصبحت الأرض قفرًا يبابًا– إلا ذكرى من زمن جميل كانت فيه غيل باوزير، وربما معها حضرموت كلها، تبدو كأنما هي (اليوتوبيا) – المدينة الفاضلة – بعينها!

بعد إكمال المرحلة الابتدائية التحق عبدالعزيز في الغيل بالمدرسة الشهيرة (المدرسة الوسطى) التي كانت – كما هو معروف – الأولى والوحيدة من نوعها في حضرموت قاطبة، وسكن في القسم الداخلي بالمدرسة ثم واصل دراسته في مدرسة المعلمين التي كان بها قسم داخلي أيضًا. ولكنه كان يتردد كثيرًا على بيتنا القديم، وربما هذه الفترة هي التي بدأت فيها أعرفه وتنطبع صورته في ذاكرتي، وربطتني به بعض الذكريات الجميلة، إذ إنني أتذكر أنه كان يرسم لي بعض المناظر الطبيعية الجميلة بحجم صغير على الكراسات التي كنت أستعملها (للشخبطة). فقد كان مولعًا بالرسم حتى إن والدي ذكره في كتاب (الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي) بين الذين ينتظرهم مستقبل في فن الرسم، وذكر معه الأساتذة عبدالله بايمين، وعبدالله سالم باوزير، وصالح أحمد باصرة.

4

ليس الحديث عن الأستاذ عبدالعزيز القعيطي دخيلًا ولا بعيدًا عن موضوع هذا الكتاب، فهو ابن الرجل الذي شاءت الأقدار أن تتقاطع طريقه مع طريق مؤلف هذا الكتاب ونشأ بينهما صراع أو خلاف حول كثير من أمور الحكم والسياسة في حضرموت وأسلوب معالجتها. وقد تتبعت المواضع التي أتى فيها إنجرامز على ذكر علي بن صلاح في كتابه المهم (الجزيرة العربية والجزر) فوجدته لا يشير إليه إلا إشارات مقتضبة على الرغم من الدور المؤثر الذي كان له في كثير من المواقف قياسًا إلى أشخاص آخرين ربما توسع إنجرامز في الحديث عنهم، والمرة الوحيدة التي تكلم عنه بنوع من الاستفاضة كانت عندما وصفه مَظهرًا ومَخبرًا بعد أن تطرق إلى ذكر أول لقاء بينهما على ما يبدو، وكان وصفًا يُشتم منه قدر من السخط والتحامل. وقد ترجم هذا الوصف الدكتور محمد سعيد القدال وأورده في الكتاب الذي ألفه بالاشتراك مع الأستاذ عبدالعزيز القعيطي عن السلطان علي، ونكتفي هنا بالفقرة الأخيرة من هذا الوصف: "ما زلت أجده دائمًا محببًا إلى نفسي، حتى بعد أن شعرت، بعد المحاولات المستمرة والبدايات الجديدة التي وعد فيها بأن يمضي متزنًا، أنني لا أستطيع أن أثق فيه." وغني عن القول ماذا تعني ثقة إنجرامز أو عدم ثقته، وفي الكتاب الذي بين أيدينا ألوان عديدة من الأحكام التي كان يصدرها على الأشخاص والمواقف منطلقًا من موقعه ومن نوع المهام التي كان يضطلع بها في بلادنا!

وبالإضافة إلى التحليل الرصين والجميل الذي ورد في كتاب (السلطان علي بن صلاح القعيطي) للصراعات والملابسات التي خاضها السلطان علي مع إنجرامز وغيره من رجالات ذلك العصر، كان قد تحدث عن هذه العلاقة الملتبسة بين الرجلين بعضُ الباحثين والمؤرخين ومنهم المؤرخ سعيد عوض باوزير نفسه الذي كان – كما عرفنا – قريبًا بل ومشاركًا في أحداث تلك

الحقبة، بحكم علاقته بالسلطان علي. فقد أفرد المؤرخ باوزير حيزًا واسعًا من كتابه (الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي) – دونا عن الآخرين – لترجمة السلطان علي بن صلاح بوصفه أحد نماذج المثقفين الحضارم. وعثرت بين أوراقه على ترجمة أخرى للسلطان علي أكثر تفصيلاً نشرتها ضمن كتاب بعنوان (حياة جديدة.. سيرة ذاتية وشهادات) ضم – بالإضافة إلى فصول أخرى بقلم باوزير وعنه بأقلام آخرين – السيرة الذاتية أو المذكرات التي كتبها المؤرخ عن نشأته وشبابه حتى نهاية إقامته في القطن في النصف الثاني من أربعينيات القرن العشرين. وهذه الترجمة الأخيرة هي التي نشرها الأستاذ عبدالعزيز ضمن كتاب، قام بإصداره عام 2007م، هو عبارة عن تحقيق لمخطوطة زراعية خلّفها والده السلطان علي بعنوان (الكنز الدفين في الماء والطين)، وقد قام بتحقيق المخطوطة الخبير الزراعي السوداني الدكتور فاروق محمد إبراهيم.

وحسنًا فعل الأستاذ عبدالعزيز وقام بدور مهم ومطلوب عندما قرر أن يخوض مجال التأليف والنشر عن تاريخ والده وتاريخ الفترة التي ظهر فيها على مسرح الأحداث. وكان أول كتبه في هذا المجال الكتاب المشار إليه آنفًا، وعنوانه الكامل: (السلطان علي بن صلاح القعيطي 1898– 1948م ونصف قرن من الصراع السياسي في حضرموت) الذي صدر عن جامعة عدن في عام 1999م. وقد تعاون مع الأستاذ عبدالعزيز في هذا الكتاب، في جانب البحث التاريخي والصياغة، الأكاديمي السوداني الراحل الدكتور محمد سعيد القدال، ابن مؤسس التعليم الحديث في حضرموت، الشيخ القدال سعيد القدال، وصدرت من الكتاب طبعة ثانية منقحة ومزيدة عن دار الساقي في عام 2001م. وفي عام 2009م صدر للأستاذ عبدالعزيز القعيطي كتاب بعنوان (إحلال السلام في حضرموت.. دراسة تاريخية لتجربة حضرموت في القضاء على الثأر القبلي 1933– 1953م). وهو كتاب ضخم من القطع الكبير يربو عدد

صفحاته على الأربعمائة صفحة، ويكتنز بالمعلومات الموثقة مع صور للعديد من الوثائق والاتفاقيات والمراسلات المرتبطة بالصلح، الذي سمي بصلح إنجرامس، كما يحتوي على عدد كبير من الصور الفوتوغرافية، مما يدل على أنه قد بذل جهد ضخم في جمع وإعداد مادة الكتاب ومحتوياته لكي يكون وثيقة تاريخية عن مرحلة مهمة وفاصلة من تاريخ حضرموت. وقد قام بمراجعة الكتاب نفس الباحث الأكاديمي الذي رافق الأستاذ عبدالعزيز في الكتاب السابق، وهو الدكتور محمد سعيد القدال، رحمه الله.

وعندما قرر الأستاذ عبدالعزيز علي القعيطي أن يكتب عن نفسه وعن حياته لم يكتب سيرة ذاتية كاملة، بل كتب فقط عن تجربته في حقل العمل الدبلوماسي التي دامت ربع قرن من الزمان، إذ صدر في عام 2011 كتابه (ربع قرن في الدبلوماسية 1969– 1994). وهذا الكتاب لا يقل أهمية عن الكتابين السابقين اللذين أصدرهما الأستاذ عبدالعزيز، (السلطان علي بن صلاح القعيطي) و(إحلال السلام في حضرموت)، فقد جمع فيه خلاصة تلك السنوات الطويلة من العمل في الدبلوماسية والمراسيم وما استفاده من معلومات وخبرة في هذا المجال. كما أنه بث أحياناً في ثنايا الكتاب ما توصل إليه من دروس وعبر بوصفه إنساناً ومواطناً ووطنياً يعي ويشعر بحقيقة ما يجري وليس مجرد آلة صماء عابرة للرؤساء تنفذ عملاً روتينياً مرسومًا لها بدقة كما ربما تكونت الفكرة عن الموظفين في السلك الدبلوماسي، وهذا مما يحسب للأستاذ عبدالعزيز في هذا الكتاب الذي يعد على نحوٍ ما بمثابة شهادته على العصر الجمهوري الذي تلا عصر السلاطين. وعصر السلاطين هو العصر الذي ولد "ونشأ فيه أميرًا وكبر وترعرع بين عامة الناس" كما قال في النبذة القصيرة التي وضعها في بداية الكتاب تحت عنوان (حياتي في سطور)، وربما يقصد بذلك تجريد والده من مناصبه الحكومية ثم رحيله عن الدنيا في عام 1948.

وقد لخص الدكتور القدال الدرس المستفاد من مصير السلطان علي في سطور معبرة وردت في نهاية فصل بعنوان (علي بن صلاح القعيطي في الميزان) من كتاب (السلطان علي بن صلاح القعيطي)، إذ يقول:

"وكانت نهاية حياته عندما نجح خصومه في جره إلى المحاكمة والنفي ومعاناة الأيام الأخيرة. ولكنه انتصر عليهم، فقد عاد حيًا على صفحات الورق لأن في حياته ما يستحق الكتابة عنه. وهناك فرق بين النجاح والانتصار، فالنجاح وقتي والانتصار نهائي وحاسم. وهذه من أهم عبر التاريخ، أن يسعى الإنسان لينتصر لا ليحقق نجاحات عابرة سرعان ما تذروها الرياح."

وقد وضع الأستاذ عبدالعزيز ضمن الصفحات الأولى من كتابه (ربع قرن في الدبلوماسية) فصلاً بعنوان (أحداث قبيل الاستقلال) صور فيه – ربما دون أن يقصد – مصيرًا مشابهًا لمصير والده، ولكنه هذه المرة مصير وطن بكامله، وطن اسمه حضرموت، عندما روى بشفافية بعض الوقائع التي كان جزءًا منها، والتي تضمنت وصفه لشعور السلطان غالب بن عوض القعيطي ومعه السلطانان الكثيري والمهري بالمرارة من خذلان بريطانيا، الدولة الاستعمارية (الحامية) لهم ولبلدانهم وشعوبهم. عاد عبدالعزيز القعيطي بعد إنهاء دراسته في القاهرة على نفس الباخرة المسافرة من جدة إلى المكلا التي كانت تُقل السلاطين القعيطي والكثيري والمهري – في الكتاب أكثر من لقطة فوتوغرافية لمن كانوا على متن الباخرة عند رسوِّها في ميناء المكلا – ولكنه نزل من الباخرة إلى بر المكلا مع شخصين آخرين في حين لم ينزل السلاطين بل عادوا أدراجهم على نفس الباخرة إلى جدة.

تُرى أين كان السيد هارولد إنجرامز في تلك اللحظة؟!

18 أكتوبر 2018م

في يوم إشهار هامة لا تنحني

في يوم السبت التاسع عشر من شهر ديسمبر 2020م، اجتمع حشد كبير في قاعة الشروق في غيل باوزير كان أبرزهم وأقربهم إلى القلوب نجوم الكرة (العدانية) الكبار، جميل سيف وعدنان سبوع والأحمدي وجعبل وغيرهم، اجتمعوا للاحتفال والاحتفاء بصدور كتاب (باعامر هامة لا تنحني)، تأليف الأستاذ محمد سالم بن بريك، الذي يسجل السيرة الكروية المشرفة للأخ العزيز الأستاذ الكابتن عبدالله أحمد باعامر. وكنت أنا بين الحضور، ليس بين الحضور في القاعة فقط، بل بين الحضور في صفحات الكتاب أيضا.

كان الأخ (عبادي) قد طلب مني، منذ مدة، صورة شخصية، لوضعها في الكتاب بصفتي أحد زملائه في مراحل الدراسة الأولى، خاصة الابتدائية والمتوسطة، وتوقعت أن تكون الصورة في الكتاب بحجم صغير ضمن زملاء آخرين، ولكنني بعد أن تسلمت نسختي من الكتاب وأخذت أقلب صفحاته، إذا بي أجد أنني الوحيد من زملاء دراسة باعامر الذي نشرت صورته، وإذا بها تحتل صفحة كاملة. وقد انتهز المؤلف الأستاذ بن بريك فرصة بين زحمة الاحتفال فمال علي يسألني عن رأيي في الصورة ثم قال لي إنه هو الذي اختارها – ربما أخذها من صفحتي في الفيسبوك – وأدخل عليها بعض اللمسات الفنية حتى ظهرت بالصورة التي هي عليها في الكتاب. وأضاف الأخ بن بريك أنه كان يهدف من هذه الصورة إلى تغطية مرحلة الصبا في حياة باعامر التي لا يحتفظ هو منها بصور. وقد اعترف باعامر في حديثه أنه طوال حياته كان يفتقر إلى عنصر التوثيق.

كانت هذه المرة الأولى التي ألتقي فيها بالأستاذ بن بريك، وقد سعدت

بهذا اللقاء والتعرف إلى شخصية دمثة لطيفة تنتمي إلينا نحن معشر الكتاب، وإن كان في مجال خاص هو مجال الرياضة، وقد اطلعت قبل ذلك على الكتب التي أصدرها مثل كتابه عن اللاعب أيوب وكتابه عن ناديي (كوكب الصباح) و(شباب الجنوب) بالشحر – لعل الشحر انفردت بين المدن الحضرمية بأن يكون اسما ناديها الكبيرين من كلمتين، مضاف ومضاف إليه – هذه ملاحظة على الهامش.

بقي أن أتحدث عن شخص ثالث عدا المحتفى به ومؤلف الكتاب، حمل على أكتافه الجزء الأكبر، ربما، من إضفاء الجو الذي أعطى للحفل نكهته وجاذبيته الخاصة، ذلك هو الأديب الكاتب والفنان الشامل الأستاذ أنور سعيد الحوثري، الذي انتهزت الفرصة لالتقاط صورة تذكارية معه، وتبادل كليمات استذكرنا من ضمنها صديقنا المشترك نزيل الكويت السيد علوي سالم مدهر حفظه الله. وأنا من المعجبين بأنور الحوثري، الرجل الجميل شكلا ومضمونا، ولكن لعل هذه المرة الأولى التي أسمعه فيها يتحدث. لقد أمتعنا بحديثه الشائق، السهل الممتنع، عن علاقته بالكابتن عبدالله باعامر ولم ينس أن يعتذر نيابة عن باعامر والمؤلف عن نبرة (التحدي) كما سماها التي ربما استشعرها البعض في العنوان، ونسب عبارة (هامة لا تنحني) إلى الشاعر المرحوم القرشي عبدالرحيم سلام، وأنه قالها في حق باعامر نتيجة للموقف الذي حصل معه أثناء إحدى المشاركات الكروية في الصين. وأنور الحوثري هو الذي ألف ولحن وغنى الأغنية الجميلة المستوحاة من نفس العبارة، التي كانت تتردد أصداؤها في جنبات القاعة في أثناء توزيع نسخ الكتاب الموقعة سلفا من باعامر وبن بريك على الحضور.

باختصار كان يوم أمس يوما جميلا بهيجا من أيام غيل باوزير مدينة العلم والثقافة والفن والرياضة، كما وصفها أنور الحوثري!

20 ديسمبر 2020م

الأستاذ علي عقيل بن يحيى قامةً حضرميةً سامقة

في مقال لي بعنوان (إبداعنا الأدبي بين التوقف المبكر والاستمرار المتعثر) أوردته ضمن مقالات كتابي (كُتّاب في المرآة)، استعرضت بإيجاز كثيرا من الأسماء الحضرمية التي مارست الإبداع بشقيه الشائعين الشعري والقصصي، وذكرت من بين هؤلاء المناضل والأديب الراحل الأستاذ علي عقيل بن يحيى، إذ قلت عنه بعد أن ذكرت الأديب حسن عبدالرحمن السقاف ما يلي:

... "ولعله من المناسب أن نذكر إلى جانب هذا الشاعر شخصية أدبية ووطنية تنتمي إلى نفس المنطقة – سيئون وضواحيها – هو الأستاذ علي بن عقيل بن يحيى (1923م – 1987م)، الذي كتب في خضم نضاله الوطني عددًا من القصائد الشعرية ذات الديباجة الرصينة لا ندري إن كانت تشكل ديوانًا إذا ما تم جمعها. وهذه مسؤولية المركز اليمني للأبحاث الثقافية والمتاحف بعدن، فقد قام الراحل بدور في تأسيسه وعمل من خلاله في سنواته الأخيرة وأسدى كثيرًا من الخدمات له وللتراث الوطني".

وتطرقت إلى اسم علي عقيل في مقال آخر خصصته للحديث عن الأستاذ عبدالله محيرز الذي كان زميلا له في المركز اليمني للأبحاث الثقافية فقلت:

"كان اسم الأستاذ عبدالله محيرز يتردد كثيرًا على لسان الأستاذ أحمد عوض باوزير، كما كان يتردد أيضًا اسم الأديب والشخصية الوطنية البارزة الأستاذ علي عقيل بن يحيى، الذي عمل نائبًا لمدير المركز اليمني حتى وفاته في ديسمبر عام 1987م. وقد ألقى الأستاذ باوزير كلمة فرع حضرموت لاتحاد

الأدباء والكتاب اليمنيين في حفل التأبين الذي أقامه فرع الاتحاد بعدن بمناسبة أربعينية علي عقيل، كما ألقى الأستاذ محيرز كلمة قصيرة أشاد فيها بدور الراحل بن يحيى في تأسيس المركز اليمني للأبحاث الثقافية والآثار والمتاحف وبنائه وتطويره".

كان ما سبق من اقتباسات تمهيدا للحديث عن كتاب صدر حديثا عن دار حضرموت للدراسات والنشر يحمل عنوان (تريم بوابة الفكر القومي العربي إلى اليمن.. علي عقيل بن يحيى رائدًا). الكتاب من تأليف الدكتور صالح أبوبكر بن الشيخ أبوبكر الذي تقول النبذة المنشورة عنه في نهاية الكتاب إنه من أبناء مدينة المكلا، تلقى التعليم الابتدائي والمتوسط في مدارسها، وحصل على الشهادة الثانوية العامة من (ثانوية الشويخ) بدولة الكويت، ثم ليسانس الآداب قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية من جامعة دمشق بالجمهورية العربية السورية. وكنت قد حصلت على نسخة مجانية من الكتاب عند صدوره من صديقي صاحب دار النشر التي أصدرته الأستاذ الأديب سالم عبدالله بن سلمان. وأنا أكتب الآن عن هذا الكتاب معترفا أنني لم أقرأه بعد كاملا رغم أنه كتاب جدير بالقراءة، ولكني أعتزم أن أتوفر على قراءته الآن إن شاء الله .

تتصدر الكتاب مقدمة جميلة بعنوان (مقدمة: ذكريات عائلية) كتبتها ابنتا الأستاذ علي عقيل الدكتورة عزة والدكتورة ليلى اللتان – حسب الهامش – تقيمان حاليا في فرنسا وتعملان باحثتين في مجال التاريخ والآثار، ومن شابه أباه فما ظلم! والعبارة الأخيرة من عندي طبعا. وسأنقل من المقدمة اقتباسين لهما صلة بما كتبته عن علي عقيل ونقلته في مقدمة هذا المنشور. يقول الاقتباس الأول على لسان عزة وليلى علي عقيل:

"تمثل عدن أجمل فترات حياتنا وفيها وجدنا لأول مرة الاستقرار والأمان رغم أن ظروف البلاد نفسها لم تكن دائما كذلك، ورغم عدم رضاه عن كل ما يحدث في البلد حينها لكنه استطاع التعايش، عاش بين كتبه وأبحاثه ونشاطات المركز المختلفة، كإصدار مجلة التراث. وكان عمله كمدير وكنائب مدير للمركز اليمني للثقافة والآثار والمتاحف من أنسب الأعمال له، وعمل على تجميع المخطوطات وتأسيس مكتبة الميكروفيلم، وكان سعيدا جدا لاستطاعته الحفاظ على ما تبقى من مخطوطات حضرموت من الإتلاف وكانت سعادته لا تحصى بضم مكتبة آل بن يحيى، مكتبة نشأته، إلى مكتبة الأحقاف. ونشط في اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، وبهذا نأى بنفسه بعيدا عن السياسة وتفرغ لاهتماماته الشخصية".

ويقول الاقتباس الثاني من مقدمة الدكتورتين عزة وليلى:

"والدنا في حقيقته شاعر مثقف ذو طموح كبير لأمته العربية، قضى الشطر الأول من حياته لتحقيق أحلام الشاعر لأمته، أما الشطر الثاني من حياته فكرسه لتكوينه الأساسي أي الشعر والأدب والتاريخ. من الصعب الحديث عن أب دون أن يعتقد البعض أن في حديثنا عنه مبالغة أو مثالية بدافع المحبة، لكن كل من عرفه يشهد بأنه شديد الذكاء ذو ذاكرة قوية يحفظ الكثير من القرآن الكريم والشعر القديم. وما يميزه أنه منظم في فكره وعمله مواظب لا يكل".

واحتوى الكتاب في جزئه الأخير على نماذج من نتاج الأستاذ علي عقيل الأدبي النثري والشعري. وكان آخر ما ضمه هذا الجزء قصيدة شعرية شدتني كثيرا شكلا ومضمونا ومبنى ومعنى وتحمل في الكتاب هذا العنوان: مرثية في فقيد الأدب حسن بن عبدالرحمن الكاف احتفالا بمرور أربعين يوما على

وفاته. وأظن أن هنا خطأ في اسم المرثي وأن المقصود هو الأديب الشاعر حسن بن عبدالرحمن السقاف، وليس الكاف. ولعل الصديقة الدكتورة عزة، أو غيرها من الأصدقاء المطلعين على المنشور، تفيدني ما إذا كنت مصيبا أو مخطئا في هذه الملاحظة. يقول الشاعر الكبير علي عقيل بن يحيى في بداية القصيدة:

ما الشعر أعذبه الكلام الكاذبا ... ليس البواكي كلهن نوادبا
إن الرثاء هو الوفاء يقوله ... متفجع لا راغبا أو راهبا
فإذا الدموع على الخدود تساقطت ... ميزت منها صادقا ومواربا
دع عنك رواد الخداع ورهطه ... وقل الحقيقة شاعرا أو كاتبا

رحم الله علي عقيل بن يحيى وجزاه خير الجزاء عن أمته العربية المنكوبة قبل كل شيء بنخبها الذين فقدوا الإيمان بها كما كان يؤمن بها علي عقيل.

6 سبتمبر 2020م

تقديم كتاب

(حضرموت.. قراءات في النصوص)

يبدو أننا، الدكتور عبدالله سعيد الجعيدي وأنا، أصبحنا فرسي رهان في مجال كتابة المقالات ثم جمعها بعد ذلك وإصدارها في كتب الواحد تلوَ الآخر.. لعل هذا مدخل مناسب للولوج إلى أجواء المقدمة التي طلب مني صديقي أبو محمد أن أقدم بها كتابه هذا (حضرموت.. قراءات في النصوص)، وأظن أن هذا هو كتابه الثالث من هذا النوع الذي يشمل مقالات في مواضيع متعددة. كان كتابه الأول (أوراق مكلاّوية)، وكان كتابي النثري الأول (قضايا يمنية في الأدب والثقافة)، وهذا هو العنوان الفرعي للكتاب، أما عنوانه الرئيسي فهو (في دروب الإبداع)، ولكنني قصدت المقابلة بين صفتي (المكلاوية) و(اليمنية)، لأعطي إيحاءً بأنهما ترمزان إلى نوع من الارتباط بالمكان سواء أكان مدينة أم وطناً. وبين مدينة المؤلف، المكلا، وبين الوطن (العام) لكلينا، اليمن، يأتي الوطن (الخاص) لكلينا أيضًا، حضرموت، ليتصدر العنوان في هذا الكتاب، ويرتفع اسم حضرموت عاليًا في هذه "اللحظة الراهنة التي يسعى فيها الحضارمة لتوحيد كلمتهم، وهو ما يؤسس لخطاب المستقبل والدعوة إلى تأسيس البدايات السليمة وتحديد الأولويات". وهذه العبارة التي بين علامتي التنصيص اقتباس من أحد فصول الباب الثالث من هذا الكتاب، وهي نموذج على النظر الموضوعي لدى المؤلف عبدالله الجعيدي الذي، كما عرفته دائمًا، يقف على مسافة واحدة من كل التيارات والتوجهات السائدة ويترفع فوق صراعاتها فيما بينها وينبذ التعصب

والانحياز الأعمى الذي تتسم به غالبًا هذه الصراعات.

* * *

كان الكتاب الثاني للدكتور الجعيدي من هذا النوع متعددِ الموضوعات هو (عابر سبيل)، الذي يبدو وكأنه امتداد أو مواصلة للكتاب الأول، لأنه ينحو نفس المنحى في اختيار المواضيع وفي أسلوب تناولها وهو منحى يمزج بين السيرة الذاتية والهم العام ويقترب كثيرًا من الطابع الأدبي، وأكاد أقول القصصي. وبحكم العلاقة الوثيقة التي تربطني بالدكتور عبدالله، قمت – بناءً على طلبه– بإصدار الطبعة الثانية من كتاب (عابر سبيل) عن دار مكتبة الصالحية للنشر والتوزيع الخاصة بي، وكتبت له مقدمة سميتها تصديرًا، لأننا أعدنا نشر مقدمة الطبعة الأولى من الكتاب التي كتبها أستاذنا أ. د. عبدالله حسين البار. أي أن هذه المقدمة التي أكتبها الآن هي الثانية التي أكتبها لأحد كتب المؤلف والمؤرخ عبدالله سعيد الجعيدي، وهذا شرف وثقة أعتز بها من أخي المؤلف الجعيدي الذي وإن لم يكن قد كتب مقدمة لأحد كتبي، إلا أنه كتب مقالاً، أعتز به أيضًا أيما اعتزاز، عن كتابي النثري الثالث (على طريق الوعي)، ولا يسعني إلا أن أضعه مقدمة للطبعة الثانية من الكتاب إن قدر لها أن تصدر. وهذا المقال الذي كان عنوانه عندما نشر في الفيسبوك وفي الصحافة (نجيب باوزير.. عندما يتكلم الكبار في شؤون الوطن) أتشرف بأن يكون أحد فصول الكتاب الجديد الذي بين أيدينا، ضمن فصول تناول فيها المؤلف الجعيدي عددًا من المؤلفات المعاصرة التي تتناول التاريخ، القديم والحديث، والشأن العام.

وهذه الفصول التي تتناول المؤلفات المعاصرة جعلها المؤلف الجعيدي في الباب الثالث والأخير من الكتاب، الذي يتكون من ثلاثة أبواب فقط. أما الباب الثاني فقد خصصه للحديث عن كاتب واحد فقط، ولذلك جعل عنوانه (في حضرة الصحفي أحمد عوض باوزير)، وضم فيه أربعة فصول عن هذا

الصحفي الكبير الرائد كان قد نشرها في مظان أخرى، وإذا استثنينا الفصل الأول من هذا الباب، فإن الفصول الثلاثة الباقية هي في الأصل مقدمات الكتب الثلاثة التي اشتملت تقريبًا على كل كتابات أحمد عوض باوزير الصحفية سواء في الصحف العدنية التي عمل محررًا بها، أو في صحيفته الخاصة (الطليعة) التي أسسها وأصدرها في المكلا- حضرموت، وكان هو رئيس تحريرها. وكل هذه الكتب الثلاثة كان لي شخصيًا شرف الإسهام والمشاركة في الإشراف عليها وإعدادها للنشر بشكل أو بآخر بصفتي ابن أخ الصحفي باوزير ومهتمًا بالشأن الثقافي، وكتبت تصديرًا لأحدها. ولكن الدكتور عبدالله الجعيدي هو الذي تصدى لمهمة كتابة (قراءة) مستفيضة لكل منها، وهذه (القراءات) الثلاث هي التي سيجدها القارئ متاحة أمامه في هذا الكتاب (حضرموت.. قراءات في النصوص).

يتبين مما سبق أن هذا الكتاب الذي اعتبرته الكتاب الثالث للجعيدي من نمط الكتب المتعددة المواضيع، وإن كان يشترك مع الكتابين السابقين في خاصية تعدد المواضيع هذه، إلا أنه يختلف عنها في كونه يتناول بالتحليل والدراسة نصوصًا مكتوبة نشرت أو صدرت في أزمنة مختلفة، وهناك نص ما زال مخطوطًا هو الذي استند إليه في كتابة الفصل الذي عنوانه (ثورة العبيد في حضرموت)، وهو مذكرة الشيخ أحمد الملاحي التاريخية. والباب الأول الذي لم نذكره حتى الآن عنوانه (القراءات التاريخية). ويقصد المؤلف بالقراءة التاريخية التأمل في حدث أو واقعة تاريخية معينة من خلال بعض المصادر أو النصوص التي تكلمت عن هذه الواقعة أو الحدث. ويحتوي هذا الباب على ثلاثة فصول، فبالإضافة إلى الفصل الذي أشرت إليه (ثورة العبيد في حضرموت)، وهو الفصل الثالث، يتكلم الفصل الأول عن البرتغاليين في مصادر القرن السادس عشر الميلادي، العاشر الهجري، ويقصد المؤلف بهذا العنوان الغزو البرتغالي لسواحل جنوب الجزيرة العربية وبخاصة هجماتهم على

موانئ حضرموت. وقد عاد الدكتور الجعيدي إلى ملامسة موضوع الغزو البرتغالي لميناء الشحر من زاوية أخرى في الباب الثالث، عندما تناول كتاب (الشهداء السبعة) للمؤرخ القدير محمد عبدالقادر بامطرف، فهو هنا بالكاد يذكر البرتغاليين، لأن حديثه في هذا الفصل كان منصبًا على مناقشة الاتهام الذي وجه إلى بامطرف حول مدى صحة ما ورد في كتابه، وما إذا كان الكتاب قد كُتب استرضاءً للسلطة (الثورية) القائمة آنذاك في الجنوب. وكتاب (الشهداء السبعة) صدرت طبعته الأولى في العراق في السبعينيات، مع كتابين آخرين لبامطرف هما (في سبيل الحكم) و(المعلم عبدالحق)، وقد اقتنيتها كلها في أثناء وجودي هناك للدراسة.

بقي أن نشير إلى الفصل الثاني من الباب الأول، وهذا الفصل يتناول حادثة تولي أول شخصية وطنية من أبناء حضرموت منصب وزير السلطنة بعد سلسلة من الوزراء – أو السكرتيرين حسب الاصطلاح السابق – المجلوبين من الخارج. والتزامًا بمنهج الكتاب وهو القراءة من خلال النصوص، حاول المؤلف أن يحلل نصين (مقالين) توجه كاتباهما بالخطاب فيهما إلى الوزير الوطني نفسه، السيد أحمد محمد العطاس، عند تعيينه، المقال الأول كتبه المؤرخ والكاتب السياسي الأستاذ سعيد عوض باوزير– والدي – في صحيفة (الطليعة)، والمقال الثاني كتبه الشاعر والصحفي الأستاذ حسين محمد البار في صحيفته (الرائد). وإذن فإن كل باب من أبواب هذا الكتاب للدكتور الجعيدي لا يخلو من فصل على الأقل يمت لي بصلة بشكل أو بآخر، ولذلك أقول على سبيل الدعابة: لقد حق لصديقي أبي محمد أن يسند إليّ كتابة مقدمة كتابه الجديد هذا ما دام لي فيه أكثر من موطئ قدم، إذا جاز التعبير!

* * *

على الرغم من أن كتاب (حضرموت.. قراءات في النصوص) عبارة عن تجميع لمقالات متفرقة كتبت في فترات مختلفة وسبق أن نشر معظمها

أو كلها هنا أو هناك، وهو النهج الذي سرت عليه في تأليف كتبي النثرية الثلاثة حتى الآن، فإن المؤلف، الأستاذ الدكتور عبدالله سعيد بن جسار الجعيدي – ها أنا الآن أضع اسمه وصفته الأكاديمية كاملين كما وردا ضمن (عتبات) الكتاب، وهذا من حقه – أقول إن المؤلف وُفق تمامًا، كما أرى، أولًا في اختيار هذه المواد بالذات من بين كتاباته المتعددة، ثم في عملية ترتيبها وتوزيعها بوصفها فصولاً متتابعة ومترابطة ضمن كتاب واحد. وأشرت في مقدمة التقديم إلى مغزى تصدر اسم حضرموت للعنوان، وقد أُتبع الاسم في هذا العنوان الرئيسي بعبارة (قراءات في النصوص) ليعطي القارئ فكرة عن منهج الكتاب. وتحت هذا العنوان وضع المؤلف ثلاث كلمات تلخص الأبواب الثلاثة للكتاب: التاريخ – الصحافة – المؤلفات.

وقد تدرج عدد الفصول في كل باب، من ثلاثة في الباب الأول، إلى أربعة في الباب الثاني، إلى أن بلغ أحد عشر فصلاً، في الباب الأخير، اختلفت وتفاوتت كثيرًا في حجمها، إذ جاءت في البداية الفصول الأكبر حجمًا، واختُتم الكتاب بفصل قصير جدًا يتناول كتابًا عن مدينة (بروم). وتشهد فصول الكتاب بمختلف مواضيعها على الجهد الدؤوب الذي يقوم به الدكتور عبدالله الجعيدي في البحث والمتابعة والكتابة، مستغلاً (موقعه) المستقل الذي أشرت إليه أيضًا في البداية ومقدرته الكتابية الواضحة، بحيث يبدو وكأنه امتداد طبيعي وجيد لمن سبقه في الجيلين – على الأقل – الماضيين، من الكُتاب والمفكرين والصحفيين والمؤرخين الحضارمة، سواء الذين تركز الاهتمام عليهم في فصول الكتاب أو الذين جاء ذكرهم عرضًا في ثنايا الفصول: سعيد عوض باوزير، وحسين محمد البار، وأحمد عوض باوزير، وحامد أبوبكر المحضار، ومحمد عبدالقادر بامطرف، وصالح علي الحامد، ومحمد بن هاشم، ومحمد أحمد الشاطري، وعبدالرحمن عبدالكريم الملاحي، وغيرهم.

10 أكتوبر 2020م

من أجل حضرموت

في هذا المقال سأتحدث عن أحد الشخصيات الحضرمية المرموقة الذي سعدت بالتعرف إليه وربطتني به الصداقة والمودة منذ سنوات ليست بالبعيدة. سأبدأ من النهاية، من آخر لقاء جمعني بالأخ الصديق الأستاذ محمد مبارك بن دهري. كان قد أخبرني بوصوله من بريطانيا حيث يقيم، فهو يحمل الجنسية البريطانية، ودعاني لزيارته في (مدارس الأحقاف العالمية) بالمكلا، وعندما حانت الفرصة المناسبة توجهت في يوم الخميس الماضي 12 نوفمبر 2020م إلى المكلا وجعلت من ضمن برنامجي زيارة مدارس الأحقاف العالمية التي جهدت حتى عرفت مكانها الذي يقع ضمن مساحة بكر من مدينة المكلا بمحاذاة شارع الكورنيش، وكان من حسن المصادفة أنني التقيت بصديق عزيز، شخصية حضرمية أخرى ذات حضور ثقافي، مر بسيارته وأنا أتلمس طريقي ماشيا إلى مبتغاي، ذلك هو المهندس الشاعر الأستاذ عبدالله سالم باكرمان، فأقلني إلى أمام بوابة المدرسة، وودعته بعد أن طلبت منه المشاركة بقصيدة من آخر إنتاجه في عدد مجلة الفكر الجديد فوعدني بذلك.

كنت قبيل زيارتي هذه للصديق محمد بن دهري قد أرسلت إليه بالواتسأب مقالا اطلعت عليه في صحيفة (القدس العربي) بعنوان: (حضرموت: سادة ومهاجرون وسيوف عابرة للحدود) كتبه محمد تركي الربيعو. أما لماذا أرسلت إلى الصديق بن دهري هذا المقال فلأنه هو شخصيا الذي كان وراء فكرة المؤتمر الذي عقد في لندن عن الحضارم وهجرتهم، وهو المؤتمر الذي تمخض عنه كتاب (حضرموت والمهجر) الذي يتحدث عنه مقال الكاتب

الربيعو في (القدس العربي). نظرا لكون السيد بن دهري من المهتمين القلائل بالشأن الحضرمي وخصوصا قضية (حضارم المهجر) في أصقاع المعمورة فقد قام بتأسيس شبكة اتصالات وموقع إلكتروني لهذا الغرض ونشر عدة مقالات باللغة الإنجليزية ينقل من خلالها، بدقة، المشهد السياسي المتأزم وتدهور الوضع المعيشي في البلد وكان وما زال على تواصل مستمر مع كل المهتمين من حضارم المهجر في الداخل والخارج من أجل البحث عن فرص أفضل لمستقبل حضرموت. والسيد بن دهري من أبرز الذين أسسوا مركز بحوث حضرموت بالمكلا في بداية عام 2014م، وهو رئيس مجلس الأمناء، ومن خلال هذا المركز رتب إقامة مؤتمر (إعادة اكتشاف حضرموت) بجامعة لندن في 7 مارس 2015 بحضور أكاديميين من أنحاء العالم، وكان الإنجاز الكبير لهذا المؤتمر صدور كتاب (حضرموت والمهجر).

شارك في ذلك المؤتمر عدد كبير من الباحثين الأجانب من اليابان، النرويج، فرنسا، هولندا، بريطانيا، شرق أفريقيا، أمريكا، وكلهم سلموا أوراقهم بعد المؤتمر، وتداول منظم المؤتمر السيد بن دهري مع الأصدقاء د. نويل بريهوني، البريطاني ذي الأصل الأيرلندي، و د. عبدالله بجره النهدي، ود. عادل العولقي – الصديق الذي ترجم مقالي عن ليلى إنجرامز إلى الإنجليزية ترجمة دقيقة وجميلة – تداولوا حول فكرة نشر كتاب من أبحاث المؤتمر، وشجع الكل الفكرة، ومن هنا قام د. نويل والأستاذ بن دهري بالمجهود بحكم أن د. نويل قد نشر من قبل عددا من الكتب، فتابع الموضوع مع شركة I.B. TAURIS المعروفة لنشر الكتب الأكاديمية، ثم اشترك مع السيد نويل، في إعداد الكتاب، السيد جون شيبمان، وهو دبلوماسي بريطاني سابق كنت قد تعرفت إليه في لندن، من خلال صديقنا المشترك الأستاذ ذياب بن صخر العامري، في عام 2001م وقدم لي مساعدة جليلة في أثناء عملي في

ترجمة كتاب هارولد إنجرامز (اليمن أئمتها وحكامها وثوراتها).

صدر كتاب (حضرموت والمهجر) باللغة الإنجليزية في عام 2017م، وأهداني الأستاذ بن دهري نسخة منه مؤرخة في مثل هذا الشهر نوفمبر من ذلك العام، ومؤخرا صدر الكتاب في ترجمة عربية أعدها مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية بالرياض واضطلع بها المترجم بشير العيسوي، وخرج الكتاب بنفس تصميم الطبعة الإنجليزية.

في لقائنا الأخير في المكلا أخبرني الصديق محمد بأن جذوره تعود إلى مدينة القطن بحضرموت، وقد تذكرت فعلا وأنا أكتب هذا المقال أنه تربطه وأخاه المرحوم سالم مبارك بن دهري، مدير البنك المركزي لمحافظة حضرموت، علاقة قرابة بأخوالي من القطن آل طاهر، وبالذات بالأخ سعيد كربي بن طاهر الذي استقر منذ مدة بعيدة في (جول مسحة) من ضواحي المكلا، فسعيد هذا ابن عمتهما الأخت الصغرى لوالدهما. ولكن الأخ محمد نفسه ولد في ممباسا بكينيا عام 1946 ونشأ وعاش ردحا من شبابه هناك قبل أن يسافر إلى أرض الوطن – الجنوب – مع بداية الاستقلال، حيث عمل في اللجنة المشتركة كنائب ضابط اتصال من قبل وزارة الاقتصاد مع الشركة اليابانية نيشيرو للأسماك. ثم غادر الجنوب في أوائل السبعينيات إلى كينيا ومنها في عام 1974 إلى مدينة جدة بالمملكة العربية السعودية، وعاش فيها عدة سنوات يعمل في السفارة البريطانية هناك زميلا للسيد جون شيبمان الذي سبق ذكره، حيث بدأت علاقتهما وصداقتهما الوطيدة من هناك. ثم انتقل للعيش في لندن بالمملكة المتحدة، ولكن هذا لم يمنعه من القيام بزيارات متكررة لموطنه الأصلي حضرموت لزيارة الأهل و الاطلاع على الأوضاع بشكل عام في بلاده وقد عبر عن عميق حزنه لما يشاهده من تدهور مستمر في جميع المجالات وظل يعمل دائما بصمت مع كل الغيورين من أجل نهضة

واستقرار حضرموت. فله العديد من النشاطات السابقة في التواصل مع المنظمات و الجهات الخارجية بالإضافة الى المهاجرين الحضارم للبحث عن إمكانية تقديم الدعم الطبي و الإنساني والتعليمي لحضرموت، وقد قام بعمل تطوعي لتقديم دراسة جدوى والتواصل مع الخارج لاعتماد منهج كامبريدج، وتوج ذلك ببدء العمل في المكلا بتطبيق المنهج الإنجليزي بحضرموت، ومن الإنجازات تأسيس أول مدرسة (مدارس حضرموت العالمية) بالمنهج الإنجليزي IGCSEفي المكلا عام 2014، ثم افتتاح مدرسة وادي حضرموت العالمية في سيئون بتاريخ 25 سبتمبر 2018. كما أسس مؤخرا (مدارس الأحقاف العالمية) بالمكلا في 1 سبتمبر 2019، مع مساهمين من أولياء الأمور وشخصيات من المجتمع المدني. والأستاذ محمد بن دهري أيضا عضو مجلس إدارة – جامعة القرآن الكريم – فرع المكلا، وعضو جمعية أصدقاء حضرموت بلندن، وعضو جمعية الصداقة البريطانية اليمنية بلندن.

وللتدليل على النجاح الذي حققه مؤتمر إعادة اكتشاف حضرموت، والكتاب الذي تمخض عنه، واللذان كان وراءهما في المقام الأول محمد بن دهري، أختم هذا المقال بآخر فقرة من مقال محمد تركي الربيعو:

... "وفي الكتاب أيضاً دراسات عن الحضرموتيين في الفلبين وكينيا وسنغافورة وموميباي، وكلام كثير عن أهل هذا البلد وشبكاته عبر المحيط الهندي، لدرجة يصل فيها القارئ وهو ينهي صفحاته إلى القناعة بأن هذا الأطلس الإثنوغرافي قد يكون من أهم الكتب التي صدرت خلال الأعوام الفائتة، ليس عن إقليم في اليمن فحسب، بل عن مدننا العربية عامة".

15 نوفمبر 2020م

كلمة إنصاف في وداع سند

فجأة رحل سند بايعشوت وفي هدوء عجيب يشبه شخصية الرجل نفسها. ببساطة مات وببساطة كان يعيش بيننا حتى إن حضوره كان يملأ المكان وفي نفس الوقت كان لا يُحَس وكأنه نوع من الظواهر الطبيعية التي لا تقوم الحياة بدونها ومع ذلك لا نشعر بها! ولكن وفاته المفاجئة ما كان لها إلا أن تلفت الأنظار إلى ما كان يتمتع به الرجل من فضائل جمة أحسسنا الآن بخسارتها دفعة واحدة وكان يحجبها شعور العادة المقيت الذي ينتاب الإنسان فيحجب عنه كثيرا من الأشياء الجميلة في من حوله. ولعله لم يكن غريبا أن آخر منشور وضعه الراحل سند صباح يوم وفاته نفسه أو قبله بيوم، منظر صباحي أنيق من مدينة المكلا وتعليق يقول: "صَبَح الصباح ما أجملُه"، وهي الأغنية (العدنية) الجميلة التي كانت تهش لها أسماعنا وقلوبنا في صباحات زمن جميل مضى. لكن سند لا يتحسر على (الزمن الجميل) كمعظمنا بل أظن أنه كان يعيشه ويتنفسه مع كل صباح مكلاوي جديد، ولذلك تتعدد وتتكرر في صفحته مثل هذه المنشورات الصباحية النابضة بحب مدينته المكلا وبالأمل في زمن جميل قادم لها. وربما كان هذا المنشور وصيته الأخيرة لنا أن: "على الأرض ما يستحق الحياة" رغم كل شيء ولذلك علينا ألا نلقي بالا إلى ما يكدر الأرض ويشوهها.. كان سند ربما الوحيد من بيننا الذي تخلو منشوراته من التذمر والشكوى والنقد، والوحيد الذي يكاد لا يعرف له توجه سياسي معين (مع أو ضد)، في زمن موبوء بالتعصب الفاقع من ناحية والإقصاء وكراهية الآخر من ناحية أخرى. ولم يكن هذا في حالة سند سلبية ولا تقيّة ولا إمساكا بالعصا من المنتصف، بل الأقرب أنه كان محاولة

منه للتركيز على الأساسي والمشترك بين الناس. واضح أنه كان يتجنب (الحكم) على الأشياء ويتقبلها جميعها معتبرا إياها من أقدار الله التي لا مهرب منها، ولعل هذا هو سر الرضا والسعادة التي تتجلى في سمته الهادئ وابتسامته الصافية، فهنيئا له بذلك من زاد يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم!

رحمك الله يا سند، لقد كنت نسيج وحدك حتى في اسمك الفريد المميز هذا! كنت قريبا من الجميع وحبيبا إليهم بعفويتك وتلقائيتك وعفة لسانك وبعدك عن المهاترات، وكنت بذلك (سندا) لهم بشكل أو بآخر!

كان لا بد أن أتعرف إلى سند بايعشوت منذ وقت مبكر بحكم ما يربط بيننا من اهتمامات. واقتربنا أحدنا من الآخر في مناسبات ومواقف ليست قليلة، كانت من آخرها مرافقته للأخ الدكتور صالح علي باصرة، رحمه الله، في زيارته لي في بيتي في غيل باوزير ومعهما الأخ خالد بلكسح. واصطحبته ذات مرة عندما جاء خصيصا إلى الغيل للالتقاء بالأخ الأستاذ حسين صالح بن همام، الشخصية الدبلوماسية ابن الغيل المقيم حاليا في أوروبا، الذي كان قد جاء في زيارة خاطفة إلى مسقط رأسه ومرتع صباه. ودار بين الرجلين حديث شائق ومتشعب، وكان الصحفي يريد أن يقنع الدبلوماسي بتسجيل حوار إذاعي عن حياته وعن بعض القضايا التي عايشها مع بداية الاستقلال وقبل أن ينفذ بجلده من الجو السياسي الفاسد الذي لم يرُق له، هو (المناضل) الحقيقي الشريف، ولكن صديقنا حسين اعتذر بشدة وحق له ذلك. يبدو فعلا أن الراحل سند كان صحفيا وإعلاميا حقيقيا وموهوبا يلتقط ما هو مهم وجوهري في الأحداث وفي الأشخاص ويتجنب سفاسف الأمور وما أكثرها وما أكثر المحتفين بها في هذه الأيام. وكان صاحب أسلوب عفوي جذاب في الكتابة، ومن مصطلحاته الظريفة الخاصة التي تعجبني وكانت تتردد في كتاباته عن

مرحلة صباه في المكلا كلمة (سلاتيم)، يصف بها الهيئة التي يبدو عليها عادةً الصِّبْية الأقرب إلى مرحلة الطفولة، والتي لا أعرف الآن كيف أصفها ولذلك أكتفي بوصف سند المعبر لها: سلاتيم!

ومن المرات الأخيرة التي التقيت به فيها، وكان يرافقه أيضا زميله وصديقه خالد بلكسح، عندما جاء إلى غيل باوزير لحضور حفل إشهار كتاب سيرة الكابتن عبدالله باعامر (باعامر هامة لا تنحني) الذي أعده الأستاذ محمد بن بريك. وقد صعدت بعد انتهاء الحفل في السيارة التي كانت تقل سند ومرافقيه وطلبت منه أن نمر على بيتي لكي أهديه آخر كتابين لي وهما: (كُتّاب في المرآة)، و(على طريق الوعي). كان ذلك الإهداء وفاءً وتقديرًا لصديق وإعلامي مهم وكان أيضا من أجل أن يحضّر سند تحضيرا جيدا، كما قال، لإجراء حوار إذاعي معي في برنامجه (من رحيق العمر). وعندما عدت إلى مراسلاتي معه على الواتسأب في تلك الفترة من أواخر عام 2020م، وجدت ضمن رسائله لي هذه العبارة: ”سأبذل جهدي لأدرس شخصية نجيب لأستعد للمقابلة“، مما يدل على جديته المهنية واهتمامه وحرصه على تسجيل هذا الحوار معي، وهو ما لم يتحقق مع الأسف، وإلا فقد كانت فرصة ثمينة وتجربة جديدة أخوضها في الحديث الشفوي عبر الميكروفون، بدلا من (الحديث) عبر الورقة ثم أخيرا عبر شاشة الكمبيوتر أو الجوال.. وها قد قصر العمر بالإعلامي الذي قدم لمستمعي إذاعة المكلا كؤوسا عذبة من رحيق أعمار عدد من الشخصيات الحضرمية البارزة، الأخ العزيز الصحفي الكبير، الأستاذ سند محمد بايعشوت، وليس لنا إلا أن نستمطر على روحه الطاهرة شآبيب الرحمة والمغفرة ونسأل الله له الفردوس الأعلى من الجنة.. إنا لله وإنا إليه راجعون!

24 مارس 2022م

ملحق

المؤلفات والكتب التي ألفها وترجمها وأعدها للنشر وأشرف على طباعتها مؤلف الكتاب

أولاً: الكتب التي ألفها:

1) حلم الشاعر (ديوان شعر)..... 1984م
2) الحبيبة والفارس (ديوان شعر)..... 2009م
3) في دروب الإبداع.. قضايا يمنية في الأدب والثقافة (مقالات ودراسات)..... 2001م
4) كُتّاب في المرآة.. عصارة عمر مع أهل المعنى والفن (مقالات أدبية)..... 2018م
5) على طريق الوعي.. مقالات كتبت خلال الأعوام 2013– 2019م (مقالات سياسية وأدبية)..... 2019م
6) فن المقالة في حياتي.. ومقالات أخرى (مقالات عامة)..... 2022م

ثانيًا: الكتب التي ترجمها:

1) اليمن أئمتها وحكامها وثوراتها (تأليف: هارولد إنجرامز)..... 2007م
2) أيامي في الجزيرة العربية (تأليف: دورين إنجرامز)..... 2011م
3) وجوه في بلاد العرب (تأليف: دانيال فان در مولين)..... 2016م
4) وصف رحلة إلى الملايو وجاوة وحيدرأباد (تأليف: هارولد إنجرامز)..... 2018م

ثالثا: الكتب التي أعدها للنشر:

1) الثقافة وسيلتنا إلى الكفاح.. مقالات اجتماعية وتربوية وأدبية (تأليف: سعيد عوض باوزير)..... 1998م
2) معارك الأحرار.. مقالات في السياسة (تأليف: سعيد عوض باوزير)..... 2002م
3) حياة جديدة.. سيرة ذاتية وشهادات (مذكرات لسعيد عوض باوزير وشهادات عنه)..... 2003م
4) حصاد السنين (ديوان للشاعر محمد عوض باوزير)..... 2004م

رابعا: الكتب التي أشرف على إعادة طباعتها وكتب لها تصديرا:

1) الفكر والثقافة في التاريخ الحضرمي (تأليف: سعيد عوض باوزير)..... 2011م
2) صفحات من التاريخ الحضرمي (تأليف: سعيد عوض باوزير)..... 2012م
3) معالم تاريخ الجزيرة العربية (تأليف: سعيد عوض باوزير)..... 2017م

خامسا: كتب أشرف على طباعتها وكتب لها مقدمة:

1) أنا والحياة (السيرة الذاتية للقاص عبدالله سالم باوزير)..... 2007م
2) ذاكرة القصة.. أضواء على كتابة القصة (كتاب للقاص عبدالله سالم باوزير)..... 2020م



شـيئا فشـيئا -ولا أعرف كيف حـدث ذلك- بـدأت فـي التحـول مـن هاجـس البحـث والدراسة إلى هاجس (المقالة)، التي أصبحت أجد متعة أكبر في كتابتها..

في المقالة وجـدت أن هناك حريـة أكبر في التصرف في عناصـر الموضوع.. في الاختيار والحذف وفي التقديم والتأخير، وفي المقالة تحررت من الالتزام (الأكاديمي) باسـتعمال الهوامش أيًا كانت.

وفـي فن المقالة وجدت مجالا واسـعا لربط الموضوع، أيًا كان، بذات الكاتب أو ما يسـمى تغليـب العنصر الشـخصي، وقد سـاعدتني خاصية تغليب أو إدخال العنصر الشخصي في المقالة في بث (رسـائلي) الخاصة إلى القارئ! والمقالة حرة بعد ذلك فـي أن تختار الحجم المناسب لها قصرا وطولا..